

أحمد سامي

صقورا المشرق

بداية

ونته

الممالك



@booka.

صقور المشرق

الكتاب : صقور المشرق «بداية ونهاية الممالك

المؤلف: أحمد سامي

تصميم الغلاف : اسلام مجاهد

تدقيق لغوي : عبدالله عثمان

رقم الإيداع : 2021/4409

الترقيم الدولي : 978-977-778-253-1

الطبعة الاولى : 2021

20 عمارات منتصر - الهرم - الجيزة

ت 011-27772007 02-35860372

info@noonpublishing.net



جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

صقور المشرق

بداية ونهاية الممالك

أحمد سامي



دار الكتب المصرية
بطاقة فهرسة أثناء النشر

سامي_ أحمد

صقور المشرق: بداية ونهاية المماليك / أحمد سامي_
تدقيق لغوي: عبدالله عثمان. الجيزة: دار ن للنشر
والتوزيع ٢٠٢١.

ص، ٢٠×١٤ سم

تدمك: ١-٢٥٣-٧٧٨-٩٧٧-٩٧٨

١_ المماليك ٢_ دولة المماليك

٢- العالم العربي_ تاريخ_ عصر المماليك

أ_ عثمان، عبدالله (مدقق لغوي)

ب_ صقور المشرق «بداية ونهاية المماليك»

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٤٤٠٩

التاريخ / ٢٠٢١/٢/٢١

إهداء

إلى دارسي ومحبي تاريخ الممالك أهدي لهم هذا العمل المتواضع، وأرجو
من الله أن يكون نافعا لهم.

كلمة شكر

شكر واجب وتقدير لكل من ساعدني على خروج هذا الكتاب، فأشكر كلا
من أمي العزيزة التي غمرتني بدعائها لي، وأشكر أمي الثانية والدة زوجتي
التي لم تبخل عليّ بوقتها عندما طلبت منها مراجعة الكتاب رغم مشاغلها
الكثيرة، وأشكر أيضا زوجتي العزيزة.

الأتراك وبدايات ظهور العنصر التركي

في التاريخ الإسلامي

مقدمة

دائماً ما يقتزن اسم المماليك ذلك الرقيق الأبيض باسم دولة عظيمة حكمت مصر والشام في أصعب فترات التاريخ الإسلامي الوسيط، والذي كان عبارة عن حروب متواصلة، فقد حاربت دولة المماليك التتار وتمكنت من صدهم عن غزو ديار الإسلام وقتل المسلمين وهزمتهم في معركة تعد بحق من أخطر وأشرس المعارك الإسلامية في تاريخ الإسلام كله، ألا وهي معركة عين جالوت العظيمة، وهذه الدولة هي التي عرفت في التاريخ الإسلامي فيما بعد باسم سلطنة المماليك والتي بدأت في مصر كسلطنة تابعة للخلافة العباسية قبل سقوطها على يد هولاكو قائد جيوش التتار سنة ٦٥٦هـ والذي قتل آخر الخلفاء العباسيين ببغداد المستعصم بالله، ومقتله تنتهي دولة الخلفاء العباسيون في العراق لكي تقوم مرة أخرى على يد ثالث سلاطين المماليك في القاهرة وهو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٩هـ.

ولكن قبل سقوط بغداد بأعوام قليلة قام المماليك في سنة ٦٤٨هـ بقتل سلطانهم والوريث الشرعي لعرش سلطنة الأيوبيين بمصر توران شاه بن السلطان الصالح نجم الدين أيوب أستأذهم وولي نعمتهم، وسبب قتلهم له أنهم علموا بكرهه لهم ونيته الأكيدة في التخلص منهم جميعاً، بعد أن لاحظ قوة نفوذهم في الدولة والجيش خصوصاً، ولهذا أراد أن يتخلص منهم بسرعة ولكن سره افترض وانتهى به الأمر بالقتل على يد مماليك أبيه، والذي تولى قتله الأمير فارس الدين أقطاي.

ثم اتفقت كلمة أمراء المماليك على تولية السلطنة شجر الدر سلطنة مصر، فهي زوجة ملكهم وسلطانهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولأنها صاحبة حكمة ورأي صائب وقدرة ممتازة على إدارة شؤون البلاد، ولكن الأمر لم يتم للماليك ولا للسلطنة شجر الدر وفق ما أرادوا، فلم يمض على سلطنة شجر الدر لعرش مصر سوى ثمانين يوما حتى أرسل لهم الخليفة المستعصم بالله رسالة فيها تبكيّت وسخرية منهم بسبب ما قاموا به من تولية امرأة حكم البلاد، بل وعيرهم إذا كانت الرجال لديهم قليلة أرسل لهم من يسوسهم ويسوس أمر السلطنة.

وهنا لم يجدوا بدا من تولية أحد أمراء المماليك أمر السلطنة خروجاً من هذا المأزق الذي وضعهم الخليفة العباسي فيه، وعلى أن تكون شجر الدر زوجة له من أجل أن يكتسب منها الشرعية في حكم البلاد، فاختاروا من بينهم الأمير أيك لكي يكون سلطاناً عليهم، والذي كان في نظر الأمير فارس الدين أقطاي منافسه الوحيد ضعيف الرأي والشخصية، وبالتالي سيكون المعز هو الواجهة أمام العامة من الناس وفارس الدين هو الحاكم الفعلي والمدير لأمر السلطنة، وقبل أيك السلطنة والزواج من السلطنة شجر الدر وتلقب بالملك المعز وكان ذلك في سنة ٦٤٩هـ، وهكذا فإن التاريخ الفعلي لقيام سلطنة المماليك كان في هذه السنة .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هل كانت هناك بواكير أولى في الدولة الإسلامية لظهور المماليك أو لظهور الترك أو التركمان عموماً كما كانوا يعرفون في ذلك الوقت ؟ أم لا ؟ وهل كان لهم تأثير قوي وظاهر في الجيش والدولة ؟ أم لا ؟

وللإجابة على هذا السؤال والذي له أبعاد كثيرة لابد من تتبعها أولاً، فعلى مناقشة كيف ظهر الترك في التاريخ الإسلامي، وثانياً مناقشة فكرة

إنشاء فرق عسكرية وحرس خاص للخلفاء والأمراء والسلطين كاملة من الترك والدافع الذي من أجله فعلوا ذلك، وثالثا مناقشة ظهور ولاية من الترك يحكمون بعض الولايات الإسلامية باسم الخلفاء، ثم محاولة استقلال بعضهم بهذه الولايات وإنشاء دولا خاصة بهم، وذلك كله قبل ظهور دولة تحمل اسم المماليك يحكمها ترك خلص.

وهذا ما سوف أحاول الإجابة عليه في هذا الفصل بشيء من التفصيل والتدقيق، وذلك لكي أصل إلى أن علاقة العرب بالأتراك كانت قديمة بدأت من عصر الصحابة إلى سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية نهائيا في اسطنبول، أي بالتحديد من سنة ٤٠هـ إلى سنة ١٣٢٦هـ.

@booka

@booka.



الفصل الأول

المماليك «المولد والنشأة»

@booka.

(الخلافة الأموية في دمشق)

٤٠ هجريا - ١٣٢ هجريا

الترك كجند مرتزقة

أولاً: عبيد الله بن زياد (٥٤ هـ - ٦٤ هـ):

وكان أمير العراق في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - وكانت له فتوح في بلاد الترك وما وراء النهر، وهو أول من استقدم الترك وادخلهم في الجيش الإسلامي، ويذكر أنه في سنة ٥٤ هـ قد ورد ذكر استخدام الأمير عبيد الله بن زياد لفرقة من الجند تدعى البخارية - نسبة إلى مدينة بخارى وهي من بلاد ما وراء النهر - وهم من الترك وكانوا مهرة في الرمي بالنشاب، وكان عددهم حوالي ألفان.١

ثانياً: نصر بن سيار الكناني (١٢٠ هـ - ١٣٠ هـ):

وهو من مواليد سنة ٤٦ هـ وقد تولى ولاية خراسان في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ هـ

وكان على قدر كبير من الحكمة والحنكة السياسية والإدارية والخبرة

١- الطبري - أبي جعفر محمد بن جرير (٢٤٤هـ/٣١٠هـ) - تاريخ الأمم والملوك - المجلد الثالث من سنة ٣٦ هـ لغاية ٩٠ هـ - الطبعة الأولى (١٤٠٧ هـ / ١٩٩٨ م) - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ص ٢٤٤.

العسكرية، وكان من أكفأ عمال بني أمية في أواخر دولتهم، وقد حاول إصلاح إقليم خراسان قدر استطاعته ولكنه أتى في وقت قرب نهاية وسقوط الدولة الأموية في المشرق فذهبت إصلاحاته كلها في مهب الريح.

ويعزى إليه أنه أول من فكر في إدخال عنصر الأتراك في الجيش الإسلامي وذلك لعدة أسباب منها:

١- ما لمس من قوة وصلابة وشجاعة الأتراك في الحروب، وخصوصاً حروبهم مع العرب والمسلمين فقد كانت نكايتهم في المسلمين شديدة.

٢- عدم ثقته بالجند العرب في خراسان، فقد كانت الحروب في هذا الإقليم بين القبائل العربية على أشدها ما بين قيسية ويمينية وذلك على رئاسة السلطة في هذا الإقليم، وبالتالي لجأ نصر إلى إدخال عنصر جديد في الجيش وهم الأتراك.

وقد تولى إمرة ولاية خراسان في عهد الخليفين هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ - ١٢٥هـ) فقام بأمر الولاية على أكمل وجه ولم يتعصب لقبيلة من القبائل العربية هناك، ثم تولى أمر الخلافة من بعد هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥هـ - ١٢٦هـ) والذي أقره على ولايته إلى أن قتل الوليد. ٢

وأول إشارة إلى ذكر المماليك في عهد الأمير نصر بن سيار عندما تولى الخليفة الوليد بن يزيد أمر الخلافة، فقد أرسل الخليفة إلى عامله على خراسان الأمير نصر بن سيار يأمره بالقدوم إلى دمشق عاصمة الأمويين بالشام هو وعياله أجمعين، وكلفه أيضاً أن يحضر له معه أشياء كثيرة منها

٢- السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن - تاريخ الخلفاء - الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ / ٢٠٠٠م) مكتبة مصر - سعيد جودة السحار وشركاه - القاهرة - الفجالة - ص ٢٦٥ وص ٢٦٩.

بزاة الصيد - طيور جارحة - والخيل والبراذين والبرابط والطناير وأباريق مصنوعة من الذهب والفضة، وثمانيل الظباء ورؤوس السباع والأياثل وكل وصيفة حسناء، وكثير من الجواري الحسان، والمماليك بكامل سلاحهم. ٣

فكانت هذه أول إشارة إلى ذكر الأتراك بمسمى المماليك وأيضاً إلى صفتهم المحاربة من خلال كامل سلاحهم أي أنهم كانوا مدربين على القتال والحرب، ثم ورد بعد ذلك ذكر استخدام نصر بن سيار الكناني إلى قواد من الأتراك على الولايات، ففي سنة ١٢٥هـ وذلك بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك مباشرة، وتولي أمر الخلافة الوليد بن يزيد وطلبه من نصر أن يقدم إلى دمشق، فقام نصر يولي ولايات خراسان إلى كبار قواده والذي كان من بينهم اثنان من القواد الأتراك من ذوي الكفاية والثقة وهما:

١- القائد حسان الأسدي وكان من أهل صغانيان، ولاه إمرة مدينة سمرقند.

٢- القائد مقاتل بن علي السغدي وكان من أهل سغد، ولاه إمرة مدينة أمل، وسوف يشترك مع نصر بن سيار بعد ذلك في حروبه ضد جيوش العباسيين في خراسان.

وأمرهم كذلك أنهم إذا بلغهم خروجه من مدينة مرو أن يستجلبوا الترك الذين معهم، ثم يقوموا بالإغارة على بلاد ما وراء النهر، وذلك من أجل أن ينصرف إليهم بعد خروجه، ولكن ما أن خرج نصر بن سيار من مدينة مرو حتى أتاه خبر مقتل الخليفة الوليد بن يزيد فانصرف راجعاً إلى ولايته مرة أخرى. ٤

٣- فلهوزن - يوليوس - تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية - مراجعة د. حسين مؤنس - تقديم مصطفى لبيب عبد الغني - الطبعة الثانية (٢٠٠٩م) - المركز القومي للترجمة - القاهرة - ص ٣٤٤.

٤- الطبري - أبي جعفر محمد بن جرير (٢٤٤هـ / ٣١٠هـ) - تاريخ الأمم والملوك - المجلد الرابع من سنة ٩١هـ لغاية سنة ١٩١هـ - الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ص ٢٣١.

وبهذا يعتبر ولاية الأمويين منذ عهد الخليفة معاوية - رضي الله عنه - ومن أتى من بعده من الخلفاء والذين عرفوا أهمية الأتراك في الجندية ومهاراتهم في القيادة والحروب فاستخدموهم في الجيوش الإسلامية معهم، ولكن لم يتصوروا أن هؤلاء الأتراك يمكنهم أن يكونوا ولاية لولايات كبيرة مثل مصر وغيرها من الولايات ، ولكن هذا الأمر سوف يختلف مع ظهور الخلافة العباسية والتي سيقوم خلفائها بالاهتمام بهؤلاء الغلمان أو المماليك الأتراك فلم يقصروا دورهم في الحرب والقتال كما فعل الأمويين فقط، بل سيولونهم الولايات الكبيرة ويعطونهم المناصب الجليلة في الدولة، وهذا ما سوف نراه في الكلام عن دور الأتراك في الدولة العباسية.

@booka

(الخلافة العباسية - العصر الأول)

١٣٢هـ - ٢٥٢هـ

عصر الولاة الأتراك على مصر

جاءت الخلافة العباسية عقب الخلافة الأموية، وذلك بعد أن تمكنت من هزيمة آخر خلفائها مروان بن محمد، وذلك في مواجهة الزاب الكبرى سنة ١٣٢هـ، وكان العنصر الرئيس من الجنود والفرسان في جيوش العباسيين هم الفرس ولكن تحت قيادة أمراء من العرب، فقد رغب العباسيون عن استعمال الجنود العرب وذلك لما علموه وجربوه من عصبية الجنود العرب وحميتهم لقبائلهم، وأيضا نقمة الموالي الفرس خصوصا على العرب، ولهذا لجأوا إلى استعمال الجنود الفرس في الجيوش وأيضا استعملوهم في الوزارة، وأشهر من تولى منصب الوزارة في العصر العباسي هم البرامكة والذين كانوا من الفرس وكان فيهم تشيع لآل البيت العلوي، ولكن مع مرور الزمن أحس الخلفاء العباسيون الذين أتوا بعد الخليفة هارون بسطوة الفرس على دولتهم فحاولوا من التقليل من استعمالهم في تسيير أمور الدولة، وهذا ما حدا بالرشيد من نكبه لآل برمك بالقتل والحبس ومصادرة الأموال.

ولم يكن أمام العباسيين من خيار آخر سوى استعمال الترك في الجيوش والوزارة، فلم يعد للعرب تلك العصبية الأولى بعد أن قهرهم العباسيون، والفرس لم يعودوا أهلا للثقة بعد أن كثرت فيهم الحركات الشعبية والتي كانت تدعوا إلى كره العرب والخط من شأنهم ومن شأن آدابهم وعلومهم، فنظروا إلى البلدان المفتوحة فيما وراء النهر في بلاد الترك، والتي وجدوا

فيهم ضالتهم فأخذوا يجلبونهم أطفال صغار ويربونهم تربية اسلامية حربية ويدخلونهم في الجيوش ويولونهم المناصب في دولتهم، وأول من فعل ذلك هو:

أولاً: الخليفة المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور أبو جعفر (١٥٨هـ - ١٦٩هـ):

وهو ثالث الخلفاء العباسيين، وأول من ولى الأتراك الولايات في الدولة، فقد ولى على مصر أحد أمراءه الأتراك وهو الأمير يحيى بن داود الخرسى.

ولاية يحيى بن داود الشهير بابن ممدود أبو صالح الخرسى على مصر (١٦٢هـ - ١٦٤هـ):

تولى ولاية مصر بأمر الخليفة المهدي في ذي الحجة سنة ١٦٢هـ ، ولما قدم مصر سكن مقر الحكم بها وهي مدينة المعسكر، وكان يحيى هذا تركيا فيه شدة بأس وقوة جنان مع عقل ومعرفة في تدبير أمور الدولة والحكم، وكانت مصر قبل مجيئه غير آمنة الطرقات، فقد كثرت بها السرقات وقطع الطرق، فأول ما قام به هو تتبع المفسدين وقمعهم بأشد أنواع القمع فتمكن من قتل الكثير من المفسدين، فخافه الجميع خوفاً زاد على الحد والطاقة، حتى منع التجار وأصحاب المحال من غلق حوانيتهم ومحلاتهم ليلا فاتخذوا أبواب من القصب لخلق دكاكينهم، وكان الرجل يدخل الحمام فيخلع ثيابه ويتركها على باب الحمام فيخرج بعد أن يأخذ قسطاً من الراحة والتمهل في ذلك فيخرج فيجد ثيابه موجودة كما تركها لا يجرؤ أحد على سرقتها خوفاً وهيبة من عقاب الأمير يحيى بن داود.

واستمر يحيى بن داود في ولايته على مصر من سنة ١٦٢هـ إلى سنة ١٦٤هـ، ثم عزله المهدي في سنة ١٦٤هـ، فكانت ولايته على مصر سنة وشهرا إلا أياما، وهو أحد من مهد الديار المصرية وأباد أهل الحوف من قيس ويمن وغيرهم ممن كانوا يقطعون الطريق على الناس في سفرهم، وكان من أحسن من تولى إمرة مصر لولا شدته المفرطة المجاوزة عن الحد لهذا كرهه الناس وفرحوا بعزله. ٥

ثانيا: الخليفة المأمون أبو العباس عبد الله بن الرشيد (١٩٨هـ - ٢١٨هـ):

وهو صاحب نهضة حركة الترجمة الواسعة في الكتب والعلوم والتي بدأها أبيه الخليفة هارون الرشيد قبله، وقد استخدم الأتراك في الولايات ومنها ولاية مصر، وكان أول من ولاهم على مصر هو:

***كيدر واسمه نصر بن عبد الله (٢١٧هـ - ٢١٩هـ):**

هو الأمير أبو مالك نصر بن عبد الله الصغدّي - احدى ولايات جمهورية طاجيكستان الحالية - واشتهر بكيدر، وقد تولى ولاية مصر في شهر صفر سنة ٢١٧هـ من قبل الخليفة المأمون وسكن مدينة العسكر، وظل في ولايته

٥ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثاني - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٤ و ص ٤٥ .

إلى أن مات في شهر الربيع لآخر من سنة ٢١٩هـ بعد أن أقره الخليفة المعتصم بالله على ولاية مصر. ٦

ثالثاً: الخليفة المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد (٢١٨هـ - ٢٢٧هـ):

وهو أول من أدخل الأتراك في ديوان الخلافة من خلفاء بني العباس، وقد بلغ عدد غلمانهم من الأتراك على ما قيل بضعة عشر ألفاً، وهذا ما دفعه إلى بناء عاصمة جديدة تكون له ولجنوده من الأتراك.

*بناء مدينة سامراء - سر من رأى - سنة (٢٢١هـ):

وكان سبب بنائه لهذه المدينة الجديدة والتي جعلها عاصمة له ولجنوده هو كثرة جنوده وغلمانهم الأتراك، فقد كان المعتصم شغوفا باقتناء الغلمان من الأتراك فبعث إلى مدن سمرقند، وفرغانة ومن جميع النواحي القريبة من هذه المدن من أجل شرائهم، وبذل فيهم الأموال الجليّة، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، فكانوا يطردون خيلهم في بغداد فيؤذون الناس وأولادهم، وتعرضوا للنساء، فكان في كل يوم ربما قتل منهم جماعة، وضاق بهم بغداد لكثرتهم، وضاق بهم أهلها فاجتمعوا بالخليفة وقالوا له: «إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك، قال: وكيف تحاربوني؟ قالوا: بسهام

الأسحار - يقصدون الدعاء عليه - فقال: لا طاقة لي بذلك»^٧

وقيل ركب المعتصم يوما فلقيه شيخ كبير، فقال للمعتصم: «يا أبا إسحاق فأراد الجند ضربه، فمنعهم المعتصم وقال له: مالك يا شيخ ؟ فقال: لا جزاك الله خيرا عن الجوار، جاورتنا مدة فرأيناك شر جار، جئنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت نساءنا، والله لنقاتلنك بساهم السحر، والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم ير راكبا إلا في يوم مثل ذلك اليوم، فركب وصلى بالناس العيد وسار إلى موضع سامرا فبناها»^٨.



بقايا مدينة سامراء العباسية

٧- السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن - تاريخ الخلفاء - الطبعة الأولى - (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) - دار مصر للطباعة - سعيد جودة السحار وشركاه - القاهرة - ص ٣٦٢ وص ٣٦٣ .
٨ - ابن الطقطقا - محمد بن علي بن طباطبا - الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية - دار صادر - بيروت - ص ٢٣١ .

وقد أقر على ولاية مصر الأمير كيدر بن نصر ثم لما توفي أقر من بعده ولده على ولاية مصر وهو:

*المظفر بن كيدر بن نصر بن عبد الله (٢١٩هـ):

وقد تولى إمرة مصر باستخلاف من أبيه كيدر، فأقره الخليفة المعتصم على ولايته، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢١٩هـ، وسكن مدينة العسكر، وقد خرج عليه رجل يدعى يحيى بن الوزير وكان قد خرج على أبيه من قبل وذلك قبل وفاته بقليل، فتهيأ المظفر لقتاله وجمع الجنود والفرسان، والتقى المظفر بيحيى بن الوزير فكانت بينهما موقعة هائلة انكسر فيها يحيى وظفر به المظفر، ولكن ولاية المظفر لم تطل فقد عزل عن إمرة مصر بعد أربعة أشهر على التقريب، وتولى مكانه أبو جعفر أشناس، وكان ذلك في شهر شعبان. ٩

ثالثاً: الخليفة أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم (٢٠٥هـ - ٢٤٧هـ):

وقد أكثر هذا الخليفة من تولية الأتراك على ولاية مصر. وهم على التوالي:

٩ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٨١٣هـ - ٨٧٤هـ) - الجزء الثاني - الطبعة الثانية (١٤٣٦هـ/٢٠١٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٢٢٩ و ص ٢٣٠ .

إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم الختلي (٢٣٥هـ - ٢٣٦هـ):

أصله من قرية ختلان - وهي بلدة عند مدينة سمرقند - تولى ولاية مصر في ذي الحجة سنة ٢٣٥هـ، وقد ولاه ولي عهد الخليفة المتوكل الأمير المنتصر بالله على مصر وجمع له صلاتها وخراجها معا ودخل مصر في يوم ١١ ذي الحجة من السنة المذكورة وسكن مدينة العسكر، وكان فيه ميزات عديدة فقد كان يحب العدل والإنصاف، وكان جوادا يحب الشعراء عاقلا صاحب سياسة وذكاء، وعزل عن ولاية مصر في سنة ٢٣٦هـ. ١٠

يزيد بن عبد الله بن دينار أبو خالد التركي (٢٤٢هـ - ٢٥٢هـ):

تولى ولاية مصر بأمر من ولي العهد الأمير المنتصر بالله بن المتوكل، فدخل مصر لعشر بقين من شهر رجب سنة ٢٤٢هـ، وسكن مدينة العسكر وقام بإصلاح البلاد، فمهد أمور الديار المصرية وأخرج المؤنثين منها وضربهم وطاف بهم، ومنع النداء على الجنائز وضرب من فعل ذلك، ولكن أهم إنجازاته هي بنائه لمقياس النيل الذي عند جزيرة الروضة سنة ٢٤٧هـ، ومنذ بنائه تم إبطال جميع ما قبله من المقياس فكان هو المعتمد في

١٠ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثاني - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٢٨٣.

قياس منسوب النيل من ارتفاع وانخفاض، وظل على ولايته لمصر في عهد
ال خليفة المنتصر بالله والخليفة المستعين بالله أحمد حتى عزل منها في سنة
٢٥٢هـ، عزله المعتز بالله محمد وعين مكانه والي آخر تركي أيضا. ١١



مقياس النيل بالروضة

رابعاً: الخليفة المعتز بالله محمد وقيل الزبير بن المتوكل على الله (٢٥٢هـ

- ٢٥٥ هـ):

وقد سار هذا الخليفة على نفس منوال من سبقوه من الخلفاء من تعيين
الولاة الأتراك على مصر وهم الأمراء التالي أسمائهم:

مزاحم بن خاقان بن عرطوج أبو الفوارس التركي (٢٥٣هـ - ٢٥٤هـ):

وهو أخو الوزير الفتح بن خاقان الذي قتل مع الخليفة المتوكل على
الله، وقد تولى ولاية مصر بعد عزل الأمير يزيد بن عبد الله التركي والذي
كان قد ولاه على إمرة مصر الخليفة السابق المنتصر بالله، وقد تولى الأمير
مزاحم بن خاقان ولاية مصر لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ
وسكن العسكر، وكان شديداً على أهل الفساد فقمع تمرد قام به جماعة
كبيرة من أهل الحوف من الوجه البحري، وكذلك فعل بأهل تروجه من
البحيرة، وأهل الفيوم، وشدد على الناس في ترك البدع وأخذهم بالشدة
وظل هكذا حتى مرض ومات سنة ٢٥٤هـ. ١٢

١٢ - المصدر السابق - ص ٣٣٧ و ص ٣٤٠ .

أحمد بن مزاحم بن خاقان (٢٥٤هـ):

تولى إمارة مصر بأمر من أبيه الأمير مزاحم بن خاقان، فأقره الخليفة المعتز على ولاية مصر وكان ذلك في يوم ٥ من محرم سنة ٢٥٤هـ وسكن العسكر، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين ويوم واحد، فقد مات لسبع خلون من شهر ربيع الآخر في السنة نفسها، وكان شابا صاحب رأي ومعرفة وتجربة والرعية بمصر كانت تحبه. ١٣

أرخوز بن أولوغ طرخان التركي (٢٥٤هـ):

كان أرخوز من كبار أمراء الدولة العباسية ببغداد، ثم توجه إلى مصر وتولى بها الشرطة لعدة أمراء، ثم تولى إمارة مصر بأمر من الأمير أحمد بن مزاحم الذي استخلفه على الولاية وقد أقره الخليفة المعتز بالله، وكان ذلك في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ٢٥٤هـ، وظل بها والي من قبل الخليفة المعتز بالله حتى قتل على يد الأمراء الأتراك، فكانت مدة ولايته على مصر خمسة أشهر ونصف شهر بمجيء الأمير أحمد بن طولون، والذي أتى مصر في شهر رمضان وأسس فيها أول دولة تركية منفصلة عن الخلافة العباسية فعليا وظل تابعا لها اسميا فقط. ١٤

وهكذا رأينا أن علاقة مصر بالأتراك قديمة وليست حديثة، وأن الخلفاء العباسيون قد ولوا العديد منهم على مصر، ولكنهم كانوا مجرد ولاة من قبل الخليفة ولم يطمحوا في تكوين دولة مستقلة يحكمونها باسمهم بعيدا

١٣ - المصدر السابق - ص ٣٤١ .

١٤ - المصدر السابق - ص ٢٤١ وص ٢٤٢ .

عن الخلافة بالعراق، ولكن في الفترة الثانية من الخلافة العباسية وهي فترة الضعف التي ضربت الخلافة والخلفاء سوف يقوم بعض الأمراء والقواد الأتراك الطامحين في تكوين دولهم الخاصة بهم في مصر وغيرها من الولايات، ولكن ما يهمنا هنا هي ولاية مصر، وكانت أولى هذه الدول هي الدولة الطولونية التي أسسها أحد الأمراء الأتراك الكبار وهو الأمير أحمد بن طولون، وسوف نتكلم عن كيف ظهرت هذه الدولة العظيمة في مصر وما قامت به من إنجازات وأعمال على كافة الأصعدة من عمران وبناء وجهاد.

@booka

(أحمد بن طولون - أول حاكم تركي لمصر)

٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ



شعار الدول الطولونية أيام الخلافة العباسية

ويعرف هذا العصر الذي ظهرت فيه الإمارات المستقلة بعصر الضعف الأول للخلافة العباسية، وهو العصر الذي سيطر فيه القواد والأمراء الأتراك على الخلفاء العباسيون، وقد أحس الولاة في الولايات خصوصا تلك البعيدة عن عاصمة الخلافة أن قبضة الخلافة قد ضعفت فبدأوا يطمحون في تكوين دولهم الخاصة بهم ولأبنائهم من بعدهم ومن هؤلاء الأمراء أحمد بن طولون، والذي أرسل في البداية إلى مصر كوالي من قبل القادة الأتراك في سامراء، وذلك بعد قتل الخليفة المعتز بالله، ولكن بداية سوف نتكلم عن أصل ونشأة مؤسس هذه الأسرة العريقة في مصر.

أصل الأمير أحمد بن طولون (٢١٤هـ أو ٢٢٠هـ - ٢٧٠هـ):

هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون التركي، كان أبوه طولون أحد موالي الأمير نوح بن أسد بن سامان الساماني عامل الخلافة العباسية على بخارى وخراسان، وقد أهداه الأمير نوح إلى الخليفة المأمون في جملة من أهدي من المماليك الأتراك، فأعجب به المأمون ورقاه حتى صار من جملة الأمراء، ثم ولد له أحمد في سنة ٢٢٠هـ وقيل ولد في سنة ٢١٤هـ ببغداد، وقيل ولد بمدينة سامراء، وكانت أمه جارية تسمى هاشم وقيل قاسم، وقد حفظ القرآن في صغره وانكب على الدرس والتعلم والتفقه على مذهب الإمام أبو حنيفة فنشأ متدينا يحب العلم والعلماء.

وقد توفي والده طولون في سنة ٢٤٠هـ فولاه الخليفة المتوكل على الله أعمال أبيه، ثم تنقلت به الأحوال فتولى إمرة الثغور ثم إمرة مدينة دمشق وأثبت فيهما كفاءة وحسن تدبير وسياسة ممتازة، ومع أنه كان تركي إلا أنه كان يكره الأتراك لجرأتهم على الدين وتناولهم على الخلفاء فقد كان يقول عنهم: «حرمة الدين عندهم مهتوكة».

وكان الخليفة المستعين بالله يحبه ويجله عن باقي الأمراء الأتراك، فإذا دخل عليه أحمد بن طولون مع بقية الأمراء الأتراك كان يومئ له بالسلام سرا، ثم تزوج ابن طولون من ابنة عمه خاتون فولدت له ابنه العباس سنة ٢٤٢هـ، ثم أهداه الخليفة المستعين جارية تدعى مياس فولدت له ابنه خمارويه - وهو الذي سيخلف أباه في حكم مصر من بعده - في شهر المحرم سنة ٢٥٠هـ.

سبب تولية ابن طولون لمصر سنة (٢٥٤هـ):

ثم توالى الأيام والخليفة المستعين على حاله مع الأتراك وهم يزدادون له سوءاً وتنكراً حتى عزموا على خلعهم من الخلافة، فلما تم لهم ما أرادوا أنزلوا الخليفة إلى مدينة واسط وخيروه من يريد في صحبته فاختار أن يصحبه الأمير أحمد بن طولون، فقد كان على علم لما يبيتون له وهو التخلص منه، ولهذا رغب في أن يكون في حمى ابن طولون لصحبته ومحبته له، فلما وصلوا إلى مدينة واسط أرسل الأتراك إلى أحمد برسالة فيها: «أقتل المستعين ونوليك مدينة واسط» فكتب لهم: «لا رأيي الله قتل خليفة بايعت له أبداً» فبعثوا إليه سعيداً الحاجب الملقب بجزار بني هاشم - هو اللقب الذي أطلقه عليه الخليفة المستعين بالله نفسه! - فقتل المستعين، فلما رآه ابن طولون حزن عليه ووارى جثته، ثم رجع ابن طولون إلى مدينة سامراء بعد قتل الخليفة وأقام بها، وزادت مكانته لدى الأتراك فقاموا بتوليته ولاية مصر بدلاً من أميرها أرخوز بن أولوغ طرخان التركي، وكان ذلك في سنة ٢٥٤هـ في شهر رمضان فكان ابن طولون يقول في ذلك: «غاية ما وعدت به في قتل المستعين واسط، فتركت ذلك - يعني قتل المستعين - لله تعالى، فعوضني ولاية مصر والشام» ١٥

وظل أحمد بن طولون والياً على مصر من قبل الخلافة العباسية أيام الخليفة المهتدي بالله ومن بعده الخليفة المعتمد، ثم أعلن استقلاله بولاية مصر وتمكن من مد نفوذ دولته الجديدة من المغرب إلى الفرات، وبذلك يكون سلطاناً على مصر والشام معا وكان ذلك في سنة ٢٦٤هـ.

١٥ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٣٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - من ص ١ إلى ص ٦ باختصار .

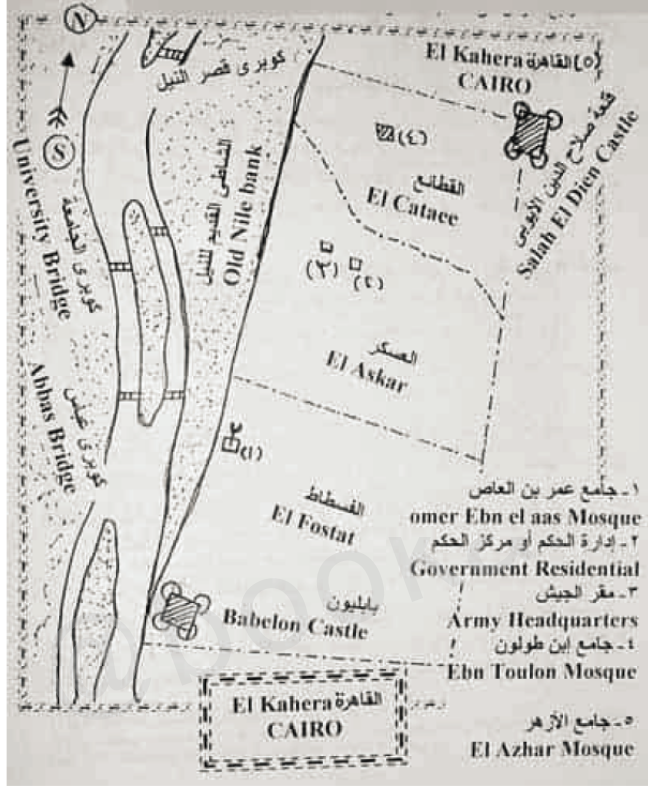
مآثر ابن طولون المعمارية في مصر:

١- بناء مدينة القطائع سنة (٢٥٦هـ):

كانت عاصمة مصر طوال العصور السابقة على الدولة العباسية هي الفسطاط وهي المدينة التي بناها الصحابي عمرو بن العاص - رض الله عنه - سنة ٢١هـ، وظلت الفسطاط هي عاصمة الإقليم في عهد الدولة الأموية، فلما قامت الدولة العباسية ظلت العاصمة كما هي حتى أتت سنة ١٣٥هـ وكان الوالي على مصر يدعى أبو عون عبد الله - أو عبد الملك - بن يزيد وكان معه الأمير صالح بن علي العباسي يطاردون آخر خلفاء الأمويين مروان الحمار - لقب بالحمار لشدته وتحمله - نزلوا بعساكرهم على جبل يشكر فاستحسنوا المكان فأمر أبو عون بالبناء في هذا الموضع فتم بناء دار الإمارة، والمسجد والذي سمي بمسجد عوف بجامع العسكر الذي بناه الأمير الفضل بن صالح بن علي العباسي، ودار الشرطة العليا، فأصبحت مدينة العسكر عاصمة الولاة العباسيون هم وعساكرهم، وأما أهل مصر فقد كانت سكناهم في الفسطاط حتى مجيء الوالي أحمد بن طولون والذي سوف يبني عاصمته الخاصة والتي أسماها القطائع.

والسبب في بناء أحمد بن طولون للقطائع هو أنه أراد أن يبني قصرا فرأى أن يبني المدينة أولا، وجعل مساحتها ميلا في ميل فكان طولها من قبة الهواء والتي بني مكانها قلعة الجبل إلى جامع الذي سوف يبنيه بعد ذلك، وأما عرضها فكانت من أول الرميطة من تحت القلعة إلى موضع يعرف بالأرض الصفراء عند مشهد زين العابدين، ثم أسماها بالقطائع والتي تعني الأطباق، وهي جمع قطيعة كانت تسكنها طائفة معلومة

من الجنود، ثم عمرت وأصبحت عاصمة الطولونيون حتى خرابها وسوف
نتعرض لكيفية تدميرها وإزالة آثارها. ١٦



رسم يوضح عواصم مصر الإسلامية

١٦ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية - (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار
الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٤ و ص ١٥

٢- بناء قصر ابن طولون سنة (٢٥٦هـ):

ثم شرع الأمير ابن طولون في بناء قصره، فجعله في غاية الحسن والسعة، وجعل له ميدانا كبيرا من أجل اللعب فيه بالكرة والصولجان فسمي قصره بالميدان من أجل ذلك، وعمل لهذا الميدان أبوابا لكل باب اسم خاص به، وكانت كلها تفتح في أيام الأعياد أو يوم عرض الجيش أو يوم الصدقات، وكانت هذه الأبواب تغلق بعد ذلك ولا تفتح إلا في أيام معلومة.

ثم جعل للقصر مجلس يشرف منه الرائي على الميدان، فكان الأمير ابن طولون يجلس في هذا المجلس ليرى الجيش يوم العرض ويوم الصدقة فينظر من أعلاه فيرى من يدخل الميدان ومن يخرج منه، وكانت صدقاته في يوم الصدقة تصل إلى ألفي دينار في كل شهر، هذا غير النذور وما يطبخه في مطابخه من أجل الفقراء والمساكين في داره بالقصر، وكان ينادى: «من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر» فتفتح الأبواب ويدخل الناس إلى الميدان، وابن طولون جالس في المجلس ينظر إلى المساكين ويفرح لفرحهم ويحمد الله على ما أنعم عليه.

٣- بناء جامع ابن طولون سنة (٢٥٩هـ أو ٢٦٣هـ):

ثم قام الأمير ابن طولون ببناء جامع الذي يعد بحق أعجوبة معمارية وفنية ما زلت قائمة إلى الآن وقد قيل أنه ابتداء في بنائه سنة ٢٥٦هـ كما نقل

١٧ - مبارك - علي باشا - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة - الجزء الثاني - طبعة جديدة عن طبعة بولاق (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٢٩٢ وص ٢٩٣ .

ذلك ابن تغري بردي، ولكن المقرئزي له رأي مخالف حيث يقول: «أنه ابتداءً في بنائه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون في سنة ٢٦٣هـ، وفرغ منه في رمضان سنة ٢٦٥هـ» أي أن بناء الجامع استغرق حوالي ثلاث سنوات، ولكن قبل الكلام على بناء الجامع لابد من الكلام على الكنز العجيب الذي وجده الأمير.



جامع أحمد بن طولون

قط يصمم ما عجز المهندسون عن تصميمه:

ومن القصص الطريفة التي حدثت أثناء تصميم وبناء الجامع هو الحيرة التي وقعت بين المهندسين والصناع عن كيفية بناء منارة الجامع، فقال الصناع للأمير ابن طولون: على أي مثال تعمل المنارة؟، وفي تلك اللحظة كان هناك قط يلعب بقطعة من الكاغد نوع من الورق المقوى فأخذ يلعب ويعبث به في مجلس ابن طولون، فخرج جزء من هذا الكغد وبقي بعضه، فتعجب الحضور من شكل الكاغد، فقال لهم الأمير: اصنعوا لمنارة على هذا المثال. فصنعوها كما فعل القط، فكانت هذه من النوارد التي

حدثت في بناء الجامع. ١٨



منارة جامع ابن طولون المملوية

كنز ابن طولون:

وأما قصة الكنز الذي عثر عليه الأمير قدرا من الله تعالى لكي ينفقه في
سبل الخير فهي كما تقول الرواية :

«أن الأمير في أحد الأيام وهو راكب على فرسه يتصيد غاصت قوائم فرسه

١٨ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في
ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب
والوثائق القومية - القاهرة - ص٨.

في الرمال، فأمر في الحال بكشف ذلك الموضع فوجد فيه مبلغ هائل من المال يقدر بحوالي ألف ألف دينار، فأنفقها في أبواب البر والصدقات، ومن هذا المال أمر ببناء جامعته والذي أنفق عليه مائة ألف وعشرين ألف دينار، وبناءه بين مصر وقبة الهواء على جبل يشكر خارج القاهرة»

رؤيا لابن طولون عن جامعته:

وبعد أن أتم ابن طولون بناء جامعته رأى رؤية غريبة جدا حتى أنه فزع منها فقد رأى في منامه:

«كأن الله تعالى قد تجلى للقصور التي حول جامعته ولم يتجل للجامع»، فسأل المعبرين - المفسرين - فقالوا له: يخرب ما حوله - أي ما حول الجامع - ويبقى قائما وحده. فقال لهم: من أين لكم هذا ؟ قالوا: من قوله تعالى: «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا». (الآية ١٤٣ من سورة الأعراف) وقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «إذا تجلى الله لشيء خضع له» فكان كما قالوا.

ثم رأى الأمير ابن طولون رؤية أخرى مفادها:

«أنه لما فرغ من بنائه رأى في منامه كأن نار نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله من العمران، فلما أصبح قص رؤياه ف قيل له: أبشر بقبول الجامع المبارك، لأن النار كانت في الزمن الماضي إذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته، ودليله قصة قابيل وهابيل».

وهناك قصة طريفة حول جامع ابن طولون، فقد أراد الأمير أن يعرف رأي الناس في جامعته وما فيه من العيوب، فأمر بعض أفراد حاشيته أن يسألوا

الناس عن رأيهم في الجامع فكان جوابهم:

«قال رجل: محرابه صغير، وقال آخر: ما فيه عمود!، وقال آخر: ليست له ميضأة» فلما بلغ ابن طولون ما قاله الناس رد على العيوب التي ذكروها كالآتي: «أما المحراب فأني رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد خطه لي في منامي، وأصبحت فرأيت النمل قد طافت بذلك المكان الذي خطه لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأما العمدان فأني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز، وما كنت لأشوبه بغيره، وهذه العمدان إما أن تكون في مسجد أو كنيسة فنزهته عنها، وأما الميضأة فأني نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته عنها، وما أنا أبنيها خلفه، وأمر بنائها» ١٩

وليس هنا مجالنا للتحقق من صحة هذه الرؤى إذا حدثت أم لا فقد كانت سمة هذا العصر وذلك الزمان أن يحاك حول الأحداث المهمة الرؤى والأحلام لإضفاء الهيبة عليها، وعلى كل يمكننا أن نستأنس منها على مدى إخلاص ابن طولون في بناء جامعته والذي أصبح من أكبر جوامع مصر وأجملها من الناحية المعمارية.

٤- بناء اليمارستان الطولوني سنة (٢٥٩هـ أو ٢٦١هـ):

وهو أول مستشفى في ولاية مصر الإسلامية كلها وكان يطلق عليه اليمارستان العلوي وكان بنائه في غاية الإتقان والوسع، وقد أنفق ابن

١٩ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٧ إلى ص ١١ باختصار .

طولون على بنائه أموال كثيرة وصلت إلى ستين ألف دينار.

٥- ترميم وتعمير حصن جزيرة الروضة سنة (٢٦٣هـ):

ومن إنجازات الأمير ابن طولون الإنشائية تعميره للحصن الذي بناه الروم في جزيرة الروضة من أجل صد هجمات الأعداء، وقد تحصنوا فيه أثناء حصار عمرو بن العاص - رضي الله عنه - لهم، فلما هربوا منه أمر عمرو بن العاص - رضي الله عنه - بتخريب أبراجه وأسواره حتى لا يكون ملجأ للروم مرة أخرى فيغيرون منه على المسلمين، وظل الحصن خراب إلا أن عمره الأمير ابن طولون مرة أخرى، فجدد أسواره وأبراجه وشحنه بالعساكر، وكان ذلك في سنة ٢٦٣هـ وظل هذا الحصن قائماً إلى أن خربه النيل. ٢٠

٦- مسجد التنور:

وقيل أن الأمير أحمد بن طولون قد بنى جامع آخر على جبل يشكر في مكان يعرف بتنور فرعون، ويقال أن هذا المكان الذي كان يوقد فيه لفرعون على تنور صنع خصيصاً له، فإذا أوقدوا فيه النار علموا أن فرعون قد ركب في موكبه فيسرعون لصنع له ما يريد، وكذلك كان يوقد له عند خروجه من عين شمس، وسبب بناء المسجد في هذا الموضع أن أحد قواد أحمد بن طولون عندما وجد التنور حسب أن تحته مال مدفون - كما

هي العادة في ذلك الزمان - فحفر تحته فلم يصل إلى شيء، وعندما علم أحمد بن طولون بأمر هذا التنور قام ببناء هذا الجامع عليه وجعل له مئذنة كانت تقاد ليلا من أجل هداية الناس إلى الطريق. ٢١

رؤية أخرى تكون سببا لتوبة ابن طولون عن ظلمه:

وعلى الرغم من كل صفات الخير والتدين التي أوردناها للأمير أحمد بن طولون، إلا أنه لم يكن كذلك قبل رؤيته التي تلك الرؤيا التي رآها، فقد رأى رؤية مفزعة في أحد الليالي فيا ترى ما كانت هذه الرؤية؟

«تقول الروايات التاريخية أن الأمير أبو العباس أحمد بن طولون لما تولى أمر مصر كان قد ظلم وقهر وسفك الكثير من الدماء، حتى يقال أنه قد مات في حبسه حوالي ثمانية عشر ألف نفس! وفي إحدى الليالي رأى في نومه وكأن الله سبحانه وتعالى قد مات في داره! فاستيقظ من نومه مفزوعا مستعظما لما رآه، وفي اليوم التالي جمع كل من له علم بتعبير الرؤى والأحلام فقص عليهم رؤياه فحاروا جاوبا ولم يعلموا ما معنى الرؤيا، فقال له أحدهم:» أقول ولي الأمان؟ قال له: نعم، فقال له: أنت رجل ظالم، قد أمت الحق في دارك، فهنا بكى ابن طولون وتاب عن ظلمه وسفكه للدماء بغير حق» ٢٢

٢١ - حسين - د. حمدي عبد المنعم - محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية - ص ٧٤ و ص ٧٦ .
٢٢ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/ ٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٣ .

استقلال أحمد بن طولون بمصر عن الخلافة العباسية سنة (٢٦٦هـ):

وهذا هو الحدث الأهم في تاريخ الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، بل وفي تاريخ الدولة الطولونية كلها فقد كان حلم الأمير ابن طولون أن يكون له ولأولاده من بعده دولة يحكمونها باسمهم بعيدا عن تحكم القواد الأتراك الذين تحكموا في الخلفاء العباسيين.

فقد رأى ابن طولون ضعف الخلافة خصوصا بعد مقتل الخليفة جعفر المتوكل ووفاته ولده من بعده الخليفة المنتصر بالله أحمد، فقد أضحي الخلفاء تحت رحمة أمراء الترك فيقتلون من لا يوافقهم على أهوائهم ويخلعون آخر، وفي سنة ٢٦٦هـ ٢٣ أعلن الأمير أحمد بن طولون استقلاله عن الخلافة العباسية رسميا وإن ظل تابع لها اسما فقط، وذلك حفاظا على هيبة الخلافة وحماية لشرعية حكمه، وكان هذا أول استقلال لمصر على يد أحد الأتراك المماليك فعليا، وضرب ابن طولون السكة - العملة النقدية - باسمه بجانب اسم الخليفة وأمر الخطباء بالدعاء له بعد الدعاء للخليفة في جميع مساجد مصر وجوامعها.

محاولة ابن طولون نقل مقر الخلافة من سامراء إلى مصر سنة (٢٦٩هـ):

كان الخليفة أبو العباس المعتمد على الله (٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ) قد حجر

٢٣ - زامباور - إدوارد فون - معجم الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي - أخرجه الدكتور زكي محمد حسن بك و حسن مسعود - قدم له عارف أحمد عبد الغني (طبعة ٢٠١٤م) - دار نور حوران ودار العرب للدراسات والنشر والترجمة - دمشق - سوريا - ص ١٤٣ .

عليه أخيه الموفق طلحة فسلب منه الأمر والنهي وقاد الجيوش بنفسه فأحبه الجند لشجاعته وقوته، وكان الموفق قد خرج عليه بالفعل في سنة ٢٦٤هـ ثم اصطالحا، ولكن في سنة ٢٦٩هـ زاد خوف المعتمد من أخيه الموفق فراسل نائبه على مصر أحمد بن طولون يعلمه بحاله مع أخيه الموفق طلحة، وهنا أحس ابن طولون أن هذه هدية قد أتته من غير تعب أو عناء من قبل خليفة المسلمين الذي يستنجد به ضد أخيه، فإذا نجح في اقناع الخليفة بالقدوم إلى مصر تمكن من تحقيق مكاسب دينية وأدبية واقتصادية من وراء ذلك، وأهم هذه المكاسب:

- ١- أن يكسب دولته الناهضة شرعية وقدسية بإقامة الخلافة العباسية فيها.
- ٢- أن يظهر ابن طولون أمام العالم الإسلامي كله بمظهر المنقذ للخليفة العباسي وللخلافة كلها من سطوة الأتراك وفسادهم وارجاع هيبة الخلافة ورونقها مرة أخرى من جديد على يديه.
- ٣- أن تكون الدولة الطولونية هي قائدة العالم الإسلامي كله، وبالتالي تكون له الزعامة على جميع الإمارات الإسلامية الأخرى.
- ٤- أن يكسر ويهزم جميع أعدائه من الأمراء والقواد الأتراك بما فيهم أخو الخليفة الموفق طلحة .
- ٥- وأخيرا أن تتوقف الدولة الطولونية من إرسال الأموال السنوية إلى الخلافة بالعراق.

فقام ابن طولون بإرسال رسالة إلى الخليفة المعتمد مفادها الآتي:

«قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفا على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ما له في عنقي من الأيمان المؤكدة، وقد اجتمع عندي مائة

ألف عنان من الأجناد - يقصد الفرسان - وأنا أرى لأمر المؤمنين وسيدي الانجذاب إلى مصر فان أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يتهيأ لأخيه - يقصد الموفق طلحة - فيه شيء مما يخاف عليه كل لحظة» ٢٤.

فلما قرأ الخليفة المعتمد رسالة أحمد بن طولون اطمأن إليه واتفقا على أن يلتقيا في دمشق، وبالفعل خرج المعتمد من مقر الخلافة في سامراء على أنه يريد التنزه فاتجه صوب مدينة دمشق وكان ابن طولون في انتظاره هناك، وعندما وصل خبر هذا الاتفاق بين الطرفين إلى الأمير طلحة كاتب أحد قواده ويدعى إسحاق بن كنداج وكان في مدينة نصيبين وذلك لكي يرجع بأخيه الخليفة مرة أخرى إلى عاصمة الخلافة، فاستخدم إسحاق الحيلة في اقناع المعتمد، وكان قد لحقه ما بين مدينتي الموصل والحديثة، فقال له: «يا أمير المؤمنين أخوك في وجه العدو وأنت تخرج عن مستقرك ودار ملكك، ومتى صح هذا عنده رجع عن مقاومة الخارجي، فيغلب عدوك على ديار آبائك» وأخذ يقنع الخليفة في العدول عن رأيه والعودة معه حتى اقتنع الخليفة في النهاية ورضخ لرأي إسحاق بن كنداج وعاد معه، ولكن الموفق لم يراعي وعده، فلما عاد المعتمد تسلمه كاتب الموفق صاعد بن مخلد والذي أنزله في دار أحمد بن الخصب، ومنعوه من النزول إلى دار الخلافة، وأقام عليه خمسمائة من الحرس يمنعون الناس من الدخول إليه، ثم أدخله بعد ذلك إلى مدينة واسط، فكان الخليفة المعتمد أول خليفة حبر عليه من الخلفاء، ثم أرسل الموفق يكافئ رجاله على ما فعلوه مع أخيه ! فقد أنعم على إسحاق بن كنداج بالخلع - ملابس التشریف - والأموال وأقطع ضياع القواد الذين خرجوا مع أخيه المعتمد وأنعم عليه بلقب بذا السندين، ولقب صاعد الكاتب بذي الوزارتين. ٢٥

٢٤ - العبادي - الدكتور أحمد مختار - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - طبعة (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ص ١٨٠ .
٢٥ - السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن - تاريخ الخلفاء - الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) - مكتبة مصر - سعيد جودة السحار وشركاه - القاهرة - ص ٣٩٩ .

ابن طولون يجمع الفقهاء والقضاة لخلع الموفق من ولاية العهد:

وعندما وصلت أخبار ما فعله الموفق مع أخيه الخليفة إلى أحمد بن طولون غضب غضبا شديدا، فقد قضى الموفق على أحلامه نهائيا في نقل مقر الخلافة من العراق إلى مصر، وبالتالي انتهت أحلامه بالاستقلال بمصر والشام، وجعل مصر عاصمة الخلافة، فأمر ابن طولون بعقد مجلس طارئ جمع فيه كبار الفقهاء والقضاة من أجل خلع الموفق من ولاية العهد، وإخراج المعتمد من حجره.

وقد اجتمع بالفعل القضاة والفقهاء والأعيان في مجلس ابن طولون والذي قام فيهم خطيبا فقال: «قد نكث الموفق بأمر المؤمنين فاخلعوه من العهد» فخلعوه جميعا إلا القاضي بكار بن قتيبة فقد رد على ابن طولون قوله، وقال له: «أنت أوردت علي من المعتمد كتابا بولايته العهد - يعني الموفق - فأورد علي كتابا آخر بخلعه» فأجابه ابن طولون: «إنه محجور عليه، ومقهور» فقال له القاضي بكار مستنكرا عليه: لا أدري فقال له ابن طولون: غرك الناس بقولهم ما في الدنيا مثل بكار، أنت شيخ قد خرفت. فأمر به فحبس وقيد وأمر بأخذ منه جميع عطاياه التي أعطاه له من سنين، فكانت مقدار عشرة آلاف دينار، وقيل أنهم وجدوها مختومة كما أخذها من ابن طولون لم تفتح» ولما بلغ الموفق ما فعله ابن طولون من محاولة خلعه من ولاية العهد، ومن حبسه للقاضي بكار لرفضه خلعه أمر بلعن ابن طولون على منابر الجوامع والمساجد كلها. ٢٦

وفاة الأمير أحمد بن طولون سنة (٢٧٠ هـ):

وكان سبب وفاته مرض أصاب معدته وهو مقيم في بلاد الشام في محاربة أحد الخارجين عليه، و يعرف هذا المرض باسم الهیضة وهو اسهال شديد يحدث جراء أكلة فاسدة مع قيء، وكان سبب اصابته بالهیضة أنه أكل كثيرا من لبن الجاموس الذي يحبه، ولم يراعي أن معدته بها برد فضعف جسده، وكان بصحبته طبيبه سعد بن نوفيل النصراني، فقال له ابن طولون: «ما الرأي؟» فأجابه: «لا تقرب الغذاء اليوم وغدا» ولكن ابن طولون لم يستمع لنصح طبيبه فلما جاع طلب من الطباخين أن يعدوا له خاروفا وفراريج فأكل منها، وكان الإسهال قد انقطع ولكن لم يشفا تماما فلما أكل ضعف عن القيام، فاستدعى طبيبه فقال له: «إنا لله! ضعفت القوة المدافعة بقهر الغذاء لها» فحاول علاجه ولكن الإسهال كان قد تمكن منه مع قيء شديد، فخرج من أنطاكية في محفة تحمله الرجال، ولكنه لم يتحمل الجلوس في المحفة فركب السفن في البحر وعاد إلى مصر، وهنا قام من مع ابن طولون بلوم الطبيب قائلين له: «لست بحاذق» فأجابهم: «والله ما خدمتي له إلا خدمة الفأر للسنور، وإن قتلي عنده أهون من صحبتة»

وقد وصل ابن طولون إلى مصر على هيئة سيئة من المرض قام باستدعاء الأطباء وفيهم الحسن بن زيرك، فقال لهم: «والله لئن لم تحسنوا في تدبيركم لأضربن أعناقكم قبل موتي» فخاف منه جميع الأطباء، فقد كان سريع الغضب كثير المخالفة لهم، ولما علم أهل مصر بمرض السلطان ابن طولون، خرج المسلمون بمصاحفهم، واليهود والنصارى بالتوراة والإنجيل، والمعلمون بالصبيان إلى الصحراء ودعوا له بالشفاء، وأقام المسلمون بالمساجد يختمون القرآن ويدعون له، ولكن لما أحس ابن طولون باليأس من الشفاء رفع يديه إلى السماء قائلا: «يا رب ارحم من جهل مقدار نفسه، وأبطره حلمك

عنه» ثم تشهد ومات، وكانت وفاته بمصر يوم الأحد ١٠ من ذي القعدة،
وقيل يوم الإثنين ١٨ من ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ، وقبل وفاته كانت حدود
دولته قد امتدت إلى بلاد الشام حتى أنطاكية وطرسوس، وقد حاول أن
يضم الحجاز لكن لم يتم له ذلك. ٢٧

@booka

٢٧ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار
الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٧ وص ١٨ .
- البلوي - أبي محمد عبد الله بن محمد المديني - سيرة أحمد ابن طولون - حققها
وعلق عليها محمد علي كرد - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ص ٣٤٣ .

ثانيا: خمارويه بن أحمد بن طولون سنة (٢٧٠هـ - ٢٨٢هـ):

الأمير الذي ذبحه مكر جواريه

١- أول أوامر الأمير الجديد قتل أخيه:

وقد تولى الأمير الجديد الحكم بالدم، وليس أي دم انه دم أخيه الأكبر، ولكن في البداية لابد لنا أن نعرف بالأمير الجديد للدولة الطولونية في مصر، فهو خمارويه أو خمار بن أحمد بن طولون ولد بمدينة سامراء سنة ٢٥٥هـ من أم ولد تسمى مياس، ولم يكن الابن البكر لابن طولون فقد كان له أخ أكبر منه يدعى العباس ولد قبله في سنة ٢٤٢هـ وكانت أمه ابنة عم أحمد بن طولون وتدعى خاتون، وكان في محبس أبيه حين توفي أبيه، وذلك لأنه قد عصاه وخرج عليه فحمله معه مقيدا وحبسه، فلما تولى خمارويه أمر البلاد أمر بأخيه فأتي إليه به لكي يبايعه على تولى السلطنة فرفض العباس فأمر به فقتل، وقيل أنه أمر بأدخله منزلا في الميدان، فكانت هذه آخر مرة يشاهد فيها العباس. ٢٨

٢٨ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٩.

٢- الحرب بين خمارويه والموفق أبي أحمد طلحة سنة (٢٧١هـ):

ولما تولى خمارويه الحكم أمر بتولية قواد الجيوش، فجعل على جيوش الشام أبي عبد الله أحمد بن محمد الواسطي وأمره أن يتجه إلى الشام وكان ذلك في ٦ من ذي الحجة سنة ٢٧١هـ، وجعل لقائد آخر يدعى سعد الأيسر على قيادة جيش آخر، ثم سير الأسطول في البحر لتأمين سواحل الشام ومصر.

فلما وصل أبي عبد الله أحمد الواسطي إلى فلسطين شك في نية السلطان خمارويه، فقد كان هو المشير عليه بقتل أخيه الأكبر العباس، وقد ظن أنه يغدر به ويقتله فقام بمراسلة أخو الخليفة الموفق يحرضه على الخروج وقتال خمارويه واسترداد الشام ومصر منه واعادتها مرة أخرى تحت حكم الخلافة العباسية، فقام الموفق بإرسال ولده أحمد ومعه القواد فنزلوا مدينة الرقة ودخلت مدن قنسرين والعواصم تحت حكم أحمد بن الموفق، ثم حارب جيش خمارويه الموجود بالشام فتمكن من هزيمتهم ودخل مدينة دمشق، فلما وصل خبر هزيمة الجيش خرج خمارويه بنفسه بجيش عظيم في يوم ١٠ من صفر سنة ٢٧١هـ، والتقى بجيشه والذي كان يقدر بحوالي سبعين ألفاً، مع جيش ابن الموفق والذي كان عدده لا يزيد على أربعة آلاف مقاتل فقط! وانتهت المعركة بهزيمة خمارويه وفراره إلى مصر، واستولى ابن الموفق على غنائم معسكر خمارويه.

وفي تلك الأثناء كان قائد خمارويه الآخر وهو سعد الأيسر قد أعد كميناً للهجوم على ابن الموفق، والذي لم يكن على علم بما حل بسيدته من

هزيمة وفراره إلى مصر، فخرج على جيش الموفق من كمينه وتمكن من هزيمة ابن الموفق وردّه عن بلاد الشام، ثم طمع سعد هذا في دمشق والاستيلاء على بلاد الشام كلها لنفسه، فتمكن من الاستيلاء على دمشق بعد أن رفضت أن تفتح له أبوابها طوعا.

وفي تلك الأثناء لم يعلم خمارويه بالأحداث التي تلت فراره مهزوما، فعاد إلى بلاد الشام في ذي القعدة سنة ٢٧٢هـ وهي المرة الثالثة التي يخرج بها من مصر إلى بلاد الشام، فقد خرج مرتين ولكنه لم يحارب سعد الأيسر وعاد إلى مصر في كل مرة بغير حرب، أما في المرة الثالثة فقد تمكن من هزيمة سعد هذا وأسرّه ثم أمر بقتله، ودخل خمارويه مدينة دمشق في ٧ من المحرم سنة ٢٧٣هـ منتصرا ظافرا مفشلا بذلك خطة الموفق في إسقاط دولته في مصر والشام.

٣- الصلح بين خمارويه والموفق أبي أحمد طليحة أخو الخليفة سنة (٢٧٣هـ):

قلنا سابقا أن أحمد بن طولون قد تمكن من مد سلطان دولته حتى بلاد الشام، وكان هذا يشكل خطرا على الخلافة العباسية، وقد كانت بين ابن طولون والموفق ولي عهد الخليفة المعتمد عداوة وصلت إلى حد أن أمر الموفق بلعن ابن طولون على المنابر، واستمر هذا اللعن حتى وفاته وتولي ولده خمارويه أمر السلطنة، واستمرت العداوة بينهما والتي وصلت إلى الحرب والتي انتهت بانتصار خمارويه على جميع أعدائه.

وهنا قام خمارويه بحركة ذكية جدا منه، فقد رأى أن عداوته للخلافة العباسية قد أخذت منحى خطير قد يفقد بسببه شرعية حكمه لمصر والشام، ولهذا بادر بمراسلة الموفق في طلب الصلح والكف عن القتال وحقن دماء المسلمين، فاستجاب الموفق لطلب خمارويه فعقد الصلح على أن تعطى ولاية مصر والشام والثغور كلها لخمارويه ولمن بعده مدة ثلاثين سنة كاملة، وقد كتب الصلح كلا من الخليفة المعتمد وأخيه الموفق وابنه أحمد بأيديهم تعظيما لقدر خمارويه وأعطوه لأحد خدام الموفق والذي وصل به إلى الشام في شهر رجب، وقد عرف الخادم خمارويه بأن الذي كتب الصلح بيده هو الخليفة وأخيه ولي عهد وولده ففرح خمارويه جدا بذلك وعاد به إلى مصر في أواخر رجب، وأمر بعودة الدعاء للموفق طلحة على المنابر بدلا من الدعاء عليه، وهكذا تمكن خمارويه من استعادة هيبة دولته ودولة أبيه بعد أن كادت تضيع إلى الأبد. ٢٩

٤- الآثار المعمارية التي قام بها السلطان خمارويه:

أولا: الزيادات التي أحدثها في القصر الطولوني:

كان خمارويه محب للعمارة فقام بعمل زيادات في القصر الطولوني أهمها داره التي بناها وأحدث فيها التالي:

٢٩ - المصدر السابق - من ص ٤٩ إلى ص ٥٢ باختصار .

فسقية الزئبق:

وهي فسقية أحدثها في القصر وملأها بالزئبق وجعل طولها خمسون ذراعا في عرض خمسون ذراع، وجعل فيها فراشا مصنوع من الجلد ينتفخ بالهواء ويوضع في البركة فكان ينزل لكي ينام على الفراش في الأيام التي كان يأرق فيها فيتحرك به الفراش العائم على الزئبق حتى ينام.

قبة الدكة:

وقد بناها لكي تكون له مجلسا يتنزه فيه، وصنع لها أسترة تحميه من الحر والبرد، وجعل مكان هذه القبة في مكان إذا جلس فيه أشرف من خلاله على البستان والصحراء والنيل والجبل وعلى مدينة القطائع.

دار السباع:

فقد كان خمارويه مغرما بالسباع، فأمر ببناء دارا كبيرة للسباع وجعل فيها بيوتا لكل سبع ولبؤته بيتا لهما فقط، وكان لها أبوابا تفتح من أعلى ولها طاقة - فتحة صغيرة - يدخل منها المسؤول عن هذه السباع فيقوم بتنظيف المكان وفرشه بالرمل ووضع الطعام، وكان بجوار كل بيت منها حوض كبير مصنوع من الرخام له ميزاب مصنوع من النحاس فيصب فيه الماء لشرب السباع.

دار الحرم:

وهي دار بناها خمارويه من أجل النساء والحرم، وقد خصصها من أجل أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وجعل معهن المعزولات التي رغب عنهن من أمهات أولاده، وجعل لكل واحدة منهن حجرة واسعة تخصها، وجعل معهن الخدم من أجل خدمتهن ومعهن الطبائين.

ثانيا: حديقة حيوان وإصطبلات للخيل:

وقد أعجبه فكرة اقتناء الحيوانات فقام بعمل دورا لكل نوع من الحيوانات، فعمل دورا للفهود والنمور، والفيلة والزرافات، وعمل أيضا اصطبلات للجمال والخيول، وكانت اصطبلات خيوله في كل مكان بمصر، فكانت منتشرة من الجيزة ونهيا ووسيم وسفط وطهرمس وجعل لها أراض مخصصة تزرع بنبات مخصوص يعرف باسم القرط لتسمين الخيول، وجعل لهذه الإصطبلات خدم ووكلاء وأموال موقوفة خاصة بها.

ثالثا: بستان خمارويه العجيب:

وكان أصل هذا البستان هو الميدان الذي عمله أبيه أحمد بن طولون، فقد حوله كله إلى بستان كبير زرع فيه كل أنواع الشجر المطعم والزهور والرياحين والزعفران والنخيل، وجعل فيه مزاريب مصنوعة من الرصاص وأجرى فيه المياه لتخرج من عيون النخيل وتصب على فساقى مصنوعة، ومن هذه الفساقى تنحدر المياه فتسقي البستان بأجمعه.

برج الطيور النادرة:

ثم بنى في وسط هذا البستان برج من الخشب الساج منقوش بطريقة النقر الواضح، وجعل هذا البرج محل أقفاص للطيور الزينة والنادرة، وقام بتبليط أرضية البرج وسير فيه الماء الآتي من السواقي، فكان الماء يسير كالنهر، وجعل في البرج أيضا أوكار صغيرة من أجل تزواج هذه الطيور والتفريخ فيها، فكانت الطواويس ودجاج الحبش والقماري وغيرها من الطيور النادرة تطير وتسرح طوال يومها في هذا البستان العجيب.

دار الذهب:

ثم بنى في داخل هذا البستان دارا طلى حيطانها كلها بالذهب واللازورد المنقوش على حيطانها، ونحت على حيطانها مقدار قامة ونصف صورا من الخشب صورة له وصور المحظيات والمغنيات في تصوير يفرح العيون، وجعل على رؤوس هذه الصور أكاليل من الذهب والجواهر المرصعة، وفي آذانها حلق، ولون هذه الصور بألوان الثياب المتنوعة، فكان الناظر إليها يحسبها حية تتحرك من دقة الصنع. ٣٠

وكأن خمارويه أراد أن تكون جنته في الأرض فقام بعمل كل هذا السرف والبذخ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فسوف يسرف أكثر من ذلك عند تزويج ابنته قطر الندى من الخليفة العباسي المعتضد بالله.

٥- مصاهرة بين الخليفة وحمارويه أم إفلاس خزانة الطولونيين سنة (٢٨١هـ):

وكان سبب هذه المصاهرة أن الموفق طلحة ولي عهد الخلافة توفي سنة ٢٧٨هـ، وتوفي وراءه الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩هـ فتولى المعتضد بالله أحمد أمر الخلافة، فلما وردت هذه الأخبار إلى السلطان حمارويه في مصر رغب في مصاهرة الخليفة تثبيتاً لنفوذه وتوطيد لدولته له ولأبنائه من بعده، فأرسل إلى الخليفة يهنئه بتولي الخلافة وأرسل له الهدايا والتحف النادرة وسأله أن يزوج ابنه المكتفي بالله من ابنته قطر الندى، فأجابه المعتضد بالله: «بل أنا أتزوجها» وبالفعل تزوجها في سنة ٢٨١هـ، ودخل بها في سنة ٢٨٢هـ.

وكانت هذه مكيدة من الخليفة كما قال المؤرخ تغري بردي، فقد قال عن هذه المصاهرة هذه العبارة الصريحة: «يقال إن المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباهها حمارويه في جهازها، وكذا وقع» فقد جهزها بأبهاها بجاهز عظيم أنفق فيه الكثير من الأموال والتحف، حتى قيل أنه جعل في جهازها ألف هاون مصنوعة من الذهب ودكة عبارة عن أربع قطع مصنوعة من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك، وفي كل عين من هذا التشبيك الذهب قرط معلق فيه حبة من جوهر نادر، وقد أثر هذا الزواج على خزانة حمارويه ولكن حقق له من المكاسب المادية والمعنوية الكثير وهي:

١- أن حالة العداء زالت بهذه المصاهرة بين الخليفة المعتضد وحمارويه.

٢- أقر الخليفة الجديد ولاية وسلطنة حمارويه ومد نفوذه من نهر الفرات إلى برقة مدة ثلاثين سنة.

٣- جعل بيد حمارويه الصلاة والخراج والقضاء بمصر وجميع أعمالها.

وفي المقابل قام خمارويه بإرسال الخراج مائتي ألف دينار خراج العام الحالي ومعه خراج السنة القادمة ثلاثمائة ألف دينار فكان غاية الإرهاق لخمارويه وخزائنه التي أنفق منها الكثير على جهاز ابنته قطر الندى، وأرسل الخليفة المعتضد إلى خمارويه الخلع، والتي كانت عبارة عن اثنتي عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح. ٣١

٦- اغتيال خمارويه سنة (٢٨٢هـ):

قيل أن سبب قتله أنه سعى إليه بعض الناس فقال له: «إن جواري دارك قد اتخذت كل واحدة منهن خصيا من خصيان داره لها كالزوج، وقال: إن شئت أن تعلم صحة ذلك فأحضر بعض الجواري فاضربها وقررها حتى تعلم صحة ذلك» فبعث من وقته نائبه بمصر يأمره بإحضار عدة من الجواري إلى دمشق حيث كان مقيم ليعلم الحال منهن، فاجتمع جماعة من الخدم وقرروا بينهم الاتفاق على قتله خوفا من ظهور ما قيل له، وكان هؤلاء الخدم من خاصته، فدخلوا عليه وهو نائم فذبحوه على فراشه، وكان معه في القصر في تلك الليلة الأمير طغج بن جغ من كبار قواده فلما علم بخبر مقتل سيده على يد الخدم تتبعهم وكانوا في حدود نيفا وعشرين خادما فقبض عليهم جميعا فقتلهم وصلبهم.

وكان مقتل خمارويه في منتصف شهر ذي الحجة وقيل ٣ من ذي الحجة سنة ٢٨٢هـ وحمل من دمشق إلى مصر ودفن بالقطائع وصلى عليه ابنه جيش. ٣٢

٣١ - المصدر السابق - ص ٥٣ و ص ٦١ .

٣٢- المصدر السابق - ص ٦٣ و ص ٦٤ .

- ابن الأثير - عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم - الكامل في التاريخ من سنة ٢١٨هـ لغاية سنة ٣٠٨هـ - المجلد السادس - راجعه وصححه الدكتور محمد يوسف الدقاق - الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ص ٣٨٢ و ص ٣٨٣.

ثالثاً: أبي العساكر جيش بن خماروية (٢٨٢هـ - ٢٨٣هـ):

الأمير الذي قتل أعمامه

تولى أمر الإمارة بعد مقتل أبيه في دمشق يوم ١٧ من ذي القعدة سنة ٢٨٢هـ، ولم يستقر بدمشق سوى أيام عاد بعدها إلى مصر، ولم يلتفت إلى أعباء الدولة وتحمل مسئولياتها بل أقبل على الشرب واللهو والتف حوله جماعة من الأوباش ومن لا قيمة لهم في الدولة، وكانوا بطانة سوء فزينوا له قتل عمه وإخوته وأخافوه منهم على سلطانه، فقد كان جيش هذا خفيف الرأي فاستجاب لرأيهم الفاسد وعقد العزم على الفتك بكل من رآه خطراً على سلطانه.

فبدأ بعمه أبي العشائر فأمر بالقبض عليه ووكل من قتله في محبسه، وحين سئل عنه قال: «إنه مات حتف أنفه» ولكن القواد والناس تأكدوا أنه هو الذي أمر بقتل عمه، وأمر بالقبض على بقية أعمامه وهم «نصر بن أحمد بن طولون، وشيبان بن أحمد بن طولون، وربيعه بن أحمد بن طولون» وهنا يحكي عمه ربيعة قصة القبض عليهم فقال: «لما قتل أخي خمارويه ودخل ابنه جيش مصر قبض علي وعلى عميه نصر وشيبان، وحبسهما في حجرة معي في الميدان، وكان كل يوم تأتينا مائدة عليها الطعام فكنا نجتمع عليها، فجاءنا يوماً فأخذ نصر فأدخله بيتاً، فأقام خمسة أيام لا يطعم ولا يشرب والباب عليه مغلق، فدخل علينا ثلاثة من أصحاب جيش وقالوا: أمات أخوكما؟ فقلنا: لا ندري، فدخلوا عليه فرماه كل واحد بسهم فقتلوه، وكانت ليلة الجمعة فأخرجوه ثم أغلقوا علينا الباب، وبقينا يوم الجمعة ويوم السبت لم يقدم إلينا طعام، فظننا أنهم يسلكون

بنا مسلك أخينا، فلما كان يوم الأحد سمعنا صراخا في الدار، وفتح باب الحجرة علينا وأدخل جيش بن خمارويه، فقلنا: ما حالك ؟ فقال: غلبني أخي هارون على البلد وتولى الإمارة، فقلنا: الحمد لله الذي قبض يدك وأضرع خدك ! فقال: ما كان عزمي إلا أن ألحقكما بأخيكما، ثم جاء رسول وقال: الأمير هارون قد بعث إليكما بهذه المائدة، وكان في عزم جيش أن يلحقكما بأخيكما نصر، فقوموا إليه فاقتلاه وخذا بثاركما منه وانصرفا على أمان، قال ربيعة: فلم نقتله وانصرفنا إلى منازلنا، وبعث هارون خدما فقتلوه وكفينا أمر عدونا»

فلم تكن ولاية جيش هذه محمودة ولم تستمر سوى شهور قليلة، فقد خلع على يد قواد أبيه ١٠ من جمادى الآخرة سنة ٢٨٣هـ، فكانت ولايته ستة أشهر واثنى عشر يوما، ثم قتل في السجن بعد أيام قليلة. ٣٣

رابعاً: هارون بن خمارويه سنة (٢٨٣هـ - ٢٩٢هـ)

نهاية الدولة الطولونية:

وهو آخر أمراء هذه الدولة العظيمة، وقد تولى أمر مصر بعد قتل أخيه جيش في ١٠ من جمادى الآخرة سنة ٢٨٣هـ ، وقد استمر في حكم مصر مدة ثماني سنوات ولكن كان حكمه مضطرب والقواد لم يخبوه ويخلصوا له مثل أبيه وجده.

١- هزائمه أمام القرامطة سنة (٢٨٩هـ و ٢٩٠هـ):

وفي عهده ظهرت فرقة الشيعة القرامطة الباطنية فهاجمت البلاد الإسلامية وعاشت فيها فسادا ونهباً وقتلاً للأبرياء وقد توجهت إلى بلاد الشام ووصلت إلى دمشق فخرج إليهم والي دمشق طغج بن جف فهزمه القرمطي، فأرسل إلى هارون بن خماوريه بمصر يطلب منه الممدد فأرسل له جيشاً كثيفاً والتقى الفريقان وانهزم الجيش المصري على كثرته.

٢- اغتيال هارون بن خماوريه سنة (٢٩٢هـ):

وفي تلك الأثناء ظهر على الساحة رجل يدعى محمد بن سليمان الكاتب وهو الذي قاد الجيوش العباسية وتمكن من قهر القرامطة وكسر شوكتهم وأسر أميرهم، وقد سيره الخليفة المكتفي والذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد إلى قتال هارون بعد أن زادت الوحشة بينهما، وقد سهل عليه محمد بن سليمان أمر الاستيلاء على مصر، وقد وردت هذه الأنباء إلى هارون بمصر فتجهز للقاء جيوش الخلافة، وقد أرسل الخليفة المراكب في البحر مشحونة بالمقاتلة وقد أرسل هارون هو أيضاً المراكب وفيها المقاتلة لصد مراكب الخليفة، ولكن مراكب هارون هزمت عند تنيس، فتمكن محمد بن سليمان من أخذ مدينتي تنيس ودمياط.

فلما علم هارون بخبر هذه الهزيمة خرج من مدينته القطائع يوم التروية إلى العباسية ومعه أعمامه وأهلته، ولكن لما رأى القادة والأمراء والجنود أن الهزيمة قد حلت بهارون، وأن دولة بني طولون ذاهبة لا محالة تركوه وهو ثمل لا يدري بما يجري من حوله، وقيل أن بعض غلمانهم دخلوا عليه وهو نائم من الثمالة فذبحوه، وقيل أن اللذين ذبحاه هما عماء شيبان وعدي وكان نائماً.

وكان اغتياله في ليلة الأحد لأحدى عشرة بقيت من صفر سنة ٢٩٢هـ، وعمره لم تتجاوز ٢٢ سنة، فكانت سلطنته على مصر ثماني سنوات وثمانية أشهر وأياماً.

خامساً: شيبان بن أحمد بن طولون ومقاومته للتدخل العباسي سنة (٢٩٢هـ):

وهو الملقب بأبو المقانب أو أبو المواقيت، وقد تولى أمر مصر لإحدى عشرة بقيت من صفر سنة ٢٩٢هـ، فكانت ولايته اثنا عشرة يوماً فقط، وقد حاول أن ينقذ دولة بني طولون في مصر فجمع أهله ومن تبقى معه من جنود أخيه هارون وخرج بهم للقاء جيش محمد بن سليمان الكاتب والذي كان قد وصل إلى جسر مصر الشرقي يوم الثلاثاء ٢٨ من صفر فأحرق الجسر، ثم وصل إلى باب مصر فعسكر بالجيش أمامه يوم الأربعاء ٢٩ من صفر، وخرج شيبان فوجد جيوش العباسيين رابضة أمام بوابة مصر فحدثت مناوشات بين الفريقين مدة ساعة ثم راسل محمد بن سليمان شيبان يطمأنه إن هو أوقف الحرب أن يؤمنه هو وجميع أهله، فلما وصلت رسالة محمد بن سليمان وقرأها ورأى قلة جنوده وعساكره أمام جيوش العباسيين طلب الأمان وسار هو وإخوته وأهله إلى معسكر محمد الكاتب في الليل فقبض عليهم وأخذهم محمولين إلى بغداد، وبذلك تكون انتهت أول دولة تركية بمصر، والتي تمكنت من الاستقلال عن الخلافة العباسية وحكم مصر حوالي ٣٨ سنة.

٤- تخريب مدينة القطائع واعفاء آثارها من الوجود نهائيا:

ولكن ما قام به محمد بن سليمان الكاتب بعد ذلك من البشاعة ما لا يمكن وصفه، فقد أمر بإحراق مدينة القطائع وسواها بالأرض من حول الميدان وحتى جامع ابن طولون والذي نجا من الحريق، ودخلت العساكر الخراسانية إلى دور الناس بمصر فأخرجوهم وهتكوا أعراضهم وأخذوا أموالهم وسكنوا دور كبار الدولة كرها ولا يردهم عن أفعالهم تلك أحد، واستمرت هذا الحال عدة أيام لا يمنعهم ممانع، وأما محمد بن سليمان فقد ضرب خيمته على ضفة النيل والتي تعرف باسم المقس، ثم رحل بعد ذلك من مصر ومعه الأسرى من جنود ومصريين ومماليك إلى بغداد. ٣٤

٥- الجيش في عهد الدولة الطولونية:

وبقي الكلام عن الجيش ونظامه في الدولة الطولونية، فقد كان أحمد بن طولون وابنه خمارويه من بعده مهتمين بتطوير الجيش والأسطول على حد سواء، فقد كان الجيش على عهدهما مكون من فرق متعددة الأجناس، فكانت هناك فرقة كاملة من الأتراك، وفرقة من العرب الأحرار، وفرقة من الديلم والرقيق السود.

فقد اشترى ابن طولون من المماليك الأتراك ما يقدر بحوالي أربعة وعشرين ألف مملوك، ومن العبيد الزوج أربعين ألفا، وكان من العرب الأحرار في

٣٤ - المصدر السابق - من ص ٩٨ إلى ص ١٣٨ باختصار .

الجيش ما عدته سبعة آلاف حر، ومن الديالمة حوالي أربعة وعشرين ألف، وقد كان لابنه خمارويه فرقة مخصوصة من الحرس من مولدي الحوف وغيرها من القرى ذوي أجسام قوية وطوال سماهم المختارة، وكانت له فرقة من السودان عددهم ألف في كاملي عدتهم وسلاحهم، فكانت هذه الفرق تقاتل في الحروب بين يديه أشد القتال، وكان خمارويه ينفق على الجيش ما يقدر بحوالي تسعمائة ألف دينار في السنة من أرزاق وعطايا وطعام. ٣٥

٦- حدود الدولة الطولونية:

وبفضل قوة الجيش والأسطول المصري في عهد أحمد بن طولون وابنه خمارويه، وبفضل الاستقرار الداخلي الذي حققوه في مصر تمكن كليهما من مد حدود دولتهما إلى بلاد الشام حتى أنطاكية، وقد حاول أحمد بن طولون أن يضم بلاد الحجاز ولكنه لم ينجح في ذلك، وقد ظلت هذه حدود الدولة الطولونية حتى جاء هارون بن خمارويه فتنازل للخليفة المعتضد بالله أحمد عن مدينة قنسرين وما حولها من العواصم وكان ذلك في سنة ٢٨٦هـ في مقابل ذلك أن يجدد له الخليفة الولاية على مصر والشام فقط، وكان هذا أول وهن يصيب الدولة الطولونية قبل أن يقوم ولده المكتفي بالله بالقضاء على دولتهم بالكلية كما ذكرنا سابقا.

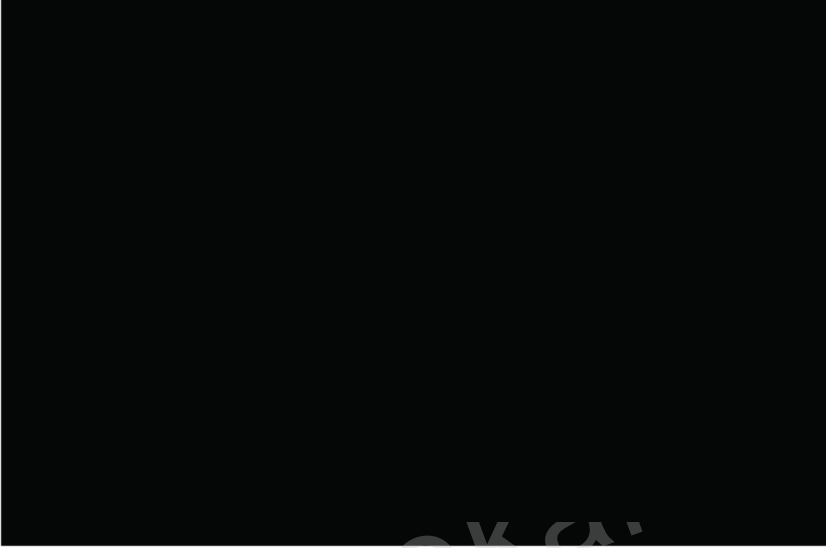
٣٥ - العبادي - الدكتور أحمد مختار - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - طبعة (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ص ٦٦ وص ٦٧ .
- الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٥٩ .



حدود الدولة الطولونية في أقصى اتساعها

(محمد بن طغج مؤسس الدولة التركية الثانية بمصر)

٣٢٣هـ - ٣٥٨هـ



علم الدولة الإخشيدية باللون الأسود

١- أصل محمد بن طغج الإخشيد و ولايته الأولى سنة (٣٢١هـ):

بعد القضاء على الدولة الطولونية تولى أمر مصر مجموعة من الولاة حتى أتى رجل كان أبيه أحد أمراء الدولة الطولونية بمصر، وهو الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف التركي صاحب سرير الذهب وأصله من فرغانة، وقد تولى ولاية مصر الأولى في ٧ رمضان سنة ٣٢١هـ وهذه ولايته الأولى بعد وفاة أمير مصر تكين، فقد تولى أمر مصر في عهد الخليفة القاهر بالله محمد وهو مقيم بدمشق لم يدخلها، فكان يدعى له على منابر مصر مدة

ولايته الأولى والتي حوالي ثلاثين أو اثنان وثلاثين يوما، فقد تولى أمر مصر أمير يدعى أحمد بن كيغلخ من قبل الخليفة القاهر.

٢- ولاية محمد بن طغج على مصر الثانية سنة (٣٢٣هـ - ٣٣٤هـ):

وهذه المرة تولى محمد طغج ولاية مصر بتكليف من الخليفة الراضي بالله محمد وكان ذلك في ٥ أو ٦ من رمضان سنة ٣٢٣هـ، وقد أضاف إليه بلاد الشام وهو الذي لقبه بالإخشيد ومعناه بالتركية ملك الملوك وهو لقب أجداده الذين كانوا في الماضي قبل دخول الإسلام إلى هذه المناطق ملوك فرغانة، فمحمد بن طغج ينحدر من سلالة ملوك فرغانة لهذا طلب من الخليفة أن يلقبه بهذا اللقب، وقد لبى الخليفة مطلبه.

وأما عن أهم أعمال محمد بن طغج فهي:

أولا: صد الإخشيد محمد بن طغج جيش الفاطميين من المغرب سنة (٣٢٣هـ):

في تلك الفترة كان العبيدين المسمين أنفسهم بالفاطميين قد تغلبوا على جميع بلاد المغرب ولم يبق لهم سوى مصر، وفي عهد خليفتهم القائم بأمر الله محمد بن عبيد الله المهدي أرسل جيشا لدخول مصر من جهة الإسكندرية فتمكن الإخشيد من صدهم وردهم عن مصر، وكان ذلك في

عهد الخليفة العباسي الرازي بالله فولاه مصر والشام مكافأة له ورضي عنه
ووثق في إخلاصه للخلافة. ٣٦

ثانيا: محاولته استدعاء الخليفة المتقي بالله إلى مصر وجعلها مقر للخلافة
سنة (٣٣٢هـ):

وكان الخليفة المتقي قد تغلب عليه بنو حمدان، وقد خرج معهم إلى ناحية
الشام، وأحس الخليفة بملل ناصر الدولة حسن بن حمدان فراسل الإخشيد
محمد بن طغج، فوصل إليه في مدينة الرقة وأراد أن يدخل على الخليفة
المتقي ولكن ناصر الدولة لم يمكنه فقام بمراسلة أبو الوفا توزون التركي وكان
المتغلب على الخليفة وكان الخليفة قد أمره أن يخلع على الإخشيد، فقام
محمد بن طغج بإرسال الهدايا والمال إلى الخليفة وقد أرسل إلى الخليفة
رسالة مفادها: «يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك
وفجورهم وغدرهم، فالله الله في نفسك، سر معي إلى مصر فهي لك، وتأمين
على نفسك» فلم يقبل الخليفة نصحه ورجع الإخشيد إلى مصر، وأما
الخليفة فإنه رجع إلى بغداد في رابع المحرم سنة ٣٣٣هـ، فقام توزون بالقبض
على الخليفة وكحل عيني - أي وضع فيهما سيخ حديد محمى بالنار -
الخليفة وعزله وأقام مكانه المستكفي عبد الله. ٣٧

٣٦ - فريق البحوث والدراسات الإسلامية - الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي - المجلد
الأول - طبعة (٢٠٠٠م) - مكتبة علاء الدين - الإسكندرية - ص ٣٢٠ .

٣٧ - السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن - تاريخ الخلفاء - الطبعة الأولى
(١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) - مكتبة مصر سعيد جودة السحار وشركاه - القاهرة - ص ٤٣٣ .

ثالثا: استقلال محمد بن طغج بمصر والشام سنة (٣٣٤هـ):

وعلى الرغم من أن الإخشيد كان شديد الولاء والإخلاص للخلافة العباسية لكن هذا لم يمنعه أن يحذو حذو أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر والشام، ثم قام في سنة ٣٣٤هـ بأخذ البيعة لولده أبو القاسم أنوجور.

رابعا: وفاة الإخشيد محمد بن طغج سنة (٣٣٤هـ):

وفي هذه السنة توفي الإخشيد محمد بن طغج بعد أن خرج من مصر إلى دمشق فمرض بها ومات في يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة، فكانت مدة إمارته إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين. ٣٨

أولا: أبو المسك كافور الإخشيدي سنة (٣٣٤هـ - ٣٥٧هـ)

الخادم والحاكم لدولة أبناء الإخشيد في مصر:

أصل كافور الإخشيد:

هو الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي، وكان أسود اللون خصيَ اشتراه أبو بكر محمد بن طغج بثمانية عشر ديناراً من الزياتين

٣٨ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٢٥٦.

فرباه وأعتقه، وجعله من ضمن خدمه فلما رأى منه النباهة والحزم والشجاعة رقيه في الخدمة حتى جعله من كبار القواد، وكان يمتاز بحسن التدبير والحكمة والحزم، فعندما مات محمد بن طغج خرج بولديه أبو القاسم وأبا الحسن من مصر إلى بغداد للقاء الخليفة المطيع لله وتمكن من أخذ الولاية لهما من الخليفة على مصر والشام والثغور وعاد بهما إلى مصر فوجد أحد القادة ويدعى غلبون قد غلب على مصر، فحاربه كافور وتغلب عليه وقتله، وهكذا وطد أمر السلطنة لولدي أستاذه.

ثانيا: ولاية أبو القاسم أنوجور بن محمد بن طغج سنة (٣٣٥هـ - ٣٤٩هـ):

وقد تولى أمر مصر في يوم الجمعة ٨ ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ ولكنه لم يحكم البلاد بشكل فعلي وأنوجور تعني بالتركية محمود، وأما مقاليد الحكم فكانت في يد أبو المسك كافور والذي كان يدبر أمر الدولة وانفاذ الجيوش إلى الحروب، وظلت هذه حال أنوجور حتى مات في يوم السبت ٧ أو ٨ من ذي القعدة سنة ٣٤٩هـ فكانت مدة سلطنته على مصر والشام أربعة عشرة سنة وعشرة أيام.

ثالثا: ولاية أبو الحسن على بن محمد الإخشيد سنة (٣٤٩هـ - ٣٥٥هـ):

وقد تولى بعد وفاة أخيه أنوجور في يوم السبت ٢٠ من ذي القعدة سنة ٣٤٩هـ، وقد جمع له الخليفة المطيع لله مصر والشام والثغور وأضاف إليه حكم الحرمين الشريفين، وكان هذا أقصى اتساع للدولة الإخشيدية،

وكما كان الحال مع أخيه أنوجور كان الحال معه، فقد كان المدبر والمتحكم في أمور السلطنة والولاية هو الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي. ٣٩

وقد بقيت حال أبو الحسن هذا مع كافور الإخشيدي حتى توفي في ١١ من المحرم سنة ٣٥٥هـ وحمل إلى بيت المقدس ودفن بجوار أبيه محمد بن طغج وأخيه أنوجور هناك، وكانت مدة سلطنته خمس سنين وشهرين ويومين. ٤٠

رابعاً: ولاية أبو المسك كافور الإخشيدي سنة (٣٥٥هـ - ٣٥٧هـ):

وكما قلنا سابق فقد كان هو المدبر والحاكم للدولة الإخشيدية في مصر والشام، وكان ذا دهاء وسياسة فقد كان يهادي العبيدين في المغرب ويظهر لهم الميل، وكان في نفس الوقت يهادي العباسيين في بغداد ويظهر لهم الولاء والإخلاص، وبفضل هذه السياسة تمكن من الحفاظ على دولته حتى وفاته في سنة ٣٥٧هـ، فكانت ولايته على مصر والشام والثغور سنتين وأربعة أشهر كان يخطب له فيها على المنابر، وموته أصبح الطريق خاليا للعبيدين في المغرب أن يدخلوا مصر، فقد كانت الحالة الاقتصادية للبلاد في انحطاط بسبب قلة ارتفاع منسوب نهر النيل، وبسبب القحط الذي ضرب البلاد.

٣٩ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣هـ/٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٣٢٥ وص ٣٢٦.
٤٠ - المصدر السابق - ص ٣٢٦ وص ٣٢٦.

خامسا: ولاية أحمد بن علي بن الإخشيد على مصر سنة (٣٥٧هـ):

وقد تولى أمر الدولة بعد وفاة مولى جده أبو المسك كافور في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ وهو اليوم الذي توفي فيه كافور، وكانت سنه حينئذ ١١ سنة ! فكان الوصي عليه ابن عم ابيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، ولكن اضطربت الأحوال بالدولة وأرسل خليفة العبيدين في المغرب المعز لدين الله الفاطمي قائده جوهر الصقلي والذي تمكن من دخول مصر بالأمان، فقد طلب منه أعيان مصر نجدتهم من القحط والانهيال الاقتصادي الذي تمر به البلاد، وعلى الرغم من مقاومة الإخشيديين لجوهر إلا أن البلاد قد سلمها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات إلى القائد جوهر، فانتهت بذلك دولة الإخشيديين في سنة ٣٥٨هـ. ٤١

سادسا: الجيش في عهد الدولة الإخشيدية:

وكما اهتم الطولونيون بالجيش، اهتم محمد بن طغج ومولاه كافور بالجيش فقاما بشراء المماليك وأكثروا منهم، ف قيل أن ممالك محمد بن طغج بلغ عددهم حوالي ثمانية آلاف مملوك، وأيضا كان فيهم من السودان عدد كبير، والدليل على ذلك هو وجود أبو المسك كافور الإخشيدى والذي ترقى في خدمة سيده حتى تولى الأستاذية والوصاية على أبناء سيده، وحكم السلطنة من خلالهم. ٤٢

٤١ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٢١.

٤٢ - العبادي - الدكتور أحمد مختار - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - طبعة (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ص ٦٧.

سابعاً: اتساع حدود الدولة الإخشيدية:

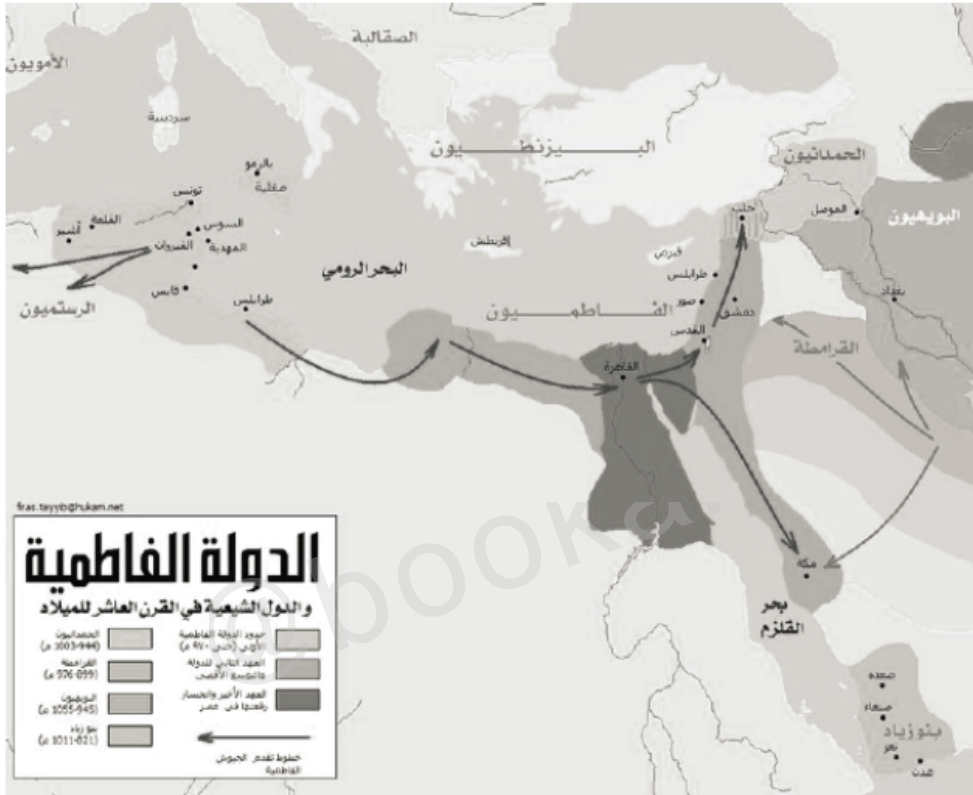
وتمكن محمد بن طغج أن يمد نفوذ دولته قبل وفاته لتشمل مصر والشام والتهور، وأما في عهد ولده أبو الحسن علي، فقد أضاف إليه الخليفة العباسي الحجاز والحرمين الشريفين، وهكذا تكون الدولة الإخشيدية قد بلغت أقصى اتساع لها، فعندما دخلت الدولة العبيدية إلى مصر ضمت إليها أملاك الدولة الإخشيدية وهي مصر، والشام، والحرمين الشريفين.



الدولة الإخشيدية في أقصى اتساعها

(الأترك في عهد الدولة الفاطمية بمصر)

٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ



الدولة العبيدية في أقصى اتساعها

صبيان الحجرية في الدولة الفاطمية:

أولاً: الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة (٣١٩هـ - ٣٦٥هـ):

بعد دخول جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨هـ، ومجيء الخليفة معز والذي

تلقب بالمعز لدين الله الفاطمي ابتكر بمصر نظام جديد لتربية وتدريب الجنود فقد قام ببناء ثكنات عرفت باسم الحجر بجوار قصر الخلافة بالقاهرة، فكانوا يأخذون جماعة من الشباب ممن لمس فيه مهارة في علم أو فن أو فروسية فكان يرسم لهم بالإقامة في هذه الثكنات والتي عرفت فيما بعد باسم الحجر، وقد كان عددهم ما يقارب الخمسة آلاف شاب يقيم كل واحد منهم في حجرة خاصة به منفصلة عن بقية الحجر.

ثانيا: الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الدين الجمالي سنة (٤٥٨هـ - ٥١٥هـ):

فقد قام بإنشاء سبع حجر، واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف راجل، ووزعهم على هذه الحجر، وجعل لكل مائة منهم زماما - مسئولا - ونقيب، وزم الكل تحت إمرة أمير يقال له الموفق، وجعل لكل واحد منهم ما يحتاج إليه من الخيل والسلاح فمتى طلبوا حضروا ومعهم السلاح لا يمنعهم ممانع أو يعوقهم عائق. ٤٣

ثالثا: الجيش في عهد الدولة الفاطمية بمصر:

وأما عن نظام الجيش فقد كان متنوع الأجناس، فقد ضم العرب والأرمن والصقالبة والمغاربة، وأيضا الأتراك ولكنهم جميعا بما فيهم الأتراك كانوا

٤٣ - فرحات - أميرة الشيخ رضا - الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر - الطبعة الأولى (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) - دار كتابات - ناشرون - لبنان - ص ١٥٠ وص ٢٥٤.

على هيئة المماليك وإن لم يكونوا مسترقين، فقد كان جميع الجنود من
الأحرار وليسوا من الرقيق الذين جلبوا عن طريق تجار الرقيق والنخاسين،
ولكن كان ترتيبهم وتربيتهم تشبه إلى حد كبير نظام المماليك بعد ذلك في
زمن الدولة الأيوبية في مصر والشام.

@booka

(الدولة الأيوبية وابتكار نظام المماليك)

٥٦٤ هـ - ٦٤٨ هـ



شعار الدولة الأيوبية

أولاً: السلطان الناصر صلاح الدين سنة (٥٦٤ هـ - ٥٨٩ هـ):

وبعد أن قام الناصر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية في مصر، وإقامة الخطبة مرة أخرى للخليفة العباسي في بغداد، قام بعمل تطوير في الجيش والأسطول، فقد استفاد من خبرة أستاذه السلطان نور الدين محمود والذي اتخذ من التركمان قوات إضافية لجيش الشام، فسار السلطان الناصر صلاح الدين على نفس طريقة أستاذه، فقد أرسل إلى قبائل وعشائر التركمان خصوصاً التركمان الياوقية والذي كان لهم دور

كبير في حروب الحملة الصليبية الثالثة فقد قاموا بهجمات مؤثرة على خطوط تموين القوات الصليبية أسفل بيت المقدس ، ولهذا كان الناصر يعتبرهم من القوات المساعدة والمهمة ودفع لهم الأموال الكثيرة مقابل خدماتهم، وقدم لهم كل ما يحتاجونه من دقيق وأموال تقديرا لجهودهم في جهاد الصليبيين، ويعتبر استخدام للسلطان الناصر صلاح الدين للتركان في الجيش بداية لقيام خلفائه من السرطين الأيوبيين لشراء المماليك الأتراك وتربيتهم على الفروسية والإخلاص لهم وجعلهم حرسا خاص في الجيش. ٤٤



السلطان الناصر صلاح الدين

٤٤ - العريني - الدكتور السيد الباز - الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) - طبعة (١٣٨٦هـ/١٩٦٧م) - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - ص١٦٤ و ص١٦٥.

ثانيا: السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٣٨هـ - ٦٤٧هـ):

وقد أكثر هذا السلطان من شراء المماليك الأتراك، فقد أعجب بهيئتهم وقوة بأسهم في القتال والحرب، وإخلاصهم الشديد له فقد ساعده للوصول إلى كرسي السلطنة بمصر فلم ينسى لهم هذا الفضل، فجعلهم القوة الأساسية في جيشه ونسبهم إلى نفسه فسماهم بالمماليك الصالحة وهي التي عرفت فيما بعد بالمماليك البحرية، وكان يقوم بشرائهم وجلبهم غلمان صغار من بلاد التركستان والقفجاق، ومن بلاد شمالي البحر الأسود وبحر قزوين، فيقال أنه أضاف إلى جيشه ألف مملوك دفعة واحدة مشكلا منهم فرقة مخصوصة وحدها، وما عن تسميتهم بالبحرية ففيه قولان هما:

الأول: نسبة إلى ثكناتهم في جزيرة الروضة، فقد قام السلطان الصالح ببناء قلعة في جزيرة الروضة على النيل بين عامي ٦٣٧هـ و ٦٣٨هـ، وبنى بها ثكنات لهؤلاء المماليك، وبنى بالجزيرة الكثير من الأبراج حتى بلغت حوالي ستين برجاً، وجعل بها مسجدا للصلاة، وكان يتم في هذه القلعة تربية هؤلاء المماليك الصغار على التعاليم الإسلامية، وتعليمهم فنون الفروسية وركوب الخيل وغيرها من فنون القتال، وكان السلطان يشرف بنفسه على هذه الأمور، وكانت هذه الجزيرة يتم الوصول إليها في وقت علو نهر النيل بالمراكب ولهذا سموهم بالمماليك البحرية. ٤٥

٤٥ - الدكتور علي المحمد الصلابي - الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى الخامسة - الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) - مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة - ص ٢٩٤ و ص ٢٩٥.



جزيرة الروضة

الثاني: أنهم سموا بالمماليك البحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار، وذلك أن هؤلاء المماليك كانوا غرباء عن البلد جلبوا من أسواق النخاسة والرقيق من بلاد القوقاز وبلاد الأناضول، وشواطئ البحر الأسود، وبالتالي يكون طريق سفرهم إلى مصر هو البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر المتوسط ومن يصلون إلى ميناء الإسكندرية أو ميناء دمياط، ومنه يصلون إلى القاهرة. ٤٦

ثالثا: السلطان الملك المعظم توران شاه وقتله على يد مماليك أبيه (٦٤٧هـ)

- (٦٤٨هـ):

وقد تولى بعد وفاة أبيه الصالح نجم الدين أيوب، وكان كارها للمماليك البحرية مماليك أبيه، وقد خافه المماليك فقد رأوه يضرب رؤوس الشموع

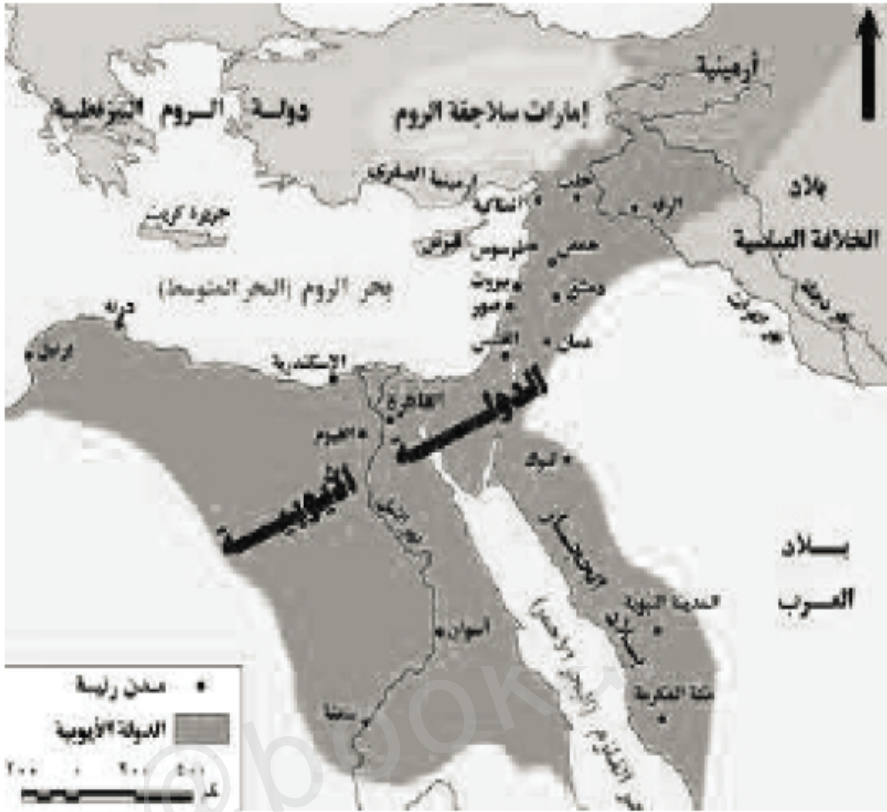
٤٦ - العبادي - الدكتور أحمد مختار - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ص ٩٩.

بسيفه فيقطعها ويقول:» هكذا أفعل بالبحرية، ويسمي ممالك أبيه بأسمائهم، وقام بإهانتهم، وقدم عليهم أراذل الناس، وأيضا أرسل يهدد زوجة أبيه شجر الدر ويتوعدها ويطلب منها المال والجواهر، فخافت منه وقامت بمراسلة الأمراء المماليك للتخلص منه.

وفي يوم ٧ من المحرم - وقيل السابع والعشرين - سنة ٦٤٨هـ ضربه بعض المماليك البحرية وهو جالس على سماطه يأكل، فتلقى الضربة بيده فقطعت بعض أصابعه، فقام وهرب إلى داخل برج خشبي كان قريب منه وصاح في المماليك وهو يقول: من جرحني ؟ فأجابوه: بعض الإسماعيلية فقال: تمموه وإلا أفناكم، فدخوا عليه فعلم أنهم ممالك أبيه من ضربه بالسيف، فهرب منهم إلى أعلى البرج فرموا البرج بالنار ورموه هو بالنشاب، فرمى توران شاه بنفسه من أعلى البرج وأخذ في الهرب جهة النيل وهو يتوسل إليهم ويقول: «ما أريد ملكا، دعوني أرجع إلى حصن كيفا، دعوني أرجع إلى حصن كيفا، يا مسلمين ما فيكم من يصطنعني» فلم يجبه أحد، فتعلق بذيل الأمير فارس الدين أقطاي فما أجاره، ونزل في البحر حتى وصلت المياه إلى حلقه، فتتبعه المماليك وأجهزوا عليه وتركوه ملقى على جانب النيل لمدة ثلاثة أيام، ثم قموا بعد ذلك بدفنه. ٤٧

وبمقتل السلطان المعظم توران شاه تبدأ حقبة جديدة، هي حقبة حكم المماليك البحرية في مصر والشام والتي سوف يكون لها شأن عظيم في حركة الجهاد وتحرير البلاد الإسلامية من الصليبيين والتتار وهزيمتهم في أكثر من معركة ومنعهم من احتلال البلاد الإسلامية في مصر والشام.

٤٧ - الكتبي - صلاح الدين محمد بن شاکر الكتبي - عصر سلاطين المماليك - الجزء الأول - حوادث وتراجم (٦٤٨هـ - ٦٧٠هـ) - تحقيق أحمد عبد الستار - مراجعة أ.د. أيمن فؤاد السيد - طبعة (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٧ و ص ٤٨.



الدولة الأيوبية في أقصى اتساعها

ودولة المماليك تنقسم إلى عهدين هما:

أولاً: حكم دولة المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ):

وهو العهد الأول من حكم دولة المماليك التي حكمت مصر والشام، ويمتاز سلاطين هذه الدولة بأنهم من العنصر التركي وعدد سلاطينهم سبعة

وعشرون سلطان، وسلاطين هذه الدولة هي التي صدت التتار في عين جالوت وهزمتهم في أكثر من معركة، وأيضاً هم من حرروا بقية بلاد الشام من أيدي الصليبيين.

ثانياً: حكم دولة المماليك الشراكسة أو دولة المماليك الثانية (٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ):

والعهد الثاني من حكم المماليك تغلب فيه العنصر الجركسي أو الشركسي على العنصر التركي وتعرف دولتهم أيضاً باسم دولة المماليك البرجية، وهو يبدأ بوصول برقوق الجركسي إلى كرسي السلطنة ويستمر حكم الشراكسة حتى سقوط سلطنة المماليك على يد العثمانيين والذي كان آخر سلاطينهم السلطان الأشرف طومان باي، فيكون عدد سلاطينهم ستة وعشرون سلطاناً فيكون عدد سلاطين المماليك كلهم ثلاثة وخمسين سلطاناً، وقد تولى أمر السلطنة الخليفة العباسي المستعين بالله بن المتوكل مدة قصيرة جداً ثم خلع من قبل الشيخ محمودي وبالتالي لا يحسب من جملة السلاطين الأتراك.



فارس مملوكي في كامل لباسه الحربي



الفصل الثاني

(دولة المماليك الأولى)

المماليك البحرية

٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ

@booka.

١- السلطان المعز أيبك (٦٤٨ - ٦٥٥هـ):

تولى السلطنة في يوم السبت آخر شهر ربيع الأول سنة (٦٤٨هـ) وذلك بعد أن خلعت السلطنة شجر الدر نفسها، ثم تزوجها واستمر في السلطنة إلى أن قتلته زوجته شجر غيرة عندما علمت أنه سوف يتزوج عليها فقتلته في الحمام على يد غلمانه يوم الثلاثاء ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة (٦٥٥هـ) وكان تركماني الأصل، فتمكن المماليك من حكم مصر من خلال زواج السلطنة شجر الدر من الأمير المعز أيبك، وقد واجه أصحاب السلطة الجدد مخاطر وصعوبات كادت أن تأد دولتهم الوليدة في مصر والتي تمثلت في الآتي:

أولاً: الخطر الأيوبي الملك الناصر يوسف وموقعة العباسية:

الزمن سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م، المكان القاهرة.....

جلس على عرشه في مجلس الحكم بقلعة القاهرة منتظرا الوفد القادم من عند الخليفة العباسي المستعصم بالله من عاصمة الخلافة بغداد من أجل اقرار الصلح بينه وبين الملك الناصر صلاح الدين يوسف، والذي أصبح كبير البيت الأيوبي والوريث الشرعي للسلطنة بعد مقتل السلطان توران شاه على يد مماليك أبيه.

بدى التوتر واضحا على ملامح السلطان، فقد تأخر وصول وفد الخليفة الذي سوف يقر بنود الصلح بينه وبين الأيوبيين، وكان جل تفكيره منصب

على كيفية توطيد حكمه بمصر هو وخشداشيته ١ ومماليكه، فإما أن يكون للماليك دولة يحكمونها باسمهم، أو يظلوا إلى نهاية حياتهم مماليك لسلطين الأيوبيين، والذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم مجرد أتباع وخدم لهم.

على يمينه نائبه على السلطنة الأمير سيف الدين قطز مطمئنا له: أيها السلطان المعز لما التوتر بادی عليك وقد توطد حكمك في مصر بعد أن كسرنا جيش الناصر الأيوبي بالعباسة، ولن يفكروا في محاربة المماليك مرة أخرى.

السلطان المعز أيبك: ولكن لابد لنا من اعتراف الخليفة العباسي المستعصم بالله، وإلا لن تكون لسلطنتنا شرعية في مصر، صحيح أننا قد انتصرنا على الأيوبيين ولكن هذا النصر لا يكفي للاعتراف بحكمنا.

الأمير سيف الدين قطز: ألم ننفذ رغبة الخليفة ونجعل السلطنة شجر الدر تتنازل عن عرش السلطنة!

صوت الحرس مقاطعا لحديثهما: قد وصل وفد الخليفة العباسي المستعصم بالله أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يطلبون الإذن بالدخول على حضرة السلطان.

اعتدل السلطان المعز على عرشه وأشار إلى حراس بابه للسماح للوفد بالدخول، دخل الوفد المكون من نجم الدين البادرائي، وعز الدين أزدمر

١ - هي جمع مصطلح خشداش: وهي معرب اللفظ الفارسي خواجهاتاش والتي تعني الزميل في الخدمة، وكانت تعني في عهد دولة المماليك بمصر، الأمراء الذين نشأوا كماليك لدى سيد واحد، فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة - المقريزي - تقي الدين احمد بن علي - هامش كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٣٨٨ و ص ٣٨٩.

ومعهما كاتب الإنشاء بحلب نظام الدين أبو عبد الله محمد بن المولى الحلبي، أدوا التحية للسلطان المعز أيبك والذي نزل عن عرشه مرحبا بالوفد وأجلسهما على مائدة قد أعدت من أجل المباحثات حول إقرار بنود الصلح وكتابة القواعد التي سوف تقرر الصلح بين المماليك والأيوبيين.

وبعد ساعات من المناقشات الطويلة بين وفد الخلفية والسلطان المعز أيبك والأمير سيف الدين قطز تقرر كتابة بنود الصلح والذي اشتمل على النقاط التالية:

١- أن يكون للسلطان المعز وخشداشيته من المماليك الصالحة من مصر إلى الأردن، وأن يكون للملك الناصر ما وراء ذلك.

٢- أن يدخل في حكم المصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله.

٣- أن يطلق السلطان المعز أيبك جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر بعد وقعة العباسية ٢.

وحلف كل منهما على ذلك وكتبت به العهود، ونزل السلطان المعز بعساكره في اليوم السابع من شهر صفر إلى قلعة الجبل وأمر بإطلاق الأسرى تنفيذاً لبنود المعاهدة وهم:

١- الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

٢ - العباسية بلدة بين مدينتي بلبيس والصالحية وفيها كانت الموقعة التي حدثت بين جيش الملك الناصر يوسف وجيش المماليك، وكان النصر في أولها في جانب الأيوبيين حتى مالت فرقة من مماليكه وتدعى العزيزية نسبة إلى والد الناصر العزيز محمد فانقلبت كفة المعركة لصالح المماليك وانهزم الناصر بجنوده إلى الشام، وكانت هذه الموقعة في سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥١م - العبادي - الدكتور احمد مختار - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) - دار النهضة العربية للنشر والتوزيع - بيروت - ص ١٢٦.

٢- أخاه نصره الدين.

٣- الملك الأشرف صاحب حمص وسائر أولاد الملوك والأمراء.

وأمر بإحضارهم إلى دار الوزارة ليشهدوا حلفه للملك الناصر، وأيضاً أعطى السلطان المعز أيبك للملك المعظم هدية سنوية، وأعطى أعضاء وفد الصلح وهما نظام الدين بن المولى، ورفيقه عز الدين أزدمر هديه وهي عبارة عن عشرة آلاف دينار تقديراً لهما على إقرار الصلح، وكتابة بنود المعاهدة. ٣

تنهد السلطان وأحس أخيراً بالراحة ولكن لم يطمئن باله بعد فهناك خطر آخر يهدد عرشه، وهو الأمير فارس الدين أقطاي كبير المماليك البحرية، وهنا قطعت أفكاره زوجته السلطانة شجر الدر وكأنها تحدث نفسها.

شجر الدر: اقتله.

المعز أيبك: أقتل من!

شجر الدر: الذي يؤرق تفكيرك هكذا ويهدد عرشك.

المعز أيبك: وماذا أفعل مع ممالكهم وهم قوة كبيرة في الدولة والجيش.

شجر الدر: إن لم تقتله سوف يقتلك فكن أنت الأسبق وثبت سلطانك في

٣ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م - ص ٣٨٥ و ص ٣٨٦.
الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٣٦ هـ / ٢٠٠٩ م) دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٠.

مصر ولا تخشى من مماليكه شيء.

المعز أيبك: لابد أن ينفذ هذا الأمر بسرية تامة وتخطيط محكم، فالسرعة في اتخاذ قرار خطير كهذا سوف تكون له عواقب وخيمة لا يعلمها إلا الله.

شجر الدر: دبر أمرك سريعا قبل أن تجده قد دخل عليك مجلس سلطانك ووسط مماليكه يأمر بجرك من على كرسيك وقتلك أو يأمر برميك في جب عميق لا يعلم مكانك فيه أحد.

المعز أيبك وقد أخذت كلمات زوجته شجر الدر تآكل دماغه وقلبه خوفا وغضبا من فارس الدين أقطاي ومن مماليكه، وقد استقر في وجدانه وقلبه قتل الأمير أقطاي ولكن كيف سيفعل ذلك؟

هكذا بدأت دولة المماليك في مصر والشام، فبعد أن تمكنوا من القضاء على أولى عقباتهم وهو البيت الأيوبي في الشام والذي كان وقتها يتولى قيادة هذا البيت العظيم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد، فقد كانت موقعة العباسية نهاية حكم الأيوبيين في مصر وإلى الأبد، ولم يبق أمام السلطان المعز أيبك سوى عقبتان هما:

ثانيا: ثورة العربان ضد حكم المماليك سنة (٦٥١هـ / ١٢٥٣م):

فما كاد السلطان المعز أيبك أن يستريح من اقرار حكمه في مصر حتى تفاجأ بقيام ثورة قبائل العرب في الصعيد والشرقية يقودهم شريف من البيت العلوي الطالبي يدعى الأمير حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير

٤- هو الأمير حصن الدين ثعلب بن الأمير نجم الدين علي بن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن أبي جميل دحية بن جعفر بن موسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

نجم الدين علي، فقد وصلت إليه أخبار انهزام الأيوبيين في العباسية أمام المماليك، ثم إقرار الصلح بين الفريقين واستقلال المماليك بمصر والقدس ونابلس والساحل كله، فطمع في الملك والسلطنة وقال لأصحابه:

«نحن أصحاب البلاد» ومنع الأجناد من تناول الخراج وصرح بمقولة خطيرة ضد المماليك فقال: «أنا أحق بالملك من المماليك. وقد كفى أنا خدمنا بني أيوب، وهم - يعني المماليك - خوارج خرجوا على البلاد» وقد ركبتهم الأنفة من خدمة الترك، وأرسلوا إلى الملك الناصر بالشام يستحثونه للقدوم مرة أخرى إلى مصر.

واجتمع العرب كلهم على كلمة واحدة وهي محاربة المماليك وطردهم من البلاد وكانوا في كثرة من المال والخيول والرجال وذهبوا إلى الأمير حصن الدين ثعلب يبايعونه على الإمارة وهو يومئذ بناحية دهروط صربان - هي ديروط الحالية بأسسوط - فأنت إليه قبائل العرب من أقصى الصعيد، والبحيرة والجيزة والفيوم وحلفوا له جميعهم على الطاعة، فكان عدة رجاله اثني عشر ألف فارس وأما الرجالة فقد تجاوز عدتهم الإحصاء.

ولما علم السلطان المعز أيك بهذه الجموع التي تجمعت من قبائل العرب وأمروا عليهم الأمير حصن الدين ثعلب، علم أن الأمر خطير وأنه يهدد سلطنته فلم يجد بد من إرسال غريمه الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، والأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في خمسة آلاف فارس، والتقى الفريقان في ناحية ذروة واقتتلوا من أول النهار إلى الظهر، وفي وسط المعركة وقع الأمير حصن الدين من على ظهر حصانه فأحاط به أصحابه وهجم المماليك عليه فقتل حوله من أصحابه العرب ومن العبيد أربعمائة رجل وتمكن أصحابه من إركابه على حصان فوجد أن العرب قد تفرقوا عنه، فولى منهزما وهنا ركب المماليك أكتاف وأدبار العرب فأخذوا يقتلونهم

ويأسرون حتى حال بينهما الليل، وكانت الغنائم والأسلاب والأسرى من النساء والأطفال والخيول والجمال والمواشي ما يفوق الحصر ويعجز عن الضبط.

ثم عاد المماليك إلى مخيمهم ببليس، ثم تجهزوا لمحاربة بقية العرب في الغربية والمنوفية، فهجموا على قبيلتي سنبس ولواته وكانوا قد جمعوا أنفسهم لملاقاة المماليك في ناحية سخا وسنهو، فتمكن المماليك من الإيقاع بهم هناك فقتلوا الرجال وسبوا النساء، وبهذه الهزيمة انتهت ثورة العربان وثبت المماليك حكمهم بقوة السيف.

وهنا طلب الأمير الشريف حصن الدين ثعلب الأمان له ولأصحابه من الملك المعز أيبك، فأمنه ووعد بإقطاعات له ولأصحابه، وأن يجعلهم من جملة العسكر في الجيش وعونا له على أعدائه، فانخدع الشريف حصن الدين بكل هذه الوعود، فقدم هو وأصحابه مطمئن الخاطر إلى بليس، فلما اقترب من الدهليز السلطاني نزل عن فرسه ليحضر مجلس السلطان، فقبض عليه وعلى سائر من كان معه من أصحابه وكان عدتهم حوالي ألفي فارس وستمئة راجل، وأمر الملك المعز فنصبت لهم الأخشاب من بليس إلى القاهرة وشنق الجميع، وبعث بالشريف حصن الدين إلى ثغر الإسكندرية، فحبس بها وسلم لوالدها الأمير شمس الدين محمد بن باخل.٥

وبهذا النصر الذي حققه المماليك على القبائل العربية وتمكنهم من كسر شوكتها يكون السلطان المعز أيبك قد انتهى من العقبة الثانية، وبقي له العقبة الأخيرة وهي أخطر العقبات التي واجهت حكمه في مصر، وهو الأمير فارس الدين أقطاي منافسه القديم على السلطنة.

٥ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٣٨٦ وص ٣٨٧ وص ٣٨٨.

ثالثا: التخلص من الأمير فارس الدين أقطاي سنة (٦٥٢هـ / ١٢٥٤م):

غريمه السابق على كرسي السلطنة ومنافسه الوحيد القادر على خلع أو قتله، ولهذا كان عليه التخلص منه بأي ثمن هكذا حدث نفسه السلطان المعز أيبك، فلم يعد يأتمر بأمره ولا ينتهي لنهيته بل كان هو وخشداشيته ومماليكه وبالا على السلطنة وعلى أهل مصر فقد بلغ أذاهم الغاية، فقد كانت المماليك البحرية خاصة يأخذون أموال الناس ونسائهم وأولادهم بأيديهم، ولا يجروا أحد على منعهم أو معارضتهم، وكانوا يدخلون الحمامات ويأخذون النساء منها غصبا، فكثر ضررهم وكان مماليك فارس الدين أقطاي ينادونه فيما بينهم بالملك الجواد!، ولكن الذي أكد شكوك السلطان المعز أيبك من أن الأمير فارس الدين أقطاي ينوي التخلص منه أنه علم أن أقطاي قد طلب الزواج من ابنة صاحب حماة الملك المظفر تقي الدين محمود وكان أخوها الملك المنصور هو صاحب حماة يومئذ، فقد كلم فارس الدين أقطاي الملك المعز أيبك في أمر هذا الزواج وطلب منه طلبا أكد شكوك أيبك، فقد طلب منه أن يسكن زوجته الجديدة بقلعة الجبل فهي من بنات الملوك ولا يجوز أن تسكن أو تعيش وسط البيوت في القاهرة.

وهنا قرر الملك المعز أيبك أن يقتل فارس الدين أقطاي وقد أعد العدة وأحكم وضع الخطة لذلك، فقام في يوم الأربعاء الثالث من شهر شعبان سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م، وكان وقت القائلة بإرسال من يطلب من الأمير فارس الدين أقطاي المجيء إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل في مشورة يأخذ رأيه فيها وكانت تلك هي الحيلة التي سوف تقضي على حياة هذا الأمير المتكبر المغرور، فركب فارس الدين أقطاي على غير أهبة ولا اكتراث وعندما

دخل من باب القلعة وصار إلى قاعة العواميد، وهنا أمر الملك المعز بغلق باب القلعة ومنع مماليكه من الدخول معه إلى القلعة، وفي تلك اللحظة خرج من الدهليز جماعة من الأمراء المماليك الذين قد أعدهم الملك المعز من أجل الفتك بأقطاي وهم: «الأمير سيف الدين قطز، وبهادر، وسنجر الغتمي» فضربوه بسيوفهم حتى مات، وهنا وقع الصريح بالقلعة والقاهرة بقتل الأمير فارس الدين أقطاي، فركب من مماليكه نحو من سبعمائة فارس ووقفوا تحت القلعة، وكان يظنون أن صاحبهم لم يقتل وإنما هو تحت الاعتقال وأنهم سوف يحررونه من أيدي الملك المعز، وكان من هؤلاء المماليك الكبار: «الأمير بيبرس البندقداري - الذي سيكون سلطان على مصر بعد ذلك - وقلاون الألفي وسنقر الأشقر وغيرهم» فلم يشعروا إلا برأس سيدهم أقطاي تلقى عليهم من فوق أسوار القلعة، فسقط في أيديهم والتفتوا بعضهم إلى بعض وقالوا: «على من تقاتلون، قد فات فيه الأمر. ٦» وتفرقوا جميعهم، وخرجوا في الليل من القاهرة وحرقوا باب القراطين فعرف هذا الباب بعد ذلك بالباب المحروق بعدها، وهكذا انتهى أمر فارس الدين أقطاي وكأنه لم يكن. ٧

٦ - الكتبي - صلاح الدين محمد بن شاکر - عيون التواريخ - عصر سلاطين المماليك - الجزء الأول - تحقيق أحمد عبد الستار - مراجعة أ.د. أيمن فؤاد السيد - الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٩٥.

٧ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٣٩٠ و ٣٩١.

الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٢.

قتل السلطان المعز على يد زوجته شجر الدر سنة (٦٥٥هـ):

بعد أن تخلص السلطان المعز من جميع خصومه أحس بسطوة زوجته شجر الدر عليه فأراد أن يكسرها فأرسل يخطب ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فلما علمت بذلك قامت قائمتها ودبرت لقتله لعلمها أنه بعد ذلك سوف يتخلص منها، فأنت بخمسة رجال ليقتلوه هم «محسن الجوجري، ونصر العزيزي الخادم، ومملوك اسمه سنجر» فلما كان يوم الثلاثاء ١٤ من ربيع الأول ركب السلطان المعز من الميدان بباب اللوق وصعد إلى قلعة الجبل آخر اليوم ودخل الحمام ليلاً، فأغلق عليه باب الحمام محسن الجوجري وكان معه غلام شديد القوة فقاما بضرب المعز وطرحوه أرضاً فأخذ بعضه بأنثييه والبعض الآخر بخناقه، فاستغاث حينها المعز بشجر الدر التي كانت حاضرة مشهد قتله فقالت لهم: «اتركوه: فأغلظ لها محسن الجوجري في الكلام وقال لها: «متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك» فتركهم يكملون عملهم فقتل المعز في تلك الليلة. ٨

مقتل السلطانة شجر الدر سنة (٦٥٥هـ):

ولم تكتف شجر الدر بقتل السلطان المعز بل أرسلت أصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبي فقالت له: «قم بالأمر» فلم يجرأ على طلب السلطنة، وأشيع خبر وفاة السلطان في تلك الليلة، فقام كبير

المماليك البحرية الأمير علم الدين سنجر الغتمي ومعه المماليك إلى الدور السلطانية بقبضوا على الخدم وشجر الدر، ومحسن الجوجري، وناصر الدين حلاوة، وصدر الباز، وتمكن نصر العزيز إلى بلاد الشام.

فلما تأكدوا من قيام شجر الدر ومن معها بقتل المعز أيبك أراد المماليك المعزية أن يقتلوها ولكن المماليك الصالحة منعوهم من ذلك ووضعوها في أحد أبراج القلعة يسمى بالبرج الأحمر، ثم أقامت المماليك ابن السلطان المعز مكان أبيه على كرسي السلطنة أرسلوا شجر الدر إلى أم السلطان المنصور يوم الجمعة ١٧ من ربيع الأول، فأمرت الجواري بضربها بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت ١٨ من ربيع الأول، وقاموا بإلقائها من أعلى سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياما حتى نتنت فقاموا بحملها في قفة ودفنوها بتربتها في المشهد النفيسي.

وأما محسن الجوجري فقد صلب على باب القلعة، وقاموا بتوسيط أربعين طواشيا تحت أبواب القلعة، وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة، وقبض على وزير شجر الدر صاحب بهاء الدين بن حنا وأخذ منه ستين ألف دينار. ٩

٢- السلطان نور الدين المنصور (٦٥٥هـ - ٦٥٧هـ):

هو نور الدين علي بن الملك المعز أيبك وكان عمره حينئذ خمس عشرة سنة تسلطن بعد وفاة أبيه في يوم الخميس ٢٥ شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ وعلى أيامه تمكن هولاكو من دخول بلاد الشام وحلب ثم قصد

مصر، فقام قطز بخلعه يوم السبت ١٧ شهر ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ وذلك من أجل توحيد البلاد ومحاربة التتار.

٣- السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧هـ - ٦٥٨هـ):

تولى أمر السلطنة بعد أن خلع ابن أستاذه وذلك لصغر سنه وعدم قدرته على القيام بأمر السلطنة ومحاربة التتار وكان ذلك يوم السبت ١٧ من شهر ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ، وهو الذي قاد جيوش المماليك في موقعة عين جالوت وتمكن من هزيمة التتار وتحطيم أسطورتهم، ثم قتل على يد مماليك فخر الدين أقطاي بزعامة كبيرهم بيبرس البندقداري، وكان قطز خوارزمي الأصل من بيت الملك في سلطنة خوارزم.

رد الخطر المغولي على بلاد الإسلام ومنعهم من غزو مصر سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م):

أمر السلطان سيف الدين قطز أن ينادى في القاهرة ومصر وسائر البلاد بالخروج للجهاد في سبيل الله ومحاربة التتار، فقد جاءت رسل هولاكو برسالة إلى مصر يحثونهم فيها على الاستسلام وعدم الحرب، فإن الحرب معهم لا جدوى منها وسوف يغلبون وتسبى نسائهم، فما كان من السلطان إلا أن قام بقتل الرسل الأربعة وكان معهم غلام صغير لم يشأ السلطان أن يقتله، ويا ليتة فعل فسوف يكون له شأن خطير أثناء الموقعة مع التتار، وقد رأى السلطان قطز تأخر الأمراء المماليك عن التأهب والاستعداد

لمحاربة التتار وامتناعهم من الخروج للقتال، فوقف خطيباً فيهم فقال:

السلطان المظفر سيف الدين قطز: يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختَر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين.

فلما جن الليل ركب السلطان وحرك كوساته وقال: أنا ألقى التتار بنفسي.

فلما رأى أمراء المماليك فعل السلطان لم يسعهم سوى التجهز للجهاد والخروج مع السلطان، وتحرك الجيش من مصر حتى وصل إلى غزة ومنها تحركوا عبر الساحل حتى وصلوا مدينة عكا، ثم تحركوا حتى وصلوا إلى عين جالوت فأمر السلطان بإقامة المعسكرات والخيم وتجهيز الجيش للمعركة الحاسمة.

وفي أثناء ذلك كان معسكر التتار على أهبة الاستعداد لملاقاة المماليك واثقين من النصر، فهم غضب الله على عباده، والصاعقة التي تحرق كل شيء تضربه أو تسقط عليه، وكان معهم في المعسكر أحد الأسرى المماليك وهو الأمير صارم الدين أذربك بن عبد الله الأشرفي - كان مملوك الملك الأشرف موسى صاحب مدينة حمص - والذي كان من ضمن أسرى الشام، وكان وجوده مع التتار عامل مهم في تحقيق النصر لجيش المماليك على جيش التتار، فقد رحل هولاكو عن الجيش وترك قيادة الجنود في يد نائبه كاتبغا وبيدرا وهما من أمهر قواده ولا يقلون عنه شراسة وحبا للقتل والفتك.

وكان الأمير صارم الدين أذربك قد قبل أن يكون في خدمة التتار في الظاهر، ولكنه في الباطن كان يتحين الفرصة للقضاء عليهم حتى أتته الفرصة في

تحقيق ذلك عندما علم بهمة المماليك وخروجهم لمحاربة التتار، وقد كان عظيم الذكاء، وفجأة نادى عليه كتبغا قبل بدء المعركة، فقد قام أمراء المماليك بعرض فرسانهم.

كتبغا ممتقع الوجه مبهوت: يا صارم الدين هذا رنك ١٠ من ؟

صارم الدين: هذا رنك سنقر الرومي.

كتبغا: وهذا السنقج الأصفر، رنك من ؟

صارم الدين: بلبان الرشيدي.

كتبغا وقد هاله كثرت الرنوك: ما كل هذه الرنوك يا صارم الدين، لقد ظننت أن المماليك أقل شأنًا من ذلك، وأنهم سوف يسرعون إلى معسكرنا يطلبون الأمان ؟

صارم الدين وقد علم أنه قد أصاب هدفه: والله يا سيدي ما أظنهم إلا وقد أحسنوا تعبأة أنفسهم، فكن على حذر.

صارم الدين وقد ترك كتبغا في حيرته وعاد مسرعا إلى خيمته فقد كان غلامه في انتظاره لأداء مهمة خطيرة.

صارم الدين للغلام: اذهب من فورك إلى معسكر المماليك وأطلب أن تجتمع بالسلطان قطز، والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي وسنقر الرومي فقط وأقرأ عليهم ما سوف أُمليه عليك، وتهياً في زي الجواسيس

١٠ - الرنك هي كلمة فارسية الأصل وقد كثر استعمالها في عهد دولة المماليك، وهي تعني الشعار مرسوم على علم وتدل على نوع وظيفه الأمير.

ولا تلفت الأنظار إليك.

الغلام: أمرك سيدي.

وبعد أن حفظ الغلام ما أملاه عليه صارم الدين، ولبس زي الجواسيس خرج من معسكر التتار مسرعا إلى معسكر المسلمين، وعندما وصل إليهم طلب الاجتماع بالأمرء الذين ذكرهم له سيده، وعندما قابلهم وجدهم على شيء عظيم من الخوف وهيبة من التتار فقال لهم مطمئنا:

الغلام للسلطان: سيدي صارم الدين أذبك قد حملني برسالة لكم يا سلطان المسلمين.

بلبان الرشيدي: أو ليس صارم الدين قد أصبح من جملة أمرء التتار، وخادمهم المطيع.

الغلام: لا والله ما كان خادما لهم أبدا، ولكنه يخادعهم، وقد حملني برسالة لكم.

السلطان المظفر: وما هي هذه الرسالة ؟

الغلام: يقول لكم لا تخشوا التتار فهم لا شيء فلا تخافوا منهم، واجعلوا ميسرة جيشكم مليئة بالخيول والرجالة القوية، وأن هولاء قد رحل بعد أن علم بوفاة أخية الخاقان وأخذ معه جملة كبيرة من الجنود والفرسان، فهم في عسكر قليل.

الظاهر بيبرس البندقداري: هذا فقط لا غير ؟

الغلام: لا هناك المزيد، يطلب منكم سيدي أن تبدأوا القتال مع التتار عند طلوع الشمس.

سنقر الرومي للسلطان: يا أيها السلطان قطز ما يدرينا أن كلام هذا الغلام حق، لا يكون هذا معمولية - حيلة - على المسلمين من التتار ؟

الغلام: قد علم سيدي أنكم لا تصدقوه حتى يكون هناك علامة على صدق كلامه، فهو يخبركم أن علامة صدق كلامه سوف تكون في أثناء القتال، فعندما يحمى وطيس الحرب بينكم وبين التتار سوف أنسحب أنا وأصحابي والملك الأشرف ونترك ساحة المعركة لكم كالمهزمين، وأنتم عليكم الباقي.

فجر الجمعة الموافق ٢٦ شهر رمضان المبارك سنة ٦٥٨هـ / ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م، جيش المسلمين بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز في عين جالوت وحوله المماليك من الأمراء والفرسان، منهم من خرج وهو راغب فيما عند الله مقبل على الآخرة مدبر من الدنيا، ومنهم من خرج وهو كاره خائف من التتار الذين سبقت أخبار ما فعلوه ببغداد وقتلهم للخليفة العباسي وأهل بيته والأبرياء العزل، وما فعلوه بعد ذلك ببلاد الشام، وقد رأى السلطان سيف الدين قطز الخوف في أعين أمراءه فنادى في أمراء الجيش وفرسانه وقد وقف على صخرة كبيرة فخطب فيهم قائلاً:

السلطان المظفر قطز: يا جنود الإسلام وفرسانه لما الخوف من التتار! ما هم إلا بشر مثلنا وما تسلطوا علينا إلا بذنوبنا وتفرقنا وعدم صدقنا في جهادهم، فاثبتوا يرحمكم الله واستعينوا بالله والصبر، واعلموا أن الله مجازيكم إحدى الحسنيين إما النصر في الدنيا، وإما الشهادة وجنته في الآخرة، وإياكم والتخاذل والفرار فيحدث لمصر ما حدث ببغداد والشام وما خبرهم عنكم ببعيد، فيصيبكم ما أصابهم من القتل والسبي للذرية والنساء وحرق المدن والتشريد، فاتقوا الله وخافوا من غضبه إن أنتم فررتم من حرب التتار، واعلموا أن الدنيا زائلة وأن الموت حق، وأن لقاء

الله حق، فاختاروا لأنفسكم، فإني قد اخترت ما عند الله، والله يعلم ما في نفسي، اللهم إني قد أعذرت إليك فانصرونا على التتار يا الله.

عندها ضج الأمراء والجنود بالبكاء وتحالفوا على صدق النية في الجهاد، واحتضنوا بعضهم البعض فرموا هذا آخر العهد ببعضهم البعض في الدنيا وأخلصوا العزم على حرب وكسر التتار.

ذهب السلطان قطز إلى خيمته ولبس درعه ووضع خوذته على رأسه وأخذ سيفه وقد تهيأ في عدة الحرب، ثم خرج فوجد جميع الأمراء قد تأهبوا مثله ففرح وشكر الله ثم نادى على حصانه فأتي به فركبه على عجل، فقد وصلته الأنباء بحركة الجيش التتري نحو معسكره فنادى بالتعبئة وتحرك نحو الوادي وبجانبه رفيقه وغريمه في نفس الوقت الأمير بيبرس البندقداري، فهذا وقت تنسى فيه الأحقاد والضغائن فهناك خطر أكبر من تنافسهم على الحكم والسلطان، خطر يهدد الإسلام والمسلمين.

في أرض المعركة:

في عين جالوت وفي قلب الوادي الفسيح قامت المعركة الكبرى بين المماليك والتتار، احتدم الجيشان في القتال وأخذت السيوف والرماح تقطع وتخترق الدروع فتصل إلى الهامات، وتساقط الكثير في أرض المعركة وعلا الغبار فتحول النهار إلى ليل، ولمعت السيوف كأنها شهب تتساقط على رؤوس القوم فلا يدرى من القاتل ومن المقتول، ولكن حدث أمر كاد أن يكون كارثة:

الأمير سنقر الرومي للسلطان: قد تمكن التتار من كسر ميصرتنا، فولى

الجنود وجوههم في كل وجه!

السلطان: ماذا ؟

فانتفض السلطان كالأسد على حصانه متوجها إلى قلب المعركة معرضا حياته للخطر، فألقى بخوذته عن رأسه إلى الأرض صارخا بأعلى صوته ليسمع جنوده: «والإسلاماه» ثم حمل بنفسه ومعه بيبرس البندقداري ومن معهم من الذين صدقوا الجهاد حملة صادقة على التتار، فأنزل الله نصره على المسلمين.

كتبغا لا يصدق ما يراه: ما الذي يحدث كيف تمكن المماليك من تجميع أنفسهم مرة أخرى ألم نكسر جناحهم الأيسر.

بيدرا: لقد خدعنا صارم الدين أزيك، ما أن حمي وطييس المعركة حتى انسحب بجنوده من ساحة القتال ومعه الملك الأشرف تاركا ظهورنا مكشوفة للمصريين.

وفي أثناء القتال وكل مشغول بنفسه، قام الغلام التتري الذي أبقى السلطان قطز على حياته ولم يقتله مع الرسل، ومن عليه بأن ضمه إلى جملة مماليكه ولكن الغلام قد أسر في نفسه قتل السلطان في أثناء القتال ويهرب بعد ذلك إلى التتار، فأخذ يتحين الفرصة حتى وافته، فالسلطان يضرب بسيفه يمينه ويسرة والغلام خلفه مطمئنا له، وهنا جلس الغلام على ركبته وجهز سهمه نحو السلطان وهنا صرخ أحد أمراء المماليك:

الأمير فخر الدين ماما: خلفك أيها السلطان، الغلام أقتلوه.

الغلام التتري: لن ينقذك أحد من يا قطز، ثم رمى بسهمه فأخطأ السلطان ولكنه أصاب فرسه فسقط الحصان صريعا.

وهجم على الغلام بعض المماليك فقتلوه بسيوفهم وهو في مكانه، وحمل الله السلطان من القتل، ووقف السلطان على قدميه وظل يقتال راجلا، ولحقه الأمير فخر الدين ماما بفرسه ونزل عنه:

فخر الدين ماما للسلطان: اركب فرسي يا مولانا السلطان، لا يصح أن تقاتل راجلا.

السلطان قطز: وأنت يا فخر الدين ؟

فخر الدين ماما: ها هي ذي الجنائب قد أتت سأركب إحداها فلا تخشى علي.

واستمر القتال حتى مغيب الشمس، وقتل كتبغا في ساحة المعركة وأسر ابنه وأخذ المماليك يثخنون القتل في التتار الذين أخذوا يهربون في الوادي منحازين في الأعالي هربا من القتل والأسر غير مصدقين أنهم قد هزموا فعلا، فقد كانت عين جالوت أول هزائمهم وليست آخرها، فقد أخذ المماليك يتبعونهم في كل مدينة وبلد يقتلونهم ويطردونهم منها.

وبعد أن انتهت المعركة أتوا إلى السلطان المظفر سيف الدين قطز بابن كتبغا، وذلك لكي يسأله عن أبيه فقد أخبره المماليك أن قائد

التتار قد هرب مع من هرب، فسأله:

السلطان لابن كتبغا ساخرا: أبوك هرب ؟

ابن كتبغا: لا، أبي ما يهرب أبصروه في القتلى.

السلطان المظفر: القتلى كثير، كيف نميز أبيك عنهم ؟

ابن كتبغا: تعرفوه من لحيته، فأبي لحيته شعرات يسيرة في حنكه مضفورة دبوقة لطولها.

فأمر السلطان مماليكه أن يقوموا بالبحث عن جثة كتبغا ويأتونه بها، فبحثوا عنها في القتلى، ثم أحضروا رؤوسا كثيرة وكانت رأس كتبغا في جملتها، فلما رآه ابنه بكى، وقال ابن كتبغا للسلطان المظفر: نام طيبا ما بقي لك عدو تخافه، هذا كان سعادة التتر، وبه يهزمون الجيوش ويفتحون الحصون. ١١

وهنا استبشر السلطان قطز وبشر أمراءه المماليك بقرب نهاية التتار وأن الله قد عجل بزوالهم وأن النصر بجانبهم.

والجدير بالذكر أن التتار قد جمعوا أنفسهم مرة أخرى لقتال المماليك قرب مدينة بيسان، وكانوا أعظم عددا وعدة وتكرر مع السلطان قطز ما حدث في عين جالوت فقد كاد أن يهزم جيشه فنزل من على فرسه وصرخ صرخة عظيمة سمعه معظم العسكر وهو يقول:

١١ - والذي قتل القائد التتري كتبغا نوين هو الأمير جمال الدين آقوش الشمسي - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٧٩.

- دار النهضة العربية للنشر والتوزيع - بيروت - ص ١٦٤ و ص ١٦٥.

والإسلاماه! كررها ثلاث مرات، ثم قال: يا الله! انصر عبدك قطز على التتار، فحمل المسلمون على التتار فكسروهم كسرة عظيمة، فنزل السلطان المظفر سيف الدين قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ثم ركب فرسه، وانتهت المعركة بنصر حاسم للمماليك وكثرت الغنائم بأيديهم. ١٢

وكان لنصر المماليك في عين جالوت أبعاد سياسية مهمة، فقد أصبحت دولة المماليك حامية الإسلام فبعد أن كان ينظر إلى المماليك على أنهم سرقوا الحكم من الأيوبيين أصبحوا حماة الإسلام وأما الأيوبيون فلم تقم لهم قائمة فقد انهزموا أمام التتار بل وتحالفوا معهم خوفا على عروشهم وحياتهم، فكان المماليك القوة الوحيدة التي واجهت التتار بل وانتصروا عليهم، وتوالت انتصارات المماليك على التتار حتى تمكنوا من طردهم من بلاد الشام كلها، وتمكن السلطان المظفر قطز من الاستيلاء على جميع بلاد الشام حتى نهر الفرات وجعلها تحت سلطان المماليك، فتوحدت بلاد الإسلام مرة أخرى تحت حكم سلطنة المماليك.

اغتيال السلطان المظفر قطز سنة (٦٥٨هـ):

بعد الانتصار العظيم الذي حققه السلطان المظفر قطز على التتار دخل بلاد الشام وقام بتعيين الولاة والنواب على مدنها وبلادها ورتب أحوالها بعد الخراب الذي حل بها، ثم خرج من دمشق يوم الثلاثاء ١٦ شوال يريد السفر إلى مصر بعدما كان يريد السفر إلى حلب، وذلك لوصول أنباء إليه تفيد أن الأمير بيبرس البندقداري يريد به الشر، وكان سبب في ذلك أن بيبرس كان قد طلب من المظفر قطز أن يولييه نيابة حلب فرفض السلطان

١٢ - المقريزي - تقس الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٢٩ وص ٤٣٠ وص ٤٣١.

طلبه وقام بتعيين الملك السعيد بدر الدين لؤلؤ والذي كان موقف مشرف، فقد رفض أن يكون تابعا لهولاكو والتتار ويترك بلده ومقر حكمه مدينة الموصل، فكافأه السلطان بأن أعطاه نياة حلب حتى يتمكن من رصد حركات التتار ويصدhem عند اللزوم.

ولما علم بيبرس بهذا الأمر عزم على التخلص من السلطان لهذا السبب وللعداوة القديمة التي كان بينهما في الماضي، وكان بيبرس قد حدث برغبته من التخلص من قطز كلا من «الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزي، والأمير بيدغان الركني، والأمير بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين الأصبهاني»

وسافر السلطان قطز والجيش معه والأمراء وهو في غاية الحذر والحرص من تحركات بيبرس، إلى أن وصل إلى جهة الصالحية فرغب هناك في الصيد ووافق الأمراء على رغبته تلك، فلما انتهى من الصيد أراد أن يعود إلى الدهليز السلطاني قام بيبرس بإيقافه متظاهرا أنه يريد منه أن يهديه امرأة من سبي التتار، فأنعم السلطان بها عليه، وأخذ بيبرس بيد المظفر ليقبلها وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها بينه وبين الأمراء للانقضاض على السلطان، فانقض عليه الأمير بدر الدين بكتوت بسيفه فضربه على عاتقه، واختطفه الأمير لأنس فألقاه من على فرسه، ورماه الأمير بهادر المعزي بسهم فمات من فوره، فكان قتل السلطان العظيم داحر التتار يوم السبت ١٥ من ذي القعدة، ودفن بالقصير فكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما.

وحمل المظفر بعد ذلك من القصير إلى القاهرة ودفن قريب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل تعمير، ثم نقله بعد ذلك الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريب من زاوية ابن عبود، وكان أهل القاهرة قد زينوها لقدم المظفر قطز، وكانوا في فرح وسرور لهزيمة التتار، فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس: «ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس» ثم في آخر النهار نادى المنادي مرة أخرى

بالدعاء للملك الظاهر - بعد أن غير لقبه القاهر - فاغتم الناس لسماع ذلك. ١٣

٤- السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سنة (٦٥٨هـ - ٦٧٦هـ): ١٤

تسلطن بعد مقتل السلطان المظفر سيف الدين قطز، وتلقب أولاً بالقاهر ولكن وزيره زين الدين يعقوب بن الزبير أشار عليه بتغييره، فما تلقب به أحد إلا وكان وبالا عليه فسمع لنصحه وأبقى على لقب الظاهر.

وقد أكمل حركة الجهاد ضد التتار والصليبيين في وقت واحد، وقام بعدة إصلاحات في الدولة، وأخمد الثورات التي قامت على دولة المماليك وهي:



الظاهر بيبرس البندقداري

-
- ١٣ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - جزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٣٤ و ص ٤٣٥ و ص ٤٣٧.
- ١٤ - الأتابكي - جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي - مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة - تحقيق ودراسة وتعليق أ.د. نبيل محمد عبد العزيز أحمد - المجلد الثاني - الطبعة الثانية (١٤٣٣هـ / ٢٠١٣م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٣٣ و ص ٣٤.

أولاً: القضاء على ثورة الكوراني الشيعي بالقاهرة:

وقد قامت هذه الثورة في أواخر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م والذي قام بها رجل شيعي خبيث ادعى الولاية والورع وسكن قبة الجبل، فالتف حوله مجموعة من السودان والركبدارية ١٥ والغلمان ١٦ فقاموا بشق شوارع القاهرة ليلاً وهم ينادون «يا آل علي!» وفتحوا دكاكين السيوفيين التي توجد بين القصرين وأخذوا منها السلاح، ثم اقتحموا إصطبلات الأجناد وأخذوا منها الخيول، وهنا قام بيبرس بإرسال الجنود والفرسان فأحاطوا بالشوار وربطوهم، فأصبح الناس ووجدوهم مصلوبين جميعاً ومعهم الكوراني على باب زويلة، وهكذا تم القضاء على هذه الثورة الداخلية بكل حزم. ١٧

ثانياً: إحيائه للخلافة العباسية بالقاهرة:

وهي من أعظم منجزات دولة المماليك على الإطلاق، فقد كان الظاهر بيبرس بعيد النظر فقد كانت دولة المماليك دولة ناهضة تحتاج لدعم ديني إضافة إلى الدعم السياسي وقد أتته الفرصة على طبق من ذهب عندما علم بنجاة أحد أفراد البيت العباسي من مذبحه بغداد، وهو الأمير أحمد أبو القاسم والذي كان مقيم عند قبائل عرب بني مهنا فلما سمع بتسلط بيبرس على مصر وفد عليه ومعه بعض أمراء العرب، وقد وصول

١٥ - هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في المواكب العظيمة.

١٦ - وهم من يقومون بخدمة الخيل ثم أطلق على المماليك الصغار وأرباب الخدم صغار السن.

١٧ - المقرئ - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٤٠.

إلى القاهرة في الثامن من شهر رجب من ٦٥٩هـ/١٢٦١م وقد لقبه الظاهر ببيبرس بالمستنصر بالله، وقام بتجهيز الخليفة بعسكر قليل وأعطاه مال كثير وذلك لما علم أنه يرغب في العودة إلى عاصمة آبائه بغداد، والتحم الخليفة مع التتار في معركة غير متكافئة انتهت بهزيمة عسكرة واختفاء الخليفة ولم يعلم له خبر. ١٨

وكان ممن خرج مع الخليفة المستنصر أحد أفراد البيت العباسي ويدعى الإمام الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد، وقد وصل إلى القاهرة في ١٧ ربيع الثاني سنة ٦٦٠هـ/مارس ١٢٦٢م وقد احتفل بوصوله السلطان الظاهر ببيبرس وأنزله في البرج الكبير بقلعة الجبل وتم إثبات نسبه في مجلس عام احتوى العلماء والفقهاء وكبار الحل والعقد بالدولة، وبإثبات نسبه تم مبايعته خليفة للمسلمين بعد أن ظل منصب الخلافة فارغا لمدة ثلاثة أعوام كاملة، وجعل ببيبرس مقر الخلافة الجديد مدينة القاهرة لكي يحقق أهدافه هي:

١- أن يكون الخليفة العباسي تحت ناظره فيأمن جانبه، وبالتالي لا يشكل خطرا على دولته.

٢- أن تكتسب دولة المماليك سلطة روحية دينية وسياسية، فتكون لها الزعامة على العالم الإسلامي.

وقد تم للظاهر ببيبرس ما أراد فأصبحت دولة المماليك هي قائدة العالم الإسلامي وحامية السلام والخلافة. *هزيمة التتار عند مدينة حمص وحلب سنة (٦٥٩هـ):

١٨ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٠٩ وص ١١٧.

بعد هزيمة التتار في موقعة عين جالوت الشهيرة ومقتل قائدهم كتبغا تمكن بيدرا مساعد كتبغا بالفرار بمن تبقى من التتار إلى بغداد، ولما علموا بمقتل السلطان سيف الدين قطز أرادوا أن يعاودوا الكرة على بلاد المسلمين فقام بيدرا بالهجوم على مدينة ألبيرة فهدموا أسوارها فقام الملك السعيد ابن صاحب الموصل بإرسال قائده سابق الدين لصد هجوم بيدرا على المدينة، والتقى الجمعان في عمق ألبيرة وهزم عسكر المسلمين هزيمة قبيحة وفر سابق الدين ومن تبقى من جنوده، فتقدم بيدرا بجيشه إلى ناحية منبج ومنها إلى مدينة حلب فدخلوها وقاموا بقتل أهلها، ثم توجهوا إلى مدينة حماة كل ذلك وعساكر المسلمين تفر من أمامهم ثم اجتمعت كلمة التتار على مهاجمة حلب وكانوا في ستة آلاف فارس ولم يبق أمامهم سوى مدينة دمشق، وهنا خرج لهم الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص ومعهم القائد الجوكندري العزيزي ومعه عسكر حلب، فحملوا على التتار حملة صادقة فهزموهم وأحدثوا في التتار مقتلة عظيمة وتمكن قائد التتار بيدرا من الهرب في نفر يسير وكانت تلك الوقعة عند قبر الصحابي الجليل خالد بن الوليد عند مدينة الرستن وهي بلدة تقع بين حلب وحماة، وكانت هذه الوقعة في أوائل المحرم سنة ٦٥٩هـ.

ولما عادت التتار إلى مدينة حلب فعلوا القبائح بأهلها، فقام السلطان الظاهر بيبرس بتجهيز جيش إلى مدينة حلب فتمكنوا من هزيمة التتار واخراجهم على أقبح صورة، وبهذا لم يعد للتتار أمل في الهجوم على حدود الدول الإسلامية مرة أخرى وأصابهم اليأس من تحقيق أي انتصار على المماليك. ١٩

١٩ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٠٧ وص ١٠٩.

رابعاً: المحالفات التي عقدها السلطان الظاهر لتقوية دعائم سلطنته:

أولاً: المحالفات مع الدول الأوروبية:

١- الحلف مع امبراطور الدولة الغربية منفرد بن فردريك الثاني سنة (٦٥٩هـ):

فقد أرسل له هدية فيها عدد من الزرافات، وأسرى من موقعة عين جالوت من التتار مع خيولهم وأسلحتهم، وكان رسول الظاهر بيبرس هو المؤرخ جمال بن واصل الحموي، فأكرمهم الإمبراطور غاية الإكرام.

٢- الحلف مع ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالعلم سنة (٦٥٩هـ):

فقد أرسل ألفونسو العالم هذا إلى السلطان الظاهر هدية عبارة عن مجموعة من الخيول العربية الأصيلة في سنة ٦٥٩هـ، وقد قام الظاهر برد على هدية ملك قشتالة فيها زرافة، وشن فيل، وتمساح محنط علق على مدخل الباب الشرقي لكاتدرائية أشبيلية، ويقال أن السلطان الظاهر طلب من الزواج من ابنة الملك ولكن طلبه لم يحقق.

٣- الحلف مع امبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن باليولوج سنة (٦٦٠هـ):

فقد أرسل إليه برطيركا من الطائفة الملكانية اسمه الرشيد الكحال، وذلك لكي يشرف على طائفة الملكانيين في امبراطوريته بناء على طلبه هو، وأرسل معه الأمير فارس الدين أقوش المسعودي فلما وصل أكرمه الإمبراطور، وقام الأمير فارس الدين برؤية تجديدات المسجد التي قام بها الإمبراطور الموجود في بيزنطة لكي يصلي فيه المسلمون، فأمر السلطان بفرش المسجد بالحصير والسجاجيد والقناديل المذهبة وغيرها.

ثانياً: المحالفات مع الدول الإسلامية المجاورة:

١- الحلف مع قان القبيلة الذهبية بركة خان سنة (٦٥٩هـ):

ويعرفون أيضاً باسم مغول القفجاق، وبركة خان أول من اعتنق الإسلام من التتار وتمكن من تكوين إمبراطورية تمتد من تركستان شرقاً إلى البحر الأسود شمالاً، وكانت عاصمة دولته هي مدينة صراي والتي تقع في شمال غرب بحر قزوين، وأرسل له الظاهر العديد من السفارات والهدايا كما أنه تزوج من ابنة بركة خان، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة.

٢- الحلف مع سلطان السلاجقة عز الدين كيكافوس بن خسرو سنة (٦٦٠هـ):

فقد كان كيكافوس بن خسرو في حرب ضد جبهتين هما، أخيه ركن الدين قلج أرسلان، وهولاكو خان، فقد كان كلاهما يطمعون في مد نفوذهما في منطقة الأناضول على حساب السلطان كيكافوس، ولهذا تحالف مع السلطان الظاهر والذي وعده بإرسال الجنود والعساكر إلى دمشق وحلب لنصرته على أخيه والتتار معاً. ٢٠

ونرى أن غرض الظاهر بيبرس من عقد كل هذه المحالفات مع جيرانه من الدول الأوروبية والإسلامية هي حماية حدود دولته من جهتي الشرق والغرب من هجمات التتار من جهة، ومن هجمات الإمارات الصليبية من جهة أخرى، وقد أثمرت هذه المحالفات نتائجها المرجوة من تدعيم دولة المماليك الأولى وتقوية نفوذها.

٢٠ - العبادي - الدكتور أحمد مختار - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - طبعة (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) - در النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ص ٢٠٢ إلى ص ٢٠٦.

خامسا: تطوير السلطان الحصون والقلاع والأسطول والجيش:

أولا: تحصين وحماية حدود البلاد الإسلامية:

فقد اهتم السلطان بيبرس بترميم تحصين البلاد من هجمات التتار والصليبيين على حد سواء فقام بالآتي:

١- عمارة القلاع والأبراج التي خربها التتار:

فقد أمر الظاهر بيبرس نوابه على البلاد الشامية والحلبية في سنة ٦٦١هـ بعمارة جميع القلاع التي هدمها وخربها التتار والممتدة من مدينة حمص إلى مدينة حوران، وقام بملئها بالموءن والذخيرة والرجال، وأقام خطا محصنا من شرق الأردن إلى نهر العاصي، وفي سنة ٦٦٢هـ أمر بتجديد القلاع التي على الحدود الفراتية وأهمها قلعة ألبيرة وأرسل إليها السلاح والذخيرة من مصر والشام، وأمر أيضا بإقامة أبراج على طول حدود الدولة المجاورة لحدود الإمارات الصليبية، وذلك لتأمين طرق السفر والتجارة من هجمات الفرنج.

٢- إقامة المنائر على حدود الدولة:

وكان لهذه المنائر وظيفتان، الأولى للمراقبة فقد جعل على حراس ليل ونهار لمراقبة تحركات التتار من جهة البر أو تحركات الفرنج من جهة البحر، والثانية انذار المرابطين داخل المدن عند قدوم الخطر، ففي النهار يثيرون الدخان، وفي الليل يشعلون النار ويقومون بإرسال اشارات يفهمها الجنود المرابطة.

٣- استخدام سياسة الأرض المحروقة وردم مياه النيل:

فقد أمر نوابه بحلب سنة ٦٦٠هـ بعملية احراق المروج والأعشاب والتي كانت ممتدة من مدينة آمد إلى مدينة خلاط وهي تقدر بمسيرة عشرة أيام كاملة، وقد استخدم لتحقيق ذلك القداحات والصوفات وأدوات النار، فقد كان التتار يستخدمون هذه المروج والأعشاب كطعام وعلف لخيولهم من غير جهد منهم ولا تعب ولا مشقة، فحرمهم بذلك من أهم ميزة ألا وهي طعام الخيول والبغال التي معهم.

وفي مصر أمر بردم مصب نهر النيل عند مدينة دمياط ورمى فيه الصخور العظيمة ليمنع بذلك مرور سفن الصليبيين، وأمر بتشييد برجاً للمراقبة في مدينة رشيد، وأمر بتعمير أسوار الإسكندرية وجدد منارها.

ثانياً: تطوير نظام البريد في الدولة:

فقد أقام مركز عمليات رئيسي في السلطنة مقره في قلعة الجبل مقر الحكم ومنه تفرعت شبكات البريد السريع على طول البلاد وعرضها جواً وبراً، وقد أنفق لتحقيق ذلك الأموال الطائلة، وأعد خيولاً مخصصة لنقل البريد، واختار من الرجال ذوي الكفاءة والأمانة لأداء الرسائل المكتوبة والشفهية، ولم يكن مسموح أن تتركب خيول البريد إلا بمرسوم سلطاني، وأيضاً زود مراكز البريد هذه بكل ما تحتاجه من زاد ومياه وجعلها قريبة من القرى والمدن حتى يسهل حصول أصحاب البريد على ما يحتاجونه من طعام وزاد، وبفضل هذه التطويرات الهامة في نظام البريد أصبحت الرسائل تنتقل من القاهرة إلى دمشق في ثلاثة أيام فقط، وكانت جميع الرسائل التي تأتي من النواب والولاة في بلاد الشام إلى مصر من خلال هذا النظام الفريد، وكان نظام البريد تحت سلطة وإشراف صاحب ديوان الإنشاء.

ثالثا: تطوير الأسطول والجيش:

وأما عن الأسطول فقد أمر الظاهر بإنشاء مصانع لتصنيع السفن الحربية لمواجهة السفن الصليبية من جهة البحر، فبنيت هذه المصانع في كلا من «الفسطاط، وجزيرة الروضة، والإسكندرية، ودمياط» وكان يشرف بنفسه على بناء هذه السفن، ومن أجل ذلك قام بإصدار مرسوم سلطاني باحتكار خشب السنت الذي تصنع منه السفن، فكان الظاهر هو المؤسس للأسطول البحري بحق في دولة المماليك.

وأما الجيش البري فقد أدخل فيه تعديلات مهمة، وقام بتقسيمه إلى فرق وأنواع هي:

١- العشائر العربية: فقد قام في سنة ٦٥٩هـ بتجنيد التي كانت تقيم على حدود الفرات وأهم عرب خفاجة، فقد أمدهم بالمال والسلاح شجعهم على حرب التتار، وقد قاموا بمهتهم هذه على أحسن وجه.

٢- المماليك الجلبان أو السلطانية: فقد أكثر الظاهر من شراء و جلب المماليك من جهات القفجاق ومن غيرها من البلاد البعيدة ورباهم لكي يكونوا من ممالكه، وكانوا تحت إشرافه المباشر.

٣- جند الحلقة: وهم من أبناء المماليك والذين عرفوا بين أبناء الشعب المصري باسم أولاد الناس، فقد احترفوا الجندية وكانوا على عكس المماليك أحرار وليسوا أرقاء، وكانوا هم الغالبية العظمى من الجيش، فكانوا أهل حرب وقتال في وقت الحرب، وأصحاب حرف وصنائع أيام السلم، وكان لكل أربعين منهم مقدم في وقت الحرب فقط.

٤- ممالك الأمراء: وهم المماليك التابعين لأمرائهم الذين قاموا بشرائهم وتربيتهم، وهم الذين يكونون وحدات الجيش وفرقه المحاربة.

وبقي الآن أن نتكلم على حركات الجهاد والفتوح التي قام بها هذا السلطان العظيم.

سادسا: جهاد الظاهر ببيرس ضد الصليبيين:

استأنف السلطان الظاهر حركة الجهاد ضد صليبي الشام وقد عزم على طرد الصليبيين من جميع البلاد الإسلامية المتبقية تحت احتلالهم، وقد تمكن من تحقيق الجزء الأكبر من حلمه، ولكنه مات قبل أن يتمه.

١- الاستيلاء على عدة حصون من الفرنج سنة (٦٦٤هـ):

وفي هذه السنة توجه السلطان إلى الساحل من أجل الغارة على حصون الصليبيين، فوصل إلى عين جالوت وأرسل العساكر إلى مدينة حمص، فأغاروا على الفرنج ونزلوا على حصن الأكراد وأخذوا قلعة عرقة حلباء والقليعات وهدموها، وكثرت الغارات على مدن الفرنجة مثل صور وصيداء وطرابلس حتى وصلت إلى أرسوف، فكثرت الغنائم في أيدي المسلمين. ٢٢

٢- فتح مدينة صفد سنة (٦٦٤هـ):

وفي يوم ٨ رمضان من هذه السنة نزل السلطان على مدينة صفد فنصب عليها المجانيق وحاصر المدينة ودام هذا الحصار إلى مستهل شهر شوال، فتمكنت آلات الحصار من أحداث نقوب في جميع جهات صور المدينة وفي

٢٢ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - دار الكتب والوثائق القومية - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٥٤٥.

يوم ١٥ من شوال ملك السلطان المدينة فطلب أهل القلعة الأمان ودخل جنود السلطان القلعة في يوم ١٨ من الشهر نفسه وأجلى الصليبيين منها وعمر القلعة وحصنها وأعاد إليها شعار الإسلام مرة أخرى. ٢٣

٣- فتح هونين وتبنين والرملة سنة (٦٦٤هـ):

وفي شهر ذي القعدة تحركت جيوش السلطان إلى عدة بلاد فتمكنت جيوشه من الاستيلاء على هونين - بلد في جبال عاملة قرب بانياس - وتبنين وعلى مدينة الرملة فعمروها وصير لها عملا وولى فيها العمال. ٢٤

٤- الحرب مع مملكة أرمينية المسيحية وفتح بلاد سيس سنة (٦٦٤هـ):

وفيهما أمر السلطان الظاهر جنوده بالإغارة على بلاد سيس عاصمة أرمينيا الصغرى بقلقية، وجعل القيادة عليهم للملك المنصور صاحب حماة وتجبر الأمور إلى الأمير آق سنقر الفارقاني، ولما وصلت العساكر مكان يعرف بالدريند وهو بواية الدخول إلى بلاد سيس وجدوا أن صاحبها قد بنى عليها أبراجا وجعل عليها المقاتلة من الفرسان فلما رأوا عسكر السلطان الظاهر ولوا هاربين فقام المسلمون بهدمها، ودخلت عساكر وجنود السلطان إلى بلاد سيس فنهبوها وأسروا منهم الكثير من ضمنهم ابن صاحب سيس وابن أخته وجماعة من كبار دولته وكان دخولهم المدينة يوم ١٢ من ذي القعدة وأخذوا منها ما لا يحصى من الغنائم ثم عادوا قافلين إلى مدينة دمشق، وهناك تلقاهم السلطان بنفسه في ٢ من ذي الحجة بالاحتفاء والفرح.

٢٣- المصدر السابق - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ص ١٣٨.

٢٤ - المصدر السابق - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - ص ٥٥٠.

٥- فتح قارة سنة (٦٦٤هـ):

وفي ٦ من ذي الحجة توجه السلطان إلى قارة وهي قرية كبيرة بين دمشق وحلب، وكان مجموعة من الفرنج يقطعون الطريق ويأسرون من مر بهم من المسلمين فأمر السلطان بنهبها فنهبت وبقتل من فيها من الفرنج فقتلوا، وجعل كنيسها جامعا وجعل له خطيبا وقاضيا للقرية، ونقل المسلمين إلى القرية لكي يكونوا أهلها. ٢٥

٦- فتح مدينة يافا سنة (٦٦٦هـ):

خرج السلطان في السابع من جمادى الآخرة قاصدا يافا وقد وردته رسل صاحبها في الطريق فاعتقلهم وأمر العسكر بلبس آلة الحرب ليلا وساروا مسرعين فأصبحوا أمام المدينة، وحاصرها فهرب عندها من كان بها من الفرنج إلى داخل القلعة، وملك الظاهر المدينة وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم وعوضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، وسمح لهم بمغادرة المدينة فركبوا المراكب وتوجهوا إلى مدينة عكا.

٧- فتح حصن الشقيف سنة (٦٦٦هـ):

وقد حاصرها الظاهر بيبرس بنفسه فنزل عليها يوم الأربعاء ١٩ من رجب، ونصب عليها ٢٦ منجنيقا وألح عليها حتى أخذها يوم الأحد سلخ

شهر رجب، وقد أخذها بالحيلة فقد وصل أولا يوم الثلاثاء يوم ١٨ من رجب وقد تمكنت جنوده من الوقوع على أحد كتب الفرنج الذين بعكا وفيها تحذيرهم من تسليم الحصن وأن المسلمين لا يقدرّون على دخوله، فاستدعى السلطان من يعرف الفرنجية وأمره بأن يكتب كتابا يذكر فيه أمارات بين أهل حصن شقيف وأهل عكا، ويحذر المكمندور - الكمندور - وهو المقدم عند الفرنج من الوزير كليام وجماعة كانوا مقيمين في الحصن، وأرسل كتابا آخر إلى الوزير كليام يحذره من المكمندور ويأمره إن احتاج إلى المال أن يأخذه من ملك كان اسمه في الكتاب الأصلي، ثم أوصل الكتاب إلى الطرفين بالحيلة، فلما وقف الفريقين على الكتب وقع الخلاف بينهما ومع شدة الحصار اضطروا إلى السير إلى السلطان الظاهر وقرروا تسليم الحصن له على شرط ألا يقتل من فيه، فتسلم السلطان الحصن في يوم ٢٩ من رجب، وكان قد ملك الباشورة بالسيف واصطنع المكمندور وكان عدة من بالحصن ٤٨٠ مقاتلا فأركبهم الجمال ورحلهم إلى صور وبعث معهم من يحفظهم ولم يتعرض للنساء والأطفال، وهدم السلطان قلعة هناك كان قد بناها الفرنج. ٢٦

٨- الغارة على طرابلس سنة (٦٦٦هـ):

وبعد فتح حصن الشقيف توجه السلطان الظاهر إلى طرابلس في نصف الشهر من شعبان لهذه السنة، فحضر الخيام وقامت قواته بعمليات مناوشة مع أهل المدينة فتمكنت جنوده من أخذ برجاً من أبراج المدينة وأمر بضرب أعناق الجنود الذين كانوا فيه، ثم أمر العساكر بشن الغارات على القرى التي في الجبال فغنموا وأسروا الكثير من الصليبيين.

٢٦ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي - كتاب السلوك المعرفي دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى أستاذ تاريخ العصور الوسطى - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٥٦٥ وهامش ص ٥٦٦ وص ٥٦٦.

٩- فتح مدينة أنطاكية وما حولها من المدن والحصون سنة (٦٦٦هـ):

وقام السلطان بعد ذلك بالنزول في مدينة حماة وقسم عساكره إلى ثلاث فرق وهي كالآتي:

١- فرقة بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار وقد أغارت على السويدية وهي ميناء وحصن لمدينة أنطاكية.

٢- فرقة بقيادة الأمير عز الدين إيغان وقد أغارت على درب بساك.

٣- الفرقة الأخيرة كانت مع السلطان وقد نزل على أفامية.

وقد أسرت هذه الفرق وغنمت الكثير، ثم وافوا جميعا السلطان بعد ذلك عند مدينة أنطاكية، وقد بدأ السلطان الهجوم على أنطاكية في أول شهر رمضان، فطوقوا المدينة من جميع جوانبها وأبوابها في يوم ٣ من رمضان، وقد بعث السلطان إلى الفرنج ينذرهم الحرب وفاوضهم على التسليم لمدة ثلاثة أيام وهم لا يردون عليه بشيء، فزحف على المدينة وقاتل أهلها قتالا شديدا وتسور الجنود الصور من جهة الجبل بالقرب من القلعة وتمكنوا من النزول إلى المدينة ففر أهلها إلى القلعة، فوقع النهب والسلب والقتل والأسر في المدينة، وأحاط أمراء السلطان بأبواب المدينة حتى لا يتمكن أحد من الفرار، وكان بالقلعة حوالي ثمانية آلاف مقاتل غير النساء والأطفال فطلبوا الأمان من السلطان فأمنهم، وصعد السلطان إليهم ومعه الحبال فكتفوا وفرقوا على الأمراء والكتاب بين يدي السلطان يكتبون الأسماء. ٢٧

١٠- تسلم عدة حصون في سنة (٦٦٦هـ):

وقد تسلم رجال السلطان من أمراء الفرنجة عدة حصون أهمها:

١- قلاع بهسنا ودربساك ورمزبان ورعبان وسح الحديد: وكانت كلها قلاع تابعة لمملكة حلب، وذلك بأن يتنازل عنها الملك التكفور هيتوم ملك سيس مقابل أن يطلق السلطان الظاهر ولده وابن أخيه وغلماهما، وأن يحضر رهينة حتى يتسلم السلطان القلاع المذكورة، وكتبت الهدنة بذلك في مدينة أنطاكية.

٢- حصن برغاس: وقد تسلم الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني أستاذار السلطان هذا الحصن من فرسان الداوية - فرسان الهيكل - والذين قد فروا منها وتركوا الحصن فارغا ولم يوجد فيه سوى عجوز واحدة، وكان الحصن عامر بالحواصل والذخائر. ٢٨

١١- موقعة مرج عين البرغوث سنة (٦٦٨هـ):

وفي هذه السنة خرج السلطان على هيئة الصيد في هذا المرج، وبعث من أحضر له العدد والعساكر من الشام، وكل ذلك سببه أن الفرنج بعثوا إلى ملك التتار أبغا بن هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة مدينة سيس في سفن كثيرة، ولكن هذه السفن قد غرق الكثير منها بسبب الرياح والباقي لم يعرف له خبر، أما الفرنج فقد خرجوا من عكا منتظرين السفن القادمة من فرنجة الغرب، بل وبدأوا في التوجه لمحاربة المسلمين

ولهذا خرج إليهم السلطان فلما تكاملت عسكر السلطان الظاهر سار بهم إلى جسر يعقوب فوصل إليه آخر النهار، ثم سار بهم بالليل فأصبح في أول المرح وقد أمر السلطان أن تغير العساكر على الفرنجة فإذا برز لهم الفرنجة انهزموا منهم وكانت هذه هي الخطة المعتمدة، ثم دخل السلطان كمين قد أعده الفرنجة له فخرجوا عليه فتصدت لهم عساكر السلطان ومعهم مقدموا جنود الحلقة، ثم تبعهم السلطان وقد انكسر العدو وكان مقدم الفرنجة هو كنداوفير المسمى زيتون، وأصبحت الخيالة بخيلها مطرحة في المرح، وأسر السلطان الظاهر الكثير من كبار الفرنجة، وعاد السلطان إلى صفد ورؤوس القتلة بين يديه، ثم دخل مدينة دمشق، ومنها توجه إلى حصن المرقب، ولكن عاقته الأمطار فعاد إلى حماة فأقام بظاهرها حوالي ١٩ يوما، ثم توجه إلى المرقب مرة أخرى ولكنه انتهى إلى قريب من بلاد الإسماعيلية - هي البلاد التي كانت تحت حكم الشيعة الإسماعيلية - ولكن عاقته الأمطار والثلوج فعاد أدراجه مرة أخرى.

١٢- غارة السلطان الظاهر على حصن الأكراد سنة (٦٦٨هـ):

فقد تحرك السلطان في يوم ٣ من جمادى الآخرة في حوالي مائتي فارس من غير سلاح، وأغار على حصن الأكراد وصعد الجبل الذي عليه الأكراد ومعه مقدار أربعين فارسا فقط! فخرج عليه عدة من فرسان الفرنج ملبسين بالسلاح فحمل عليهم السلطان وقتل منهم جماعة وكسر البقية منهم، ففروا من أمامه فتبعهم السلطان حتى وصل إلى خنادقهم ثم قال مستخف بهم: «خلوا الفرنج يخرجوا فما نحن أكثر من أربعين فارسا بأقبية بيض» ثم عاد إلى مخيمه ورعى الخيول في المروج والزروع.

٢٩ - المصدر السابق - ص ٥٨٥ وص ٥٨٦.

٣٠ - المصدر السابق - ص ٥٨٦.

١٣- تسلم السلطان لبلاد مصياف وما حولها سنة (٦٦٨هـ):

وكانت مصياف وما حولها في حوزة الإسماعيلية - طائفة الشيعية الإسماعيلية - وكان أميرهم هو نجم الدين حسن بن الشعراني، فأرسل السلطان نائبه الأمير عز الدين العديمي ومعه الأمير صارم الدين لتسلم مصياف فامتنع أهلها من التسلم وقالوا: «لا نسلمها إلا لنائب السلطان» فأجابهم الأمير العديمي: «أنا نائب السلطان» فلما فتح أهل حصن مصياف الباب هجم عليهم الأمير صارم الدين وقتل من أهل الحصن جماعة، وكان تسليم الحصن في شهر رجب.

١٤- الغارة على طرابلس والاستيلاء على حصن صافيتا سنة (٦٦٩هـ):

حيث خرج السلطان ومعه ابنه الملك السعيد إلى الشام فدخل دمشق في ٨ من رجب، ثم خرج إلى طرابلس فقتل وأسر، ثم واصل الغارات حتى حصن صافيتا وتمكن من تسلم الحصن وأنزل الفرنج من فرقة الداوية - فرسان الهيكل - وكان عددهم سبعمائة رجل سوى النساء والأطفال، وكذلك تسلم الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد.

١٥- استيلاء السلطان على حصن الأكراد سنة (٦٦٩هـ):

وفي يوم ٩ من رجب نازل السلطان حصن الأكراد فنصب عليه المجانيق

وعمل الستائر، وكان لهذا الحصن ثلاثة أسوار فأمر بالزحف على الحصن والقتال عنده الحصن، وفتحت الباشورة الأولى يوم الخميس ٢١ من رجب، وفتحت الثانية يوم السبت ٧ من شعبان، وفتحت الثالثة وهي الملاصقة للقلعة في يوم الأحد ١٥ من شعبان، وكان المتولي لأمر الحصار هو الملك السعيد ابن السلطان، ودخلت العساكر البلد بالسيف وقاموا بأسر من فيه من الجبلية والفلاحين ثم أطلقوهم، فطلب عندها أهل القلعة الأمان من السلطان، فأمنهم السلطان على أن يتوجهوا إلى بلادهم، فتسلم السلطان القلعة من الفرنج يوم الإثنين يوم ٢٣ من شعبان وخرج الفرنج إلى طرابلس. ٣٢

١٦- محاولة السلطان الظاهر بيبرس فتح جزيرة قبرص سنة (٦٦٩هـ):

وفي هذه السنة وأثناء محاصرة السلطان الظاهر لحصن الأكراد علم أن ملك قبرص قد خرج في أسطوله إلى مدينة عكا، فانتهاز السلطان خلو الجزيرة من ملكها وأسطولها فجهز سبعة عشر شينياً - مراكب الحرب - وعليها من الأمراء: «ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية، وشرف الدين علوي بن أبي المجد العسقلاني رئيس دمياط وجمال الدين مكي بن حسون مقدما على الجميع» فوصلوا الجزيرة ليلاً ولكن ضربتهم ريح شديدة مفاجأة أبعدتهم عن مرسى الجزيرة وجعلت المركب تضرب في بعض فغرقت إحدى

٣٢ - المصدر السابق - ص ٥٩١.

- الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٣٦هـ / ٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٥١.

عشر شينيا من جراء تحطمها وأسر من فيها من الرجال وكانوا حوالي ألف وثمانمائة رجل، ولم ينجوا من الأسر والغرق سوى الرئيس ناصر الدين والرئيس ابن حسون في بقية المراكب التي سلمت من الغرق وعادوا إلى موانئ الديار المصرية. ٣٣

١٧- الاستيلاء على حصن عكار سنة (٦٦٩هـ):

وفي ١٧ من رمضان نازل السلطان حصن عكار وهو يقع شمالي مدينة طرابلس على جبل عال، وسبب الاستيلاء عليه أن السلطان قد علم أن صاحب طرابلس قام بعماراته وتجديده، فنصب السلطان المجانيق على الحصن وقتلهم قتالا شديدا، وفي يوم ١٩ من الشهر سأل الفرنج الأمان، ورفعت السناجق - الأعلام - السلطانية على أبراج الحصن، وعيد السلطان في الحصن ثم كتب السلطان إلى ملك طرابلس ينذره بشدة. ٣٤

١٨- الاستيلاء على حصن العليقة من طائفة الإسماعيلية سنة (٦٦٩هـ):

وفي يوم ١١ من شوال استولى السلطان على حصن العليقة وهو من حصون الإسماعيلية واستخدم فيه الرجال ثم حاصر حصن القرين وهو قريب من مدينة صفد وتمكن من دخوله في يوم ٢ من ذي القعدة ثم رحل إلى عكا فلم يخرج له أحد من الفرنجة فرحل إلى مخيمه بالقرين وقام بهدم القلعة يوم ١٤ ذي القعدة.

٣٣ - الكتبي - صلاح الدين محمد بن شاکر - عيون التواريخ - عصر سلاطين المماليك - الجزء الأول - حوادث وتراجم (٦٤٨ / ٦٧٠ هـ) - تحقيق أحمد عبد الستار - مراجعة أ.د. أيمن فؤاد سيد - الطبعة الأولى (١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٧٩.

٣٤ - المصدر السابق - ص ٥٩٢.

١٩- هزيمة التحالف التتاري الصليبي سنة (٦٧٠هـ):

وفي هذه السنة تحالف الصليبيين مع التتار في الإغارة على بلاد المسلمين، فأغار التتار على مدينة عينتاب ثم توجهوا إلى عمق مدينة حارم وكان ذلك في نصف شهر ربيع الأول، فخرج لهم الأمير بيسرى بثلاثة آلاف فارس لمواجهة التتار، وقدم التتار إلى حارم فتأخر العسكر الحلبى حتى وصلت النجيدات، فقد وصل الأمير آقسنقر بالجنود من مدينة جنين، ثم دخل الأمير بيسرى بالعسكر المصري إلى دمشق في يوم ٤ من ربيع الآخر، فخرج السلطان بالعساكر إلى حلب وأمر بتجريد الأمير آقسنقر ومعه عدة من العربان إلى مرعش، وجرد الحاج طيبرس الوزيري والأمير عيسى بن مهنا إلى حران والرها فوصل العسكر إلى حران وتمكنوا من قتل من بها من التتار وهزيمة من تبقى منهم.

وفي تلك الأثناء وردت الأخبار بأن الفرنج قد أغاروا على حصن قاقون وهو حصن من أعمال مدينة قيساريه بمواعدة التتار وقد قتل الأمير حسام الدين أستاذار وجرح الأمير ركن الدين الجالقي ورحل بجكا العلاني والي حصن قاقون، فخرج السلطان من حلب ومنع أحدا أن يتقدم حتى لا يعلم الفرنج بخبره، ثم وصل إلى دمشق ومعه عدد من أسرى التتار من حران، وأمر فसार الأمير أقوش الشمسي بعسكر عين جالوت فلما علم الفرنج بقدوم عسكر السلطان ولوا فارين منهزمين من حصن قاقون فتبعهم العسكر فاسترجعوا من الفرنج عدد من أسرى التركمان قتلوا كثيرا من الفرنج فكان عدد ما تلف من الخيول والبغال الخاصة بالفرنج خمسمائة رأس، وهكذا انتهى الحلف التتاري الصليبي بهزيمة ساحقة لجيوشهما على يد السلطان الظاهر وجنوده.

٣٥ - المصدر السابق - ص ٥٩٣.

٣٦ - المصدر السابق - ص ٦٠٠ و ص ٦٠١.

٢٠- وقعة ألبيرة مع التتار سنة (٦٧١هـ):

وفي يوم ٥ من شهر جمادى الأولى ورد البريد بقدوم التتار ومحاصرتهم لمدينة ألبيرة وأنهم نصبوا المجانيق عليها، وأنهم نزلوا على نهر الفرات وأخذوا مواقعهم تحسبا لأي هجوم عليهم من عسكر السلطان، فقام السلطان بتجهيز الأمير فخر الدين الحمصي بعسكر مصر والشام وأمرهم أن يتوجهوا إلى حارم، وكذلك جهز الأمير علاء الدين الحاج طبرس الوزيري في جماعة أخرى، وأما السلطان فقد رحل من دمشق وقد أخذ مراكب الصيادين مفصولة ومحمولة على الجمال. فلما وصل إلى نهر الفرات ألقى بالمراكب إلى النهر وشحنها بالمقاتلة فتراموا هم والتتار، واقتحم الأمير قلاوون الألفي الصالحي الفرات وخاض معه عدة من الفرسان وصد التتار صدمة قوية فرقهم بها وأحدث فيهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم ما يقرب من مئتي رجل، وكان السلطان الظاهر من الذين اقتحموا النهر في الفوج الأول من الفرسان، فلما نزل الفرات صلى ركعتين شكرا لله تعالى وأخذ يرسل الجنود والعساكر يتبعون التتار يقتلون منهم ويأسرون، وكان على قائد التتار في هذه الوقعة الهائلة القائد درباي من قبل خان التتار أبغا بن هولكو، وبات السلطان وعساكره ليلة الإثنين منتظرين أن يقدم التتار ليحاربوه مرة أخرى فلم يظهر منهم أحد.

٢١- ضم إقليم برقة إلى سلطنة المماليك في سنة (٦٧١هـ):

فقد تمكن السلطان الظاهر بيبرس في هذه السنة من ضم عامة مدن إقليم

٣٧ - المصدر السابق - ص ٦٠٦ وص ٦٠٧ - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٥٨ وص ١٥٩.

برقة وحصونه، وبذلك يكون قد أمن حدود سلطنته من جهة الغرب.

٢٢- فتح قلعة كينوك سنة (٦٧١هـ):

وأیضا في هذه السنة تمكن الأمير حسام الدين لاجين العنتابي من فتح قلعة الكينوك وهي من بلاد الأرمن.

٢٣- الغارة على المصيصة من بلاد سيس وما حولها من بلاد سنة (٦٧٣هـ):

وفي هذه السنة خرج السلطان في يوم ٣ من شعبان من قلعة الجبل بالقاهرة متوجها إلى الشام، فدخل مدينة دمشق في سلخ الشهر وخرج منها في ٧ من رمضان فدخل حماة، ثم صار منها بالعسكر والعربان وجرد السلطان الأمير عيسى بن مهنا، والأمير حسام الدين العنتابي بعسكر إلى البيرة، وجهز الأمير قلاوون الألفي والأمير بيليك الخازندار بعسكر إلى بلاد سيس، فساروا جميعا وهجموا على المصيصة وكان بها عدد من الأرمن فقاموا بقتل من فيها، وكانت المراكب قد حملت على البغال وهي مفصولة وذلك ليبحروا بها من نهر جيحان والنهر الأسود، ولكن عساكر السلطان لم يحتاجوا إليها. ووصل السلطان إلى المصيصة وذلك بعدما قطع العساكر النهر الأسود وملكوا الجبال وغنموا ما لا يحصى كثرة ما بين أبقار وجواميس وأغنام،

فدخل السلطان إلى سيس وعيد بها فانتهبها وهدم قصور التكفور ومناظره وبساتينه، وبعث إلى دربند الروم فأحضر إليه من سبايا التتار عدة نساء وأولاد، ثم سير الجنود إلى طرسوس فأحضر إليه ثلاثمائة رأس من الخيل والبغال، وبعث إلى البحر عسكرا فأخذ مراكب للفرنجة وقتل من فيها، وأرسل الغارات في الجبال فقتلوا من كان فيها من الفرنج وأسروا وغنموا، وبعث السلطان إلى مدينة أياس العساكر وهي ثغر بأرمينية الصغرى، وكانت قد أخليت من أهلها فنهبا الجنود وحرقوا وقتلوا جماعة من الذين لم يتركوا المدينة، وكثرت الغنائم بأيدي المسلمين وعساكر الظاهر فقام بتقسيمها بين جنوده.

٢٤- حصول السلطان على حصن القصير سنة (٦٧٤هـ):

وفي يوم ١٣ من جمادى الأولى أخذ السلطان قلعة القصير وهي حصن أنطاكية، وحمل أهلها إلى الجهات التي أرادوا أن يرحلوا إليها.

٢٥- فتوح السلطان الظاهر بيبرس في بلاد النوبة والسودان سنة (٦٧٤هـ):

وفي هذه السنة أتى إلى السلطان بقلعة الجبل بالقاهرة ابن أخت ملك النوبة ويدعى مشكند أو شكنده مطالباً بحقه من خاله داود ملك النوبة، فجرد السلطان معه الأمير آقسنقر الفارقاني بجيش من العساكر والعربان وأجناد

٣٩ - المصدر السابق - ص ٦١٧ و ص ٦١٨.

٤٠ - المصدر السابق - ص ٦٢٠.

الولة ومعه أيضا الزرايين والرماة ورجال الحراريق والزردخاناه، فخرج في مستهل شهر شعبان حتى عدى أسوان، وقاتل ملك النوبة داود ومن معه من السودان، فقاتل السودان على النجب، ولكنهم هزموا من أمام الأمير آقسنقر وقتل منهم الكثير، وبعث الأمير آقسنقر الأمير عز الدين الأفرم فأغار على قلعة الدو فقتل وسبى، ثم توجه الأمير آقسنقر في أثره يقتل ويأسر حتى وصل إلى جزيرة ميكائيل وهي رأس جنادل النوبة فقتل وأسر، ثم أقر الأمير آقسنقر قمر الدولة صاحب الجبل على ما بيده من نصف بلاد النوبة، ثم توجه إلى محاربة ملك النوبة داود حتى تمكن من افناء معظم رجاله قتلا وأسرًا، وفر الملك داود بنفسه وأسر أخوه شنكو أو سنكو، فساق العسكر خلفه لمدة ثلاثة أيام يعمل السيف في رجال ملك النوبة حتى دخلوا كلهم في طاعته، وأسرت أم الملك داود وأخته.

وهكذا انتهت هذه الحروب بأن أجلس الأمير مشكد على مملكة النوبة بدلا من الملك داود، وعلى أن تكون نصف بلاد النوبة ملك السلطان ونصفها الآخر للملك مشكد، وأن تكون بلاد العلي وبلاد الجبل وهي تحتوي على قلعتان هما « داو، وابريم » وهما قلعتان محصنتان تحصينا شديدا وقربتان من أسوان، ولهذا رغب السلطان فيهما لكي يكونا تأمينا لحدود سلطنته من الجنوب. ٤١

٢٦- هزيمة التتار وردهم إلى الفرات سنة (٦٧٥هـ):

حيث خرجت فرق الجنود السلطاني على عاداتها لرد أي هجوم محتمل من قبل التتار من ناحية الفرات قد تهجم على حلب وما حولها فتعيث فيها

فسادا ودمارا، فتقدم الأمير سنقر الأشقر جيش في عدة من العسكر فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار وعليهم قائد يدعى كراي، فانهزم التتار من أمام الأمير سنقر وتمكن من أسر جماعة منهم، فلما بلغ الخبر ملك التتار أبغا بن هولكو فجهز جماعة من عرب خفاجة ليحاربوا عسكر حلب ويأخذوهم على غفلة، ولكن بلغ ذلك نائب حلب وهو على الفرات فركب إليهم وقتلهم وتمكن من هزيمتهم وأخذ منهم ألفا ومائتي جمل.

٢٧- معركة أبلستين ضد تحالف روم الأناضول والتتار سنة (٦٧٥هـ):

بعد كل هذه الانتصارات الكبيرة التي حققها السلطان في بلاد الأرمن وبلاد سيس خاف معين الدين سليمان البرواناه صاحب مدينة سينوب على إمارته من أن يقوم السلطان الظاهر من ضمها إلى سلطنته فقام بعقد حلف بينه وبين ملك التتار أبغا بن هولكو على كسر السلطان الظاهر، فأرسل له قائده تتاوون، وورد الخبر بهذا الحلف إلى السلطان الظاهر فقام بتجهيز الجيش وتأهب للقاء العدو فطلع بجيشه على جبال تشرف على صحراء هوتي في الأبلستين، وفي أثناء ذلك رتب التتار جيشهم على إحدى عشر طلب - فرقة - في كل طلب ما يزيد على ألف فارس، وقاموا بعزل جيش معين الدين خوفا من قيامهم بالغدر بهم والانضمام إلى السلطان الظاهر، وقامت المعركة فانسالت جيوش الظاهر بيبرس من أعلى الجبل على قلب رجل واحد وصدقوا الهجمة فقاتلوا قتالا شديدا، وترجل التتار من على ظهور خيولهم وقاتلوا قتال من يريد الموت ومع ذلك حدثت فيهم مقتلة عظيمة كادوا أن يفنوا كلهم وفر بقيتهم، وأما معين الدين

سليمان البرواناه زعيم الروم فقد انهزم ومن معه لما رأى ما جرى على جيش التتار، وأما السلطان فقد نزل بعد انتهاء هذه المعركة الرهيبة في منازل التتار وأحضروا بين يديه الأسرى من أمراء التتار فعفى عنهم وأطلقهم، وأما الجنود والفرسان فقد أمر بقتلهم، وأما قائدهم تتاوون فقد قتل في المعركة، وأما الأسرى من الروم فقد أسرت أم معين الدين وأبنة مهذب الدين علي وابن ابنته وغيرهم من أمراء الروم فأبقاهم السلطان بيبرس معه. ٤٣

وكانت هذه خاتمة معارك هذا السلطان العظيم السلطان الظاهر بيبرس فقد حرر معظم بلاد الشام من الصليبيين ولو عاش أطول من ذلك لتمكن من تحرير بلاد الإسلام كلها من الصليبيين، فقد توفي في السنة التالية سنة ٦٧٦هـ بعد جهاد طويل مع التتار والصليبيين على السواء تاركاً وراءه سلطنة هي الأقوى والأعظم في العالم الإسلامي كله، والتي أصبحت حامية الإسلام وأراضيه وهي سلطنة المماليك في مصر والشام.

وفاة السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٧٦هـ):

وكان الظاهر مولع بالنظر والقراءة في كتب النجوم، ف قيل له أن ملكاً يموت بدمشق سنة ٦٧٦هـ، وأن هذا الملك سوف يموت غيلة بالسم، فاغم من ذلك وخاف أن يكون هو، وقد كان في الظاهر على الرغم من كل الصفات التي كان يتمتع بها حسد ممن يرى فيه شجاعة وحب الناس له من الأمراء، فلما وقعت الحرب بين جيوش الحلف الرومي التتري في اللأبلستين

وجيش الظاهر كان معه في هذه الحرب الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ابن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، فأبلى بلاء حسناً وعاب على السلطان الظاهر فتوره فقد خاف على نفسه وجنوده من الهزيمة في بلاد الروم فأسر الظاهر حسده وغضبه منه وانتظر أن يصل إلى دمشق، وظن أن القاهر هو المقصود بالموت سما في دمشق، فاحتال على الملك القاهر في دعوته على شراب القمز - شراب المماليك المفضل ويصنع من لبن الخيل - فأعاد الظاهر الشراب والدعوة وكان له ثلاث هنابات - كؤوس - لكل واحدة منها ساقى مخصوص وكان قد وضع السم للقاهر في أحدها، وقد عزم أن يحتال عليه فيناوله الكأس التي فيها السم بيده، وكان القاهر قد ذهب لقضاء حاجته فلما عاد ناوله إياه فقبل الأرض وشرب ما فيه لكن بقايا السم كانت ما تزال في الكأس، فقام السلطان لقضاء الحاجة وأخذ الساقى الهناب من يد القاهر والذي يبدو أن السم لم يكن قد عمل مفعوله معه، وملاً الساقى الهناب على جهل منه على عادته، فلما عاد السلطان ناوله إياه فشربه السلطان ولا يعلم أنه الهناب المسموم، فلما شربه أحس بالتغير في بطنه وعلم أنه الكأس المسموم، فأخذ يتقيأ ويأخذ الأدوية ولا تفيده، وما زال يتقيأ دماً حتى لفظ كبده كله ومات بذلك. ٤٤

٤٤ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه دكتور محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٦٣٥ و ص ٦٣٦.



شعار الظاهر بيبرس

٥- السلطان الملك السعيد بركة خان (٦٧٦هـ - ٦٧٨هـ):

تولى السلطنة في حياة أبيه الظاهر صورة فقط في يوم الخميس ١٣ شهر شوال سنة ٦٦٢هـ، وقد دام في الملك سنتين وشهرين فقط، فقد خرج عليه حموه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي فخلعه وولى مكانه أخوه سلامش، ومات في يوم الجمعة ١١ من ذي القعدة سنة ٦٧٨هـ.

٦- السلطان الملك العادل سلامش ابن السلطان بيبرس (٦٧٨هـ):

وقد تولى الملك بعد خلع أخيه الملك السعيد بركة خان، وكان مدبر دولته هو الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، واستمر في الملك مدة أربعة أشهر فقط ليس له من أمر السلطنة سوى الاسم فقط، فقام الأمير سيف الدين قلاوون بخلعه من السلطنة في سنة ٦٧٨هـ.

٧- السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي الألفي (٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ):

تسلطن بعد أن خلع الملك سلامش ابن صاحبه السلطان بيبرس البندقداري في شهر رجب سنة ٦٧٨هـ، وهو تركي الجنس وله فتوحات عظيمة فقد تمكن من كسر التتار في سنة ٦٨٠هـ، وافتتح عدة بلاد بالسواحل الشامية، وتوفي أثناء خروجه لغزو عكا عند مسجد التبن خارج القاهرة وكان ذلك سنة ٦٨٩هـ.

جهاد السلطان المنصور قلاوون:

أولاً: وقعة حمص مع التتار سنة (٦٨٠هـ):

فقد حدث أن قام التتار بالخروج بقيادة منكومتر بن هولكو إلى عينتاب في مائة ألف فارس، وكان السلطان سيف الدين قلاوون بدمشق وقتها فجمع الأمراء وعرفهم بمقدم التتار من أجل محاربتهم فأجابوه بمحاربة التتار عند مرج حمص، وكان بين أمراء المماليك خلاف شديد فاجتمعوا جميعاً عند قبر الصحابي الجليل سيف الله خالد بن الوليد على نصرة الإسلام ونبذ الفرقة وجمع الكلمة لرد التتار.

وفي يوم ١٤ من رجب التقى التتار والمسلمون في ملحمة عظيمة، فقد كان عدد جيش المسلمين النصف من جيش التتار، فتمكنت ميمنة التتار من كسر ميسرة المماليك، وتمكنت ميمنة المماليك من كسر ميسرة التتار، وكان سبب كسر ميسرة التتار أن عرب الأمير عيسى بن مهنا تركت القتال واتجهت إلى نهب أثقال التتار من ورائهم، فرجعت التتار عليهم فركبوا المسلمين أكتافهم، وأما السلطان قلاوون فإنه أمر بلف السناجق - الأعلام - حتى لا يعلم العدو مكانه فيقصدونه بالقتال، وبقي في نفر يسير حوالي ثلاثمائة فارس فقط، ثم قام أحد أمراء المماليك وهو الحاج أزدمر بالهجوم على عسكر التتار، وطلب منهم أن يوصلوه إلى منكومتر، فلما قرب منه حمل عليه وضربه فرماه إلى الأرض، فشالوه التتار مجروحاً وولوا هاربين، وسيوف المسلمين تعمل فيهم وتم النصر لجيش المسلمين، ولما رجعت ميمنة التتار التي كسرت ميسرة المسلمين يطلبون قائدهم منكومتر وبقية الجيش لم يروا لهم أثر فلحقوا بهم منهزمين، وهذا من الخير الذي أنعم

الله به على المسلمين فلوا قصدوا جيش المسلمين والسلطان لم يجدوا من يصددهم. ثم جرد السلطان ورائهم خمسة آلاف فارس بقيادة الأمير بدر الدين الأيدمرى، فلاحقوا بالمنهزمين حتى أوصلوهم إلى النهر الأسود. ٤٥



وقعة حمص وانتصار المماليك على التتار

ثانياً: استيلاء السلطان على حصن المرقب من الفرنج سنة (٦٨٤هـ):

وفي هذه السنة خرج السلطان من مصر قاصدا الشام، فدخل دمشق في

٤٥ - الكتبي - صلاح الدين محمد بن شاکر - عیون التواریخ - عصر سلاطین المماليك - الجزء الثاني - حوادث وتراجم (٦٧١هـ / ٦٨٧هـ) - تحقیق أحمد عبد الستار وآية محمد کامل - مراجعة أ.د. أيمن فؤاد السيد - الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٣٤٣ و ص ٣٤٤ و ص ٣٤٥.

يوم ٢٢ من المحرم بجيش مصر وبعدها أمر باجتماع جيش مصر والشام والتوجه إلى حصن المرقب، فقام بمحاصرة الحصن ووضع المجانيق وحاصر الحصن لمدة ثمانية وثلاثين يوما فطلب أهل الحصن الأمان والتسليم، فأجابهم السلطان إلى مطلبهم وتسلم الحصن منهم على الأمان وبقي يرتب أموره وترك فيه مجموعة من العسكر يصلحون ما خربه الحصار من النقوب والهدم.

ثالثا: فتح السلطان طرابلس سنة (٦٨٨هـ):

فقد خرج السلطان المنصور سيف الدين قلاوون من مصر متوجها إلى طرابلس فوصلها في مستهل ربيع الأول وأقام عليها الحصار والمجانيق تضرب أسوارها والقتال دائر بين الجنود طيلة أربعة وثلاثين يوما، ثم تمكن من فتحها في يوم ١٤ من ربيع الآخر، وأرسل البشائر بفتح المدينة إلى الديار المصرية، وكان فتحا عظيما.

٨- السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٨٩ هـ - ٦٩٣ هـ):

تسلطن بعد وفاة أبيه السلطان قلاوون في شهر ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ وافتتح سلطنته بفتح مدينة عكا، واسترجاع غالب سواحل الشام، وقلعة الروم وبهسنا وهي قلعة في شمال مدينة حلب، وقد قتل في تروجة بالبحيرة أثناء رحلته للصيد على يد الأمير الأشرف بيدرا والأمير حسام الدين لاجين في يوم السبت ١٢ شهر المحرم سنة ٦٩٣ هـ.

جهاد السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الناصر قلاوون:

أولاً: فتح عكا العظيم وإنهاء الوجود الصليبي نهائياً من بلاد الشام سنة (٦٩٠هـ):

في هذه السنة وفي العشر الأول من ربيع الأول أمر السلطان أن تخرج المجانيق من البلاد من أجل حصار مدينة عكا، فخرجت أمراء المماليك بعساكرهم والمجانيق معهم ووصل إليهم السلطان الأشرف في يوم ٤ من ربيع الآخر، وكان عدد المجانيق التي نصبت حول عكا اثنين وسبعين منجنيقا وزحف السلطان بجنوده وصعد الجنود على أسوار المدينة ومعهم الرايات المنصورة، وهنا علم الصليبيون أنهم قد خسروا المدينة فنزلوا يهربون في المراكب وقد قتل منهم خلق كثير من ازدحامهم في المراكب، وأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون ويغنمون، وأمر السلطان بهدم أسوار المدينة، وكان هذا الفتح العظيم يوم الجمعة ١٧ من جمادى الأول. ٤٨

وبهذا النصر العظيم تم القضاء على آخر معاقل مملكة بيت المقدس اللاتينية وإنهاء الوجود الصليبي في بلاد المسلمين والذي استمر حوالي ٩٩ عاماً من الاحتلال بداية من سنة ٤٩١هـ وحتى سنة ٦٩٠هـ.

ثانياً: تحرير بقية الساحل من الفرنج في سنة (٦٩٠هـ):

وفي هذه السنة لم يبق للفرنج سوى بعض حصون ومدن قليلة في الساحل فقد أوكل السلطان الأشرف خليل قلاوون نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بإتمام الفتح وطرده فلول الفرنج من الساحل فتم تحرير الآتي:

- أ- فتح بيروت في يوم ٢٣ من شهر رجب.
 - ب- فتح حصن عثليث وهو المعروف بالحصن الأحمر في ٢٣ من شهر رجب.
 - ج- فتح أنطرسوس في ٥ من شهر شعبان.
 - د- وتم تخريب جبيل وهي بلدة من سواحل دمشق شرقي بيروت. ٤٩
- وهكذا تمكن السلطان الأشرف صلاح الدين خليل من تحرير ساحل بلاد الشام من الفرنج والقضاء التام على القوى الصليبية في المنطقة كلها.
- ### ثالثاً: فتح قلعة الروم سنة (٦٩١هـ):

وفي هذه السنة توجه السلطان إلى بلاد أرمينيا حيث توجد قلعة الروم - هرموغلا - مقر بطريك أرمينيا وهي من القلاع عظيمة الارتفاع ووعدة الطرق ونهر الفرات يجري من تحت المدينة مما صعب الوصول إليها وفتحها، فنزلت عليها عساكر السلطان يوم ١٠ من جمادى الآخرة، فأمر

ضرب الحصار حولها بالمجانيق ورموا أسوارها بالحجارة، وعملت العساكر النقب في أسوارها، وقام الأمير علم الدين الشجاعي بعمل سلسلة عظيمة وعلقها قريبا من شراشيف القلعة، وجعل طرفها واصل إلى الأرض فكان الجنود يتمسكون بها ويصعدون بها فتم الاستظهار على القلعة وصعدت سناجق وأعلام السلطان وملك المسلمون القلعة وقتل من فيها من المقاتلة وتم أسر بطيرك الأرمن، ثم أمر السلطان بتغيير اسم القلعة من قلعة الروم إلى قلعة المسلمين، وكان فتح القلعة في يوم ١١ من رجب، ورتب السلطان الأمير علم الدين الشجاعي لعمارتها وترتيبها وتحسينها وأمر أن يخرب ربضها ويبعد عنها. ٥٠

رابعاً: تسلم السلطان عدة قلاع من ملك بلاد سيس سنة (٦٩٢هـ):

وفي هذه السنة تجهز السلطان لغزو بلاد سيس، فأرسل صاحب سيس يطلب الصلح من السلطان، فقبل السلطان الصلح على أن يتسلم السلطان عدة قلاع مهمة وهي:

١- قلعة بهسنا. ٢- قلعة مرعش. ٣- قلعة تل حمدون.

وهذه القلاع من أحصن القلاع خاصة بهسنا ومرعش فقد كانت كثيرة الضياع وهي «قم الدربند، وباب حلب» وقد أرسل السلطان مع رسل صاحب سيس الأمير طوغان والي البر وذلك حتى يتسلم هذه القلاع وكان ذلك في ٩ من جمادى الآخرة، وبالفعل تسلم قلعة البهسنا في العشر الأول من رجب. ٥١

٥٠ - المصدر السابق - ص ١٣٠ و ص ١٣١.

٥١ - المصدر السابق - ص ١٥٧ و ص ١٥٨ و ص ١٥٩.

٩- السلطان الملك ناصر الدين محمد بن الملك المنصور قلاوون (٦٩٣هـ - ٦٩٤هـ):

تسلطن بعد مقتل أخيه السلطان الأشرف خليل في العشر الأوسط من المحرم سنة ٦٩٣هـ، وقد خلع على يد نائبه على السلطنة زين الدين كتبغا في يوم ١١ من المحرم سنة ٦٩٤هـ وجهزه إلى مدينة الكرك.

١٠- السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري (٦٩٤هـ - ٦٩٦هـ):

تسلطن بعد خلع السلطان ناصر الدين محمد في المحرم سنة ٦٩٤هـ، وأصل السلطان كتبغا من سبي التتار في موقعة حمص الأولى سنة ٦٥٩هـ ثم أعتقه وترقى من بين مماليكه حتى صار من أكابر أمرائه وصار في الملك حتى خلعه نائبه على السلطنة المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ.

١١- السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦هـ - ٦٩٨هـ):

وتولى أمر السلطنة بعد أن خلع الملك العادل زين الدين كتبغا في المحرم سنة ٦٩٦هـ، وهو من مماليك السلطان المنصور قلاوون ولما تولى السلطنة جعل نائبه على السلطنة الأمير منكوتر، وهذا كان خلاف ما شرطوه عليه أمراء المماليك فاتفقوا على التخلص منهما فقاموا بقتله في قلعة الجبل وهو يلعب الشطرنج وقتلوا نائبه منكوتر بعد ذلك.

* جهاد السلطان حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري:

*أخذ عدة قلاع من صاحب بلاد سيس - قلقيلية - سنة (٦٩٧هـ):

فقد ذكرنا سابقا أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون قد اشترط على صاحب بلاد سيس تسليمه قلاع حصينة في مقابل عدم حربته والإغارة على بلاده، وقد تسلم فقط قلعة البهسنا، وفي عهد السلطان حسام الدين لاجين تم فتح واستلام بقية هذه القلاع وهي:

أ- فتح قلعة تل حمدون في ٧ من رمضان سنة ٦٩٧هـ.

ب- أخذ قلعة مرعش من نفس السنة.

ج- أخذ قلعة حميمص، وقلعة نجيمة وهما من القلاع الحصينة الشديدة ٥٢.

١٢- السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وهي سلطنته الثانية (٦٩٨هـ - ٧٠٨هـ):

وقد تولى السلطنة بعد مقتل السلطان حسام الدين لاجين فقد اتفق كبار أمراء المماليك على توليته وحلفوا له على الطاعة وكان عمره وقتها خمسة عشرة سنة، وفي أيامه تحرك التتار مرة أخرى فقد عبروا الفرات في أوائل سنة ٦٩٩هـ يقودهم ملكهم قازان ٥٣، وخرج الناصر بنفسه على

٥٢- المصدر السابق - ص ٢٩٦ و ص ٢٩٧.

٥٣- هو قازان أو أوغازان، وقيل اسمه محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ملك التتار توفي (٧١٢هـ - ١٣٢١م) - الأتابكي - يوسف بن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن - هامش كتاب مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة - تحقيق ودراسة وتعليق أ.د. نبيل محمد عبد العزيز أحمد - المجلد الثاني - الطبعة الثانية (١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٥٧.

رأس جيشه ودارت الحرب بين المماليك والتتار في وادي الخازندار، ورغم أن السلطان وجنوده ثبتوا أمام جيش التتار والذي كان تعداده حوالي مائة ألف مقاتل والمماليك كانوا في عشرين ألف فقط إلا أن التتار تمكنوا من كسر ميمنة المماليك وانهزم السلطان وعاد منكسرا إلى مصر.

ثم عاد السلطان وحارب قازان مرة أخرى في مرج الصفر فتمكن من هزيمة التتار هزيمة منكرة، ثم عاد السلطان إلى مصر وقد حفر عليه كلا من نائبه سلار وأستاداره بيبرس الجاشنكير، وفي سنة ٧٠٨ هـ خرج السلطان من القاهرة متوجها إلى الحجاز في الظاهر ولكن ما إن خرج من القاهرة حتى توجه إلى الكرك وخلع نفسه من السلطنة رغم إلحاح الأمراء له بالعودة ولكنه رفض.

جهاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

أولا: هزيمة وادي الخازندار أو سلمية في سنة (٦٩٩هـ):

فقد قاد ملك التتار قازان أو غازان جيوشه لغزو بلاد الشام وقد نزل بجيشه بالقرب من مدينة سلمية، ولما وصل الخبر إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سار بعساكره من الديار المصرية إلى الديار الشامية حتى دخل إلى دمشق يوم الجمعة في ٨ من ربيع الأول، ثم خرج السلطان بعساكره من دمشق إلى حمص في يوم الأحد ١٧ من ربيع الأول، وأقام لابسا السلاح ثلاثة أيام بلياليها إلى أن مل وضجر الجنود والعساكر، وبلغ السلطان أن التتار يريدون الرجوع إلى بلادهم خوفا من لقاء السلطان

وكانت هذه مكيدة منهم للإيقاع بالمسلمين، وهنا اطمأن السلطان فركب هو وجنوده من حمص صباح يوم الأربعاء في ٢٧ من ربيع الأول، وكان التتار قد تهيئوا بشكل جيد للقاء السلطان محمد ومن معه من المماليك، وكان اللقاء في وادي الخازندار في الساعة الخامسة من نهار الأربعاء المذكور وكان الجنود والفرسان قد أصابهم الوهن والضجر ولما بدأت المعركة كان النصر في البداية حليف المسلمين فقد كسرت ميسرة المسلمين التتار وقتلوا من التتار خمسة آلاف، وقام قلب الجيش بحملة هائلة على التتار كادت أن تكسرهم نهائيا لولا ثبات التتار، ولكن وفي وسط المعركة حصل التخاذل في عسكر المسلمين فانكسرت ميمنة المسلمين وانهزم من روائهم السناجق السلطانية من غير قتال، وفر السلطان في طائفة قليلة من الجنود نحو بعلبك، وهكذا انتهت هذه المعركة بهزيمة قبيحة للمماليك بعد أن كانوا في نصر، وذلك بسبب قلة صبر الجنود ومللهم من لقاء التتار. ٥٤



هزيمة المماليك أمام التتار

٥٤ - الأتابكي - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثامن - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٢١ و ص ١٢٢.

ثانيا: فتح جزيرة أرواد سنة (٧٠٢هـ):

وهذه الجزيرة تقع بالقرب من مدينة أنطرسوس وكانت تغير منه الفرنجة على سواحل المسلمين، فقام السلطان بإرسال الشواني وفتحها قهرا في يوم ٢ من صفر وقتلوا من كان بها من المقاتلة وكانوا حوالي ألفين وأسروا حوالي خمسمائة. ٥٥

ثالثا: كسر التتار في موقعة مرج الصفر أو شقحب سنة (٧٠٣هـ):

وكالعادة أرادت التتار أن تغير على بلاد الشام، ففي هذه السنة في يوم ١٠ من شعبان وقع المصاف بين فرقة من التتار وفرقة من المسلمين بمكان يدعى الكوم بالقرب من أرض تعرف بأرض عرض، وانتصر المسلمون عليهم وقتلوا منهم الكثير وأسروا منهم الكثير أيضا.

ولكن التتار لم ترتدع بل جمعوا جيوشهم مرة أخرى بقيادة قطلوشاه وعبروا إلى حمص ووقع الخوف العظيم في بلاد الشام، وتجمعت جيوش الشام وجيش السلطان القادم من مصر، والتقى الفريقان مرة أخرى في موقعة رهيبة وكان السلطان في قلب الجيش، وأيد الله المسلمين بالنصر من عنده فقد نزل مطر عظيم غزير وكان ذلك في يوم السبت ٢ من رمضان، وقد هطول هذا المطر في وجه التتار وفي ظهر المسلمين فتأذى منه التتار وحدثت فيهم مقتلة عظيمة، وكانت الواقعة من عصر يوم السبت ٢ من رمضان إلى يوم الأحد في الساعة الثانية منه والمسلمون يعملون القتل في التتار ليلا ونهارا وأخذوا يهربون إلى التلال والهضاب فلم يفلت

منهم إلا القليل وغرق منهم خلق كثير في نهر الفرات، ومنهم من مات من الجوع والعطش، وبهذا تم النصر العظيم وكسر التتار كسرة حدث لهم بها خذلان كبير وكان هذا الانتصار رد اعتبار للمماليك بعد هزيمتهم السابقة في وادي الخازندار. ٥٦

رابعاً: فتح جبل كسروان سنة (٧٠٥هـ):

وكان أهل جبال كسروان يدينون بالمذهب الشيعي الرافضي وقد تعاونوا مع الصليبيين والتتار من بعدهم ضد المسلمين، وفي سنة ٧٠٤هـ دعاهم السلطان إلى امتثال الطاعة فأبوا الطاعة فأمر السلطان بقتالهم في السنة التالية، ففي ٢ من المحرم قاد الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام من دمشق العساكر لقتال أهل جبال كسروان فكان معه حوالي خمسين ألف راجل، ونازل الأمير أهل المدينة وخرب ضياعهم وقطع كرومهم، ومزقهم بعد أن استمر أحد عشر يوماً، وبعدها تمكن من تملك الجبل عنوة ووضع السيف فيهم وأسر ستمائة رجل من أهل الكسروان وغنموا مالا عظيماً، ثم عاد إلى دمشق في ١٤ من صفر، وبهذا النصر الكبير تم القضاء على المذهب الشيعي في هذا الجبل. ٥٧

٥٦ - المصدر السابق - ص ٤٥٤ و ص ٤٥٨ و ص ٤٥٩.

٥٧ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثاني - القسم الأول - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى - الطبعة الثالثة (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٥.

١٣- السلطان المظفر ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الجاشنكير
(٧٠٨هـ - ٧٠٩هـ):

تولى أمر السلطنة بعد أن خلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عصر يوم السبت ٢٣ من شهر شوال سنة ٧٠٨هـ، وقيل في ذي القعدة في بيت سار، وقوي أمره لولا تعرضه للناصر في الكرك فقد طلب ما عنده من الأموال والمماليك فأرسل إليه جملة كثيرة منها، والسلطان بيبرس لم يكف عنه حتى اضطره إلى الخروج إليه يطلب الملك للمرة الثالثة، ولم يثبت له السلطان بيبرس الجاشنكير وهرب منه ولكنه قبض عليه وأمر السلطان محمد الناصر قلاوون بخنقه بوتر - وهذه كانت طريقة إعدام المماليك لبعضهم - حتى كاد أن يهلك، ثم أطلقه فقام بيبرس الجاشنكير بسبه، ثم خنقه ثانية إلى أن مات في شوال سنة ٧٠٩هـ وكان رحمه الله شركسي الجنس.

١٤- الناصر محمد بن قلاوون وهي سلطنته الثالثة (٧٠٩هـ - ٧٤١هـ):

إكمال حركة الجهاد في عهده مرة أخرى:

وهي سلطنته الثالثة ولم يكن بمصر من السلاطين المماليك أطول منه حكما في مدته الثالثة، وعظم أمره إلى الغاية وكان ذو دهاء وسياسة وحنكة، وكان عظيم الجاه والعساكر وأكثرهم مماليكه الخاصة، وقد توفي على فراشه بقلعة الجبل في آخر يوم الأربعاء العشرين من شهر ذي الحجة سنة ٧٤١هـ.

أولاً: فتح مدينة ملطية في سنة (٧١٥هـ):

وفيهما أمر السلطان الناصر محمد بغزو وفتح مدينة ملطية وهي تقع شرقي الأناضول، وكانت موالية للتتار فقام السلطان بإرسال الجيش بقيادة الأمير تنكز نائبه على الشام، وورى بأنه يريد غزو بلاد السيس حتى نزل بحلب ثم إلى عينتاب ومنها إلى الدربند، ثم وصل إلى ملطية يوم الثلاثاء ١٣ من المحرم وحاصرها ثلاثة أيام كاملة، فاتفق أحد أمراء ملطية وهو الأمير ميزامير مع أعيان المدينة على تسليمها لعساكر السلطان، فخرجوا جميعاً إلى الأمير تنكز وسلموه المدينة فأمنهم وألبسهم التشاريف السلطانية المجهزة من قبل السلطان من القاهرة، وأعطى الأمير ميزامير سنجقاً - علماً - سلطانياً، وهكذا ضم السلطان الناصر محمد ملطية إلى سلطنة المماليك وهو تحول كبير في سياسة المماليك، فقد توجهت فتوحهم إلى بلاد الأناضول وذلك من أجل تأمين الحدود التجارية لسلطنتهم، وزيادة نفوذهم السياسي في الأناضول. ٥٨

ثانياً: محاولة التتار الاستيلاء على بلاد الحجاز سنة (٧١٥هـ):

فقد فر الأمير حميضة - أحد أشراف الحجاز - إلى ملك التتار على بلاد المشرق من خراسان إلى الروم، وهو خربندا محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، فعلى الرغم من دخوله في الإسلام إلا أنه قد تشيع وأظهر مذهب الرافضة في بلاده وأجبر الناس في مملكته عليه وقام بفتن كثيرة في بلاد الإسلام، فلما فر إليه حميضة أكرمه خربندا هذا وأضافه عنده شهر

٥٨ - المقريزي - لتقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثاني - القسم الأول - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى - الطبعة الثالثة (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٤٣.

كامل، فحسن له حميضة أن يبعث معه جماعة من جنده من التتار إلى بلاد الحجاز ليملكها ويخطب له على منابرهما! فجرد خربندا معه أربعة آلاف فارس من جنود خراسان وقدم بهم إلى الحجاز في ١٨ من رجب، وفي تلك الأثناء بلغ محمد بن عيسى أمير عرب مهنا مسير الشريف حميضة بعسكر التتار إلى مكة، فشق عليه استيلاء التتار على الحجاز، وكان خربندا قد جهز العدة والجيوش من أجل عبور الفرات والهجوم على بلاد الشام ولكن الله قدر موته فأراح المسلمين من شره، ولما بلغ خبر موته إلى الأمير محمد بن عيسى جمع عربانه وسبق بالهجوم على جيش الشريف حميضة ليلا فوضع فيهم السيف وهو يصيح باسم السلطان الناصر فقتل أكثر الجيش وأسر أربعمائة من التتار وغنم العرب منهم مالا كثيرا وخيولا وجمالا، وأرسل إلى السلطان الناصر بهذا النصر فسر به الناصر كثيرا. ٥٩

ثالثا: الغارة على بلاد سيس وتسلم عدة قلاع من ملك الأرمن سنة (٧٣٨هـ):

وفي هذه السنة خرجت الجنود والعساكر من الديار المصرية في ١٢ من شعبان وقدموا على دمشق وكان أميرهم هو الأمير أرقطاي ثم ساروا إلى حلب ووصلوها يوم ١٤ رمضان ولما تكاملت جنود مصر والشام ساروا جميعا يوم عيد الفطر وكان الأمير على الحملة من قبل السلطان هو الأمير علاء الدين ألتنبغا وهو نائب حلب، فنزلوا على مدينة الأسكندرونة وهي أول بلاد سيس وكان معهم الزحافات والجسور الحديد والمجانيق والمراكب وذلك من أجل عبور نهر جهان، فلما علم تكفور ملك سيس أرسل أنه

سوف يسلم القلاع التي من وراء نهر جهان بشرط ألا يغيروا على بلاده، وهنا ركب أطنبغا بعساكره إلى مدينة آياس فوصلها يوم الإثنين ٢ من شوال فوجدها قد تحصنت فبادر العساكر بالزحف عليها بغير أمر أطنبغا، فجرح منهم الكثير وكان يوما عصيبا واستمر الحصار إلى يوم الخميس ١٥ من شوال، وقام الأمراء بالنزول من على خيولهم وزحفوا جميعا ناحية السور ومعهم الجنود فاشتد القتال، وهنا وافى رسل التكفور نائب الشام برسالة من ملكهم ومفادها أن يكفوا الغارة فلم يوافق الأمراء على ذلك واستمر الحال على ذلك حتى تسلم جيش السلطان مدينة آياس بعد ثمانية أيام.

فلما كان اليوم الثامن أرسل تكفور مفاتيح القلاع على أن يرد جيش السلطان ما سبي ونهب من بلاده، فأحضر الكثير منه، وأخرب الجسر الذي نصب على جهان وتوجه الأمير مغلطاي الغزي فتسلم قلعة كواره - كوارين - وكانت من أخص قلاع الأرمن وكان لها سور مساحته فدان وثلاث وربع فدان، وكان ارتفاعه اثنان وأربعون ذراعا، وتسلم الجيش أيضا مدينة آياس، وكذلك هدم البرج الأطلس في ثمانية أيام، وهكذا وصل نفوذ المماليك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى داخل بلاد سويس - مملكة الأرمن الصغرى - وهو أقصى اتساع لها. ٦٠

رابعا: تسلم قلعة طرنده سنة (٧٤٠هـ):

وفي يوم ١٤ من شوال تسلم الأمير زين الدين قراجا بن دلغادر قلعة

٦٠ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثاني - القسم الثاني - قام بنشره محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٢٩ و ٤٣٠.

طرندة - درندة - وأقام فيها الدعوة للسلطان محمد الناصر، وقد كتب الأمير زين الدين يبشر السلطان بذلك فأنعم بها على الأمير تنكز نائب الشام، فعمرها الأمير تنكز ولم تنزل هذه القلعة في حكم السلاطين المماليك في مصر إلا أن مات السلطان الظاهر برقوق. ٦١

١٥- السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد الناصر بن قلاوون (٧٤١هـ - ٧٤٢هـ):

وتسلطن بعد وفاة أبيه في صبيحة يوم الخميس ٢١ من شهر ذي الحجة سنة ٧٤١هـ، وقد تولى بوصية من والده على الرغم من أن له أخ آخر أكبر منه يدعى أحمد، وكان القائم على أمر سلطنته قوصون الناصري، وقد أراد المنصور سيف الدين أبو بكر أن يمسك بقوصون هذا ولكنه علم بنية السلطان في الإمساك به فاتفق مع بقية الأمراء على خلعه من السلطنة، فتم خلع السلطان المنصور وإقامة أخيه علاء الدين كجك وعمره نحو ست سنين، فكانت مدة سلطنة المنصور حوالي شهرين وأياماً، فجلس قوصون في دار النيابة وأمر بخروج المنصور وأخويه يوسف، ورمضان إلى مدينة قوص، وفي سنة ٧٤٢هـ أرسل سرا إلى متولي مدينة قوص عبد المؤمن أن يقتل المنصور، فقتله وحمل رأسه إلى قوصون في السر وكتبوا ذلك على الناس وأشاعوا أن السلطان المنصور قد مات ميتة طبيعية.

١٦- السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الملك الناصر محمد
(٧٤٢هـ - ٧٤٦هـ):

تولى السلطنة بعد خلع أخيه المنصور أبي بكر في يوم الإثنين يوم ٢١ شهر صفر ٧٤٢هـ، وكان عمره أقل من ست سنين!! وهو من أم تترية الأصل تدعى أردو، واستقل بأمر سلطنته الأمير قوصون وتحكم في الأشرف واضطربت أحوال البلاد واتفق الأمراء على خلع قوصون من النيابة بعد أن تأكدوا من أنه هو الذي أمر بقتل أستاذهم المنصور أبو بكر، وقد تحرك أكبر أولاد الناصر وهو أحمد من أجل خلع أخيه وقتل قوصون، وبعد أن تمكن من الوصول إلى السلطنة بمساعدة الأمير قطلوبغا الفخري والذي كاتب الأمراء على ضرورة خلع الأشرف لصغر سنه وقتل قوصون، فتم الأمر لهم وخلع الأشرف وقبض على قوصون وحبس في سجن الإسكندرية ثم قتل في شهر شوال من السنة نفسها، وبقي الأشرف كجك في قلعة الجبل إلى أن مات في سلطنة أخيه الملك الكامل شعبان سنة ٧٤٦هـ.

١٧- السلطان الناصر أحمد شهاب الدين بن الناصر محمد (٧٤٢هـ -
٧٤٥هـ):

تسلطن بعد خلع أخيه الأشرف كجك في يوم الإثنين ١٠ شوال سنة ٧٤٢هـ، ولم يستقر في مصر طويلا فقد جمع الأموال والذخائر وترك القاهرة وارتحل إلى الكرك، وترك العساكر بالقاهرة دون مال فاضطربت أحوال الديار المصرية، فكاتبه الأمراء في العودة مرة أخرى إلى مصر ولكنه رفض فخلع وقام الأمراء بتقليد أخيه الملك الصالح إسماعيل في سنة ٧٤٣هـ فكان

ملكه دون الأربعة أشهر، ثم أمر أخيه بمحاصرة الناصر أحمد بالكرك وظل محاصرا هناك إلا أن تم القبض عليه في يوم الإثنين وقت الظهر يوم ١٢ شهر صفر سنة ٧٤٥هـ وكتب إلى السلطان بذلك، فأمر السلطان بحز رأسه، وتوجه به إلى القاهرة وانتهى أمره كأن لم يكن.

١٨- السلطان الصالح إسماعيل عماد الدين أبو الفدا بن محمد الناصر
(٧٤٣هـ - ٧٤٦هـ):

تسلطن بعد أن توجه أخيه الناصر أحمد إلى الكرك باتفاق الأمراء على سلطنته في يوم الخميس ٢٢ من المحرم سنة ٧٤٣هـ، ولم تطل مدة سلطنته فقد مات في يوم ٢٠ شهر ربيع الأول سنة ٧٤٦هـ فكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهرا وثمانية عشر يوما.

١٩- السلطان الكامل زين الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦هـ - ٧٤٧هـ):

تولى السلطنة بعهد من أخيه السلطان الملك الكامل، وكان ذلك في يوم الخميس ٢ من شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٦هـ، ولم يطل حكمه فقد حاربه الأمراء وخلعوه من السلطنة في يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ فتكون سلطنته على مصر سنة واحدة وسبعة عشر يوما، ثم قتل السلطان الكامل في يوم الأربعاء ٣ من شهر جمادى الآخرة.

٢٠- السلطان المظفر حاجي بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٤٧هـ

- ٧٤٨هـ):

تولى الحكم بعد خلع أخيه الكامل شعبان في يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ، وقد نفرت منه قلوب الأمراء حيث أراد أن يقبض على عدد منهم، وقبض على عدد من أولاد الأمراء وقتل عدد كبير من الأمراء فخرج عليه الأمراء وأوقعوا به عند قبة النصر فقاموا بتكليفه وأحضره إلى نائب السلطنة الأمير أرقطاي ليقتله فلما رآه رمى عليه قباءه وقال: «أعوذ بالله! هذا سلطان ابن سلطان ما أقتله، خذوه إلى القلعة» فأخذه وأدخلوه إلى تربة هناك فقتلوه، وكان ذلك في يوم ١٢ شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ، فكانت مدة سلطنته سنة واحدة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوماً، ولم يكن في عهده حروب ولا توسع للسلطنة فقد كان مشغولاً بلهوه ولعبه ولم يحدث في سلطنته سوى الآتي:

*محاولة ملك سيس - مملكة الأرمن - استعادة مدينة أياس سنة (٧٤٨هـ):

فقد حاول ملك بلاد سيس أن يستعيد مدينة أياس من المماليك فجهز مائتي أرمني لغزو المدينة، فلما قربوا من كوار وهي قرية قريبة من المدينة ليهاجموا على قلعتها فقاتلهم أربعون من المسلمين، فنصرهم الله على الأرمن، وقتلوا منهم خمسين وأسروا ثلاثين وهزموا باقيهم، فقتل بكوار عدة ممن أسر وحمل بقيتهم إلى حلب فكتب بالإحسان إلى أهل كوار والإنعام عليهم. ٦٢

٦٢ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - الجزء الثاني - القسم الثالث - صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة - أستاذ تاريخ العصور الوسطى - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٧٢٦.

٢١- السلطان ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون
(٧٤٨هـ - ٧٥٢هـ):

تسلطن بعد خلع أخيه المظفر حاجي وقتله في يوم الثلاثاء ١٤ شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ، وكان اسمه قماري فلما جلس على سرير السلطنة سماه النائب قماري، فقال له السلطان: لا يا عمي! ما اسمي إلا حسن، ما أنا مملوك. فقال له النائب: المرسوم مرسومك يا خوند، ووقعت بينه وبين الأمير طاز الناصري، فتآمر الأمير طاز مع الأمير صرغتمش على خلع، فخلع من السلطنة وحبس في أحد الدور من قلعة الجبل وكان ذلك في أوائل شهر رجب سنة ٧٥٢هـ، فكانت سلطنته على مصر ثلاث سنين ونحو من عشرة أشهر.

غارة الأكراد على حدود سلطنة المماليك من جهة بلاد الشام سنة (٧٥١هـ):

فقد حدث في هذه السنة أن ظهر في بلاد الأكراد رجل يدعى هندو قد تمكن من الاستيلاء على بلاد الموصل وكون جمع كبير من قطاع الطرق، والتحق به نجمة التركماني فاستنابه وتقوى به، فتوجه هندو إلى حصن سنجار وتحصن به، فأغار على الموصل فنهب وقتل، ومضى إلى مدينة الرحبة فأفسد فيها، وتوجه إلى بلاد ماردين فنهبها، فخرجت إليه عساكر الشام وحصروه بسنجار ومعهم عسكر ماردين، ونصبوا عليها المجانيق لمدة شهر كامل حتى طلب هندو ورجاله الأمان في مقابل التالي:

١- أن يقيم الخطبة باسم السلطان في بلاده.

٢- أن يبعث بأخيه ونجمة في عقد الصلح.

٣- أن يقطع قطيعة - مال - يقوم بها كل سنة إلى السلطنة.

فأمنه العسكر وساروا عنه بأخيه ونجمة إلى حلب، فحمل نجمة ورفيقه إلى الديار المصرية، فلما نزلا منزلة قاقون هرب منهم نجمة* ٦٣.

٢٢- السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٥٢هـ-٧٥٥هـ):

تسلطن بعد خلع أخيه في يوم الإثنين ٢٨ جماد الآخرة سنة ٧٥٢هـ، وكان نائبه ومدير مملكته هو الأمير طاز الناصري وله الأمر وللسلطان الاسم فقط، وأفرج طاز عن الأمير شيخو اللالا العمري الناصري من سجن الإسكندرية، وصار أمر المملكة بين ثلاثة هم: «طاز الناصري، وصرغتمش وشيخو» ثم وقعت الوحشة بين نائب السلطنة طاز الناصري والأمير صرغتمش رأس نوبة النوب، وآل الأمر إلى التحارب بينهما فمال شيخو إلى صرغتمش وخلع السلطان الصالح، وكان ذلك في يوم الإثنين ٢ شوال سنة ٧٥٥هـ فكانت مدة سلطنته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما.

٢٣- سلطنة الناصر حسن بن الناصر سلطنته الثانية (٧٥٥هـ - ٧٦٢هـ):

تسلطن بعد خلع أخيه الصالح يوم الإثنين ٢ شوال سنة ٧٥٥هـ، وحدثت في عهده أن قتل الأمير شيخو اللالا في سنة ٧٥٨هـ، وقبض على الأمير

٦٣ - المصدر السابق - ص ٨٣٠.

*وقد قتل نجمة هذا بحيلة عملها عليه صاحب ماردین حتى قدم عليه، فتلقاه وأكرمه ثم قبض عليه وضرب عنقه بيده، وقتل من معه.

صرغتمش وحمل إلى سجن الإسكندرية وقتل هناك سنة ٧٥٩هـ، ثم تغير خاطر السلطان حسن على مملوكه يلغا العمري وأراد أن يقبض عليه، فوصل الخبر إلى يلغا فخرج إلى قتال السلطان فتمكن من كسره، فتنكر السلطان حسن ومعه الأمير أيدير الدوادر في زي العرب وذلك حتى يتمكن من الهرب من مصر إلى الشام ولكن بعض المماليك عرفوهم فقبضوا عليهما وأتوا بهما إلى الأمير يلغا فقتل السلطان، وكان ذلك في يوم الأربعاء ٩ جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ، فكانت مدة سلطنته الثانية ست سنين وسبعة أشهر.

حركة الجهاد في عهد السلطان ناصر الدين حسن:

فتح عدة مدن في بلاد سويس سنة (٧٦١هـ):

وفي هذه السنة قام الأمير بيدمر نائب حلب بالعساكر إلى بلاد سويس وتمكن من فتح مدن مهمة هي:

١- أذنه. ٢- طرسوس. ٣- المصيصة.

إضافة إلى فتحه لعدة قلاع، ثم أقام بأضنه وطرسوس نائبين ومعهما العساكر والجنود، ثم عاد بالغنائم إلى حلب. ٦٤

٦٤ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الأول - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٥٠.

٢٤- سلطنة السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي بن محمد الناصر
(٧٦٢هـ - ٧٦٤هـ):

تولى أمر السلطنة بعد خلع وقتل عمه الملك الناصر حسن في يوم الأربعاء ٩ شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ، وكان نائبه على السلطنة هو يلبغا العمري الناصري ثم بدا منه أمور استوحش منها يلبغا فخلعه بسببها ونصب ابن عمه الأشرف شعبان بن حسين في يوم الثلاثاء ١٥ شعبان سنة ٧٦٤هـ.

٢٥- سلطنة الملك الأشرف بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٦٤هـ - ٧٧٨هـ):

تولى السلطنة بعد خلع أبيه في يوم الثلاثاء ١٥ شعبان سنة ٧٦٤هـ، وكان عمره وقتها عشر سنين!! وكان نائبه هو الأمير يلبغا، ثم حدثت أمور استوجبت الحرب بين الأشرف ويلبغا انتهت بقتل الأخير ومن حينها استبد السلطان الأشرف بالملك، ثم حدثت أمور عظام انتهت بمقتل السلطان الأشرف على يد مماليكه وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٥ ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ.

حركة الجهاد في عهد السلطان الأشرف:

أولاً: نكبة أهل الإسكندرية على يد ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان سنة (٧٦٧هـ):

وفي هذه السنة كانت النكبة المهولة التي أصابت أهل الإسكندرية على يد الفرنج، فقد رست سفن التحالف الفرنجي على ساحل المدينة في يوم الأربعاء ٢١ من المحرم وكانت عبارة سفن من جزيرة قبرص آخر معاقل

الصليبية في ذلك الوقت ومجموعة من الصليبيين أتوا من أوروبا للمشاركة في هذه الحملة الصليبية الكبيرة، وفي البداية ظن أهل الإسكندرية أن هذه السفن هي سفن البندقية التجارية أتوا في ميعادهم المعتاد من أجل التجارة والتسوق، ولكن عندما اتجهت السفن بعيدة عن ميناء الإسكندرية خافوا واستولى عليهم العرب، وعادوا مسرعين إلى داخل المدينة، وفي اليوم التالي وجد أهل الإسكندرية أن السفن الصليبية قد ملأت بحر السلسلة، وهنا قام والي المدينة وكان يدعى الأمير جنغرا بغلق أبواب المدينة من جميع جهاتها وحصنها، وقام بشحن الجنود على أبراج المدينة وقلاعها، وقام بطلب عربان البحيرة من أجل أن يشتركوا في صد الصليبيين وشدد الحراسة على أبواب المدينة فكانوا يتناوبون على الحراسة، ثم ظهر غراب - سفينة حربية - وهنا انقسم المسلمون إلى فرقتين فرقة اتجهت إلى جهة منار الإسكندرية مع بعض عربان البحيرة، وفرقة اتجهت إلى هذا الغراب اقتاله، وكان الفرنجة قد نزلوا قبل هذا اليوم في الليل وقاموا بعمل كمين في التراب بظاهر المدينة منتظرين اللحظة الحاسمة من أجل الانقضاض على المسلمين، وكان الناس قد أخذهم الاستهزاء بالفرنجة فخرجوا هم وصبيانهم وتجارهم من أجل الفرجة واللعب.

ولكن الذي حدث بعد ذلك كان كارثة بمعنى الكلمة فقد انهزمت عربان البحيرة من أمام الفرنجة التي أمطروهم بالسهام، فقد كان الفرنجة على أهبة الاستعداد من عدة وعتاد وكان الفرسان في كامل دروعهم الحديدية والسيوف الحادة النصال، في حين أن المسلمين كانوا في عدة خفيفة ولم يلبسوا أية دروع فانهزموا سريعا إلى ظاهر المدينة وهنا خرج عليهم الكمين بعد سماع النفير فركبوا ظهور المسلمين وتبعوهم بالسيف وملكوا شاطئ وبر الإسكندرية دون عناء أو مشقة.

وتقدمت سفن ملك قبرص إلى الأسوار وأنزلوا فرسانهم ورجالهم واستشهد عدد كبير من المسلمين، وهلك عدد كبير من الناس عند أبواب المدينة

من كثرة الزحام، وخلت أسوار المدينة من الحراس، فنصب الفرنجة السلام وتمكنوا من امتلاك الأسوار واتجهوا إلى ناحية باب السدرة - باب الشجرة - وهو باب السور الجنوبي لمدينة الإسكندرية وعلقوا الصليب عليه، فانحشر الناس إلى باب رشيد وأحرقوه، ففر الناس على وجوههم وتركوا المدينة مفتوحة بما فيها للفرنج، وهنا دخل ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان بفرسانه فاستلم المسلمين بالسيف فقتلوا كل من صادفوه من الناس، فكانوا يقتلون المرأة ويذبحون ابنها على صدرها، واعتدوا على النساء والبنات، وحرقوا الدور والخانات والقصور ونهبوا الحوانيت، وخرّبوا المساجد والجوامع، وظل الصليبيون على ذلك عدة أيام كانت من أسوأ أيام تلك المدينة الإسلامية العريقة.

وفي يوم السبت عقد الملك بطرس الأول اجتماعا مع كبار فرسانه وذلك من أجل أخذ مشورتهم في ما يجب فعله بعد الاستلاء على الإسكندرية، فنصح الكونت دي توران بمغادرة المدينة فورا قبل مجيء جيش المماليك لتحرير المدينة وهنا سوف يكون وضعهم صعب جدا وقد يتحول النصر الذي تمكنوا من تحقيقه إلى هزيمة منكرة وأسر لهم، وقد رأى الكونت دي توران معظم الصليبيين القادمين من أوروبا، ولكن الملك بطرس رفض هذا الرأي وأكد على ضرورة الحفاظ على مكاسب الحملة وهي الاستيلاء على مدينة كبيرة كالإسكندرية وانتظار النجدة من أوروبا وقد أيد رأي الملك مجموعة من كبار فرسانه وهما بطرس توماس وفيليب دي ميزير، ولكن الصليبيين القادمين من أوروبا لم يوافقوا على هذا الرأي وقالوا للملك: «لقد مكثنا هنا أكثر من اللازم، وهذا ليس في صالحنا بتاتا إذ يجب أن نعود مباشرة إلى قبرص» فعلا تركوا الملك وعادوا إلى سفنهم وعاد الأوروبيين الإنجليز منهم إلى جزيرة قبرص سرا في الليل، فلما علم الملك بطرس بذلك اضطر في النهاية إلى الجلاء عن المدينة فقد أتته الأخبار بأن طلائع جيش المماليك قادم في عدد كثيف لن يتمكنوا من الوقوف أمامه، فوصلت الجيوش الإسلامية إلى المدينة وكانت السفن القبرصية قد أخذت

من المدينة ما يقرب من خمسة آلاف أسير رجال ونساء وأطفال. ٦٥

وهكذا بقيت هذه الحملة الصليبية في مدينة الإسكندرية لمدة ثمانية أيام بدأوا هجومهم من يوم الجمعة نهارا إلى بكرة يوم الأحد يقتلون ويحرقون ويأسرون، وكان تحالفا صليبيا مكون من أربعة وعشرون سفينة من البنادقة، وسفيتين من الجنوبية، وعشرة سفن من رودس، وخمسة سفن من الفرنسيين، وبقة السفن كانت من قبرص. ٦٦

ثانيا: غارة ملك قبرص على طرابلس سنة (٧٦٩هـ):

وفي أول صفر من هذه السنة وصلت سفن التحالف الصليبي في حملة جديدة وهذه المرة كانت تقصد مدينة طرابلس في مائة وثلاثين مركبا متنوعة - وقيل مائة وواحد وسبعين مركبا - ما بين شيني وقرقورة وغراب وشختور* وكان ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان هو قائد الحملة ومعه

٦٥ - المصدر السابق - ص ١٠٥ وص ١٠٦ وص ١٠٧ - وعاشور - د. سعيد عبد الفتاح - قبرص والحروب الصليبية - الطبعة الثانية (٢٠٠٢م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ٦٦ وص ٦٧ وص ٦٨.

- المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الأول ٦٦ - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٠٧.

* الشيني: وجمعه شواني، وهي من أهم السفن في العصور الوسطى التي استخدمها المسلمون في العصور الوسطى، واتصفت بـ كبر الحجم وما بها من أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وكان متوسط ما يحمله الشيني ١٥٠ رجلا من المقاتلين، ويجذب بمائة مجذاف. القرقور أو القرقورة: وجمعها قراقير، وهي نوع من السفن الكبيرة التي كانت تستعمل في تموين الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة وهي متعددة الشرع والصواري ومنها كان يحتوي على ثلاثة ظهور وكانت تحتوي على ساحات قتال في المقدمة أو في المؤخرة.

الغراب: وجمعه أغربه وغربان، وهي نوع من المراكب سمي بهذا الاسم لأن رأسه يشبه رأس الغراب، وكان يحمل الغزاة ويسير بالقلع.

الطراد والطريدة: نوع من المراكب الحربية الخفيفة السريعة الكر والفِر.

الشختور: نوع من السفن الضخمة.

ملك جزيرة رودس، وفرسان الإسبتارية، وكان نائب طرابلس غائباً، ولكن المسلمون تصدوا لهم وقاتلوهم قتالاً شديداً ولكن لم يتمكنوا من صدهم فدخل الصليبيون المدينة وفر أهل طرابلس إلى الجبال، وفي انشغال الصليبيين بالسلب والنهب في المدينة أتت النجدة من المدن المجاورة واشتبكوا مع الصليبيين فقتلوا منهم نحو الألف واستشهد من المسلمين أربعين رجلاً، وفر الصليبيون من المدينة تاركين ما سلبوه ونهبوه ورجعوا خائبين.

ولكن بطرس ملك قبرص رفض أن يعود إلى مملكته قبرص خائباً فأراد أن يغير على مدينة إياس في مائة قطعة من السفن، ولكن الأمير منكلي بغا نائب حلب سار إلى المدينة ومعه العساكر وكان أهل إياس قد فروا منها فدخلها الصليبيون وتمكن بطرس الأول من الاستيلاء على قلعة المدينة الخارجية وأخذ يعد العدة للاستيلاء على قلعة المدينة الداخلية، ولكن لما علموا أن نائب حلب قد أتى لمحاربتهم جلوا عنها مسرعين. ٦٧

ثالثاً: غارة الرئيس محمد التازي المغربي على سفن الفرنجة سنة (٧٦٩هـ):

وفي هذه السنة قدم الحاج محمد التازي المغربي ريس البحر وتسلم من الشواني التي صنعها وعمرها الأمير يلبغا الخاصكي غراباً كامل العدة وآلات الحرب وشحنه بالمقاتلة من رجال المغرب، وأخذ غريباً آخر من الإسكندرية كامل العدة وآلات الحرب ومضى إلى البحر وهجم على بعض سفن الفرنجة وتمكن من أسر سفينة بندقية قام بإرسالها إلى الإسكندرية وذلك بعد أن حجز معه رجالها من الفرنجة، ثم حاول الإغارة على ميناء

فاما جوستا بجزيرة قبرص، ولكن السفن القبرصية تكاثرت عليه ففر قافلا إلى الإسكندرية، فقد عاد إليها بعد غيبة ثلاثة وعشرين يوما ومعه خمسة وثلاثون أسيرا من الفرنجة بينهم راهب طاعن في السن وكميات كبيرة من الغنائم فاستقبله جماعة من الأمراء بتجمل عظيم فخرج الناس للقاءه وسروا به فمثل بين يدي السلطان فخلع عليه وأنعم عليه بجميع ما أحضره من الغنائم، وكان قدومه يوم ٢٩ من شعبان. ٦٨

رابعاً: فتح مدينة سيس سنة (٧٧٠هـ):

وفي أول شوال تمكن الأمير قشتمر نائب حلب من فتح مدينة سيس أعظم مدن مملكة أرمينيا الصغرى، ثم عاد إلى مدينة حلب، ولكن الأرمن تمكنوا من استعادة المدينة مرة أخرى بعد عودة قشتمر إلى حلب. ٦٩

خامساً: غارة الصليبين على مدينتي صرفند و صيدا سنة (٧٧٠هـ):

وقد أخذت الهجمات الصليبية على شواطئ دولة المماليك ومدنهم الساحلية شكل القرصنة، فقد هجم أحد القراصنة ويدعى حنا الصوري على مدينة بدة صرفند فقتل من أهلها ثلاثين وأسر ثلاثة عشر. ٧٠

٦٨ - المصدر السابق - ص ١٥٩.

٦٩ - المصدر السابق - ص ١٧٢.

٧٠ - عاشور - د. سعيد عبد الفتاح - قبرص والحروب الصليبية - الطبعة الثانية (٢٠٠٢م)

- الهيئة المصرية العامة للكتاب - ص ٧٨.

ثم أقام اخوان جنويان بالإغارة على مدينة صيدا في عدة مراكب فحاربهم المسلمون وردوهم خائبين، فقصدا مدينة الإسكندرية في أربع قطع ورموا المدينة بالمنجنيق ووجدوا سفينة إسلامية مليئة بالبضائع ومستعدة للسفر إلى طرابلس الغرب، فأسراها وعادا بها إلى فاما جوستا - ميناء جزيرة قبرص - بعد أن قتل منهم نحو مائة، وقد استاء السلطان شعبان من هذه القرصنة التي تقوم بها جزيرة قبرص وقد عزم على الرد على هذه الغارات بالمثل.

سادسا: فتح مدينة سيس للمرة الثانية سنة (٧٧٦هـ):

وفي هذه السنة تم فتح مدينة سيس للمرة الثانية، ولكن هذه المرة كان الفتح فتح كامل، فقد توجه إلى المدينة نائب حلب الأمير أشقتمر بعسكر وجنود حلب وحاصر التكفور - ملك سيس - مدة شهرين كاملين حتى ألجأه إلى طلب الأمان وذلك بعد فنيته من عنده الأطعمة والأزواد وعجزهم عن القتال، فتم تسليم قلعة المدينة للأمير أشقتمر وأعلن في مدينة سيس بكلمة التوحيد والإسلام، ورتب فيها العسكر لحماية المدينة وحفظها، وتم التحفظ على التكفور وأمراءه وكبار جنوده فعاد بهم إلى حلب وجهازهم إلى القاهرة، فبعث السلطان شعبان الأمير يعقوب شاه لنيابة سيس، وبهذا الفتح تم القضاء ونهائيا على مملكة الأرمن الصليبية في منطقة أرمينيا الصغرى، وتم تأمين حدود السلطنة التجارية والسياسة من جهة شمال حدودها على آسيا الصغرى، وقد كان هذا الفتح في شهر ذي القعدة. ٧١

٧١ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دولة الملوك - الجزء الثالث - القسم الأول - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفناح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٢٣٧ و ٢٣٨.



حدود دولة المماليك البحرية

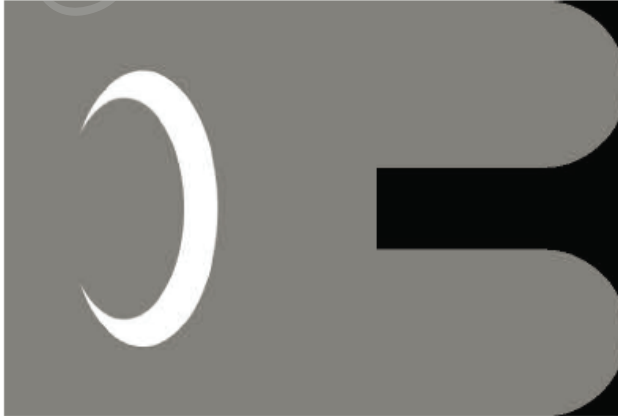
٢٦- سلطنة الملك المنصور علي بن الملك الأشرف شعبان (٧٧٨هـ - ٧٨٣هـ):

تولى بعد خلع أبيه وقتله في يوم الإثنين ٥ ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ، وكان عمره حينئذ سبع سنين!! وكان نائبه على السلطنة أقتمر عبد الغني، واستمر الملك المنصور في السلطنة إلا أن توفي في يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٧٨٣هـ، وكان عمره ١٢ سنة، ولم يكن له من أمر السلطنة شيء سوى الاسم فقط.

٢٧- السلطان الصالح صلاح زين الدين حاجي بن الأشرف شعبان (٧٨٣هـ - ٧٨٤هـ):

ولي أمر السلطنة بعد وفاة أخيه المنصور يوم الإثنين ٢٤ من صفر سنة ٧٨٣هـ، وعمره قد تجاوز العشر سنوات، ونائبه على السلطنة هو برقوق العثماني وهو السلطان الحقيقي لمصر والشام ولم يرضى أمراء المماليك بما يحدث فكثرت الفتن في الشام ومصر وطلبت منه المراء أن يتولى برقوق العثماني أمر السلطنة، وفي يوم الأربعاء ١٩ من شهر رمضان سنة ٧٨٤هـ خلع السلطان الصالح حاجي خليفة وتولى بعده برقوق.

وبخلع السلطان الصالح صلاح الدين حاجي وتولي الظاهر برقوق تنتهى دولة المماليك البحرية الأتراك لتبدأ دولة المماليك الثانية، وهي التي عرفت في التاريخ الإسلامي باسم دولة المماليك البرجية، والتي ستظل تحكم بلاد مصر والشام، وبلاد الحجاز، وأجزاء من آسيا الصغرى حتى سقوط دولتهم على يد السلطان العثماني سليم الأول سنة ٩٢٣هـ.



شعار دولة المماليك البحرية

@booka.

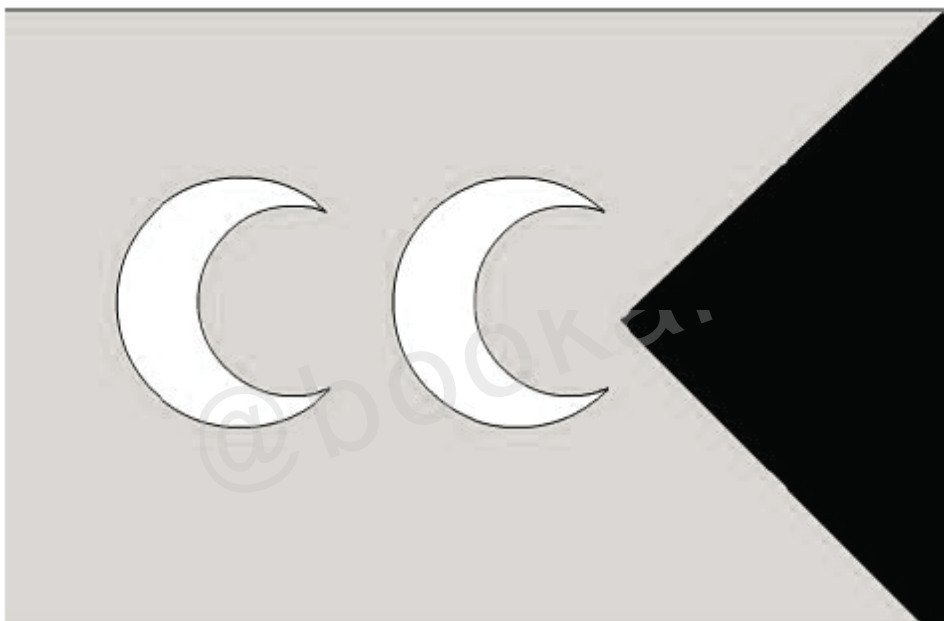


الفصل الثالث

(دولة المماليك الثانية)

المماليك البرجية

٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ



شعار دولة المماليك

وسميت هذه الدولة بدولة المماليك الشركسية، وذلك لتغلب عنصر جديد في حكم المماليك وهو العنصر الشركسي على العنصر التركي، وسموا كذلك بالبرجية لأن سلاطين هذه الدولة سكنوا أبراج القلعة هم ومماليكهم، وقد ظل هؤلاء الشراكسة يحكمون دولة المماليك حتى قضى على دولتهم آل عثمان سنة ٩٢٣هـ، لتنتهي بذلك دولة المماليك في مصر والشام، وكان أول سلاطين هذه الدولة هو:

١- السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بن أنص العثماني (٧٨٤هـ - ٧٩١هـ):

وهو أول السلاطين الشراكسة جلبه خواجا عثمان بن مسافر فاشتراه منه الأتابك يلبغا العمري الخاصكي ثم أعتقه وجعل ضمن صغار مماليكه ولا زالت حاله تترقى من وظيفة إلى أخرى حتى تمكن من الوصول إلى نيابة السلطنة للملك الصالح حاجي، ثم قام بعد ذلك بخلع وتولى السلطنة في يوم الأربعاء ١٩ من رمضان سنة ٧٨٤هـ، ثم انه اتفق كلا من منطاش الأتابك ولبغا الناصري اليلبغاوي نائب حلب على خلع السلطان الظاهر برقوق وتمكنا من ذلك بعد هزيمة عسكر السلطان فاختمى السلطان في بيت أحد أصحابه أسمه أبي يزيد بن مراد، ولكن تم الوصول إليه والقبض عليه فأخذ إلى القلعة وحبس في الإصطبل السلطاني ثلاثة أيام، ثم أخرج إلى مدينة الكرك فحبس بها إلى أن أخرج منها وعاد إلى السلطنة مرة أخرى.

حركة الجهاد في عهد السلطان الظاهر برقوق:

أولاً: غارة الفرنج على مدينة إياس سنة (٧٨٥هـ):

فقد حاول الصليبيون أن يغيروا على مدينة إياس الساحلية، فنزلوا بالعمق على مقربة من المدينة في البحر بشوانيهم - سفنهم الحربية - فخرج للقائهم الأمير يلغا الناصري نائب حلب، وقد ورد كتاب من نائب اللاذقية بوصول الفرنج إلى بيروت وأنهم نزلوا البر وملكوا بعض أبراج المدينة، ولكن أدركهم العسكر الشامي ومعهم طائفة من الرجالة الأكراد فقاتلوهم، فأيد الله المسلمين بالنصر فقتلوا من الفرنج خمسمائة رجل، وانهزم باقيهم إلى مراكبهم وفروا في البحر، وعادت العساكر الشامية إلى بلادهم. ١.

ثانياً: خروج سفن السلطان للغزو في البحر سنة (٧٨٧هـ):

وفي يوم ١٨ من ربيع الآخر خرجت شواني السلطان بقيادة الأمير أطنبغا الجوباني من ساحل مصر نحو دمياط وهي مشحونة بالمقاتلين والعدة وآلات الحرب لغزو بلاد الفرنج، وظلت الشواني في البحر حتى يوم الأربعاء ١٧ من جمادى الآخرة فقد قدم الخبر بأن شواني السلطان وجدوا مركباً فيه مقاتلون فرنج من الجنوبية، فتمكنوا من أخذ المركب وأسروا من الجنوبية خمسة وثلاثين رجلاً، وقتلوا منهم جماعة أخرى.

١ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الثاني - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٩٩.

وفي يوم ٢١ من جمادى الآخرة قدمت شواني الأمير الطنبغا الجوباني إلى شاطئ النيل ببولاق خارج القاهرة محملة بالأسرى والغنائم، فعرضت الأسرى من غد اليوم التالي على السلطان. ٢

ثالثا: غارة الفرنج على مدينة طرابلس سنة (٧٨٩هـ):

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة ورد الخبر من بلاد الشام بنزول الفرنج على مدينة طرابلس بمراكبهم من أجل السلب والنهب وقتل وأسر أهل المدينة، ولكن عساكر المسلمين حاربوهم فتمكنوا من رد الفرنج، بل وغنموا منهم ثلاثة مراكب وقتلوا جماعة كثيرة منهم. ٣

٢- السلطان المنصور حاجي وهي سلطنته الثانية (٧٩١هـ - ٨١٤هـ):

وكان عوده إلى سلطنته للمرة الثانية في يوم الإثنين جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ اتفق جميع الأمراء المماليك على تولية السلطان حاجي مرة ثانية ولكنه غير لقب سلطنته من الملك الصالح إلى الملك المنصور، وكان نائبه على السلطنة هو الأتابك يلبغا الناصري، ثم حدث أن منطاش الأتابك تغير على يلبغا الناصري فقام عليه بجملة من الأمراء فتمكن من هزيمة يلبغا الناصري وصعد إلى باب السلسلة من قلعة الجبل، وسكن مكان يلبغا

٢ - المصدر السابق - ص ٥٣٣.

٣ - المصدر السابق - ص ٥٦٢.

واستبد بالملك، ثم خرج برقوق من محبسه بالكرك واجتمع عليه الأمراء والناس والتقى بمنطاش في شقحب - ضاحية من ضواحي دمشق - فانهزم منطاش وهرب إلى دمشق، واستولى برقوق على الملك المنصور والخليفة والقضاة ودخل السلطان برقوق إلى مصر في يوم الثلاثاء ١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ وخلع المنصور وألزم داره بقلعة الجبل حتى أقعد وتكسح في ليلة الأربعاء ١٩ شوال سنة ٨١٤هـ ودفن في تربة جدته خوند بركة أم الأشرف شعبان.

٣- السلطان الظاهر برقوق وهي سلطنته الثانية (٧٩٢هـ - ٨٠١هـ):

فتولى سلطنته للمرة الثانية في يوم الثلاثاء ١٤ صفر سنة ٧٩٢هـ فأخذ يتتبع أعدائه ومنافسيه على السلطنة حتى تمكن من تصفيتهم عن آخرهم، فكان أولهم منطاش الأتابك وآخرهم مملوكه علي باي الخازندار والذي كان من خواصه فركب لكي يخلع السلطان برقوق في سنة ٨٠٠هـ، ولكن برقوق تمكن من القبض عليه وقتله وبعدها بأشهر قليلة مرض السلطان برقوق ومات في ليلة الجمعة ليلة النصف من شعبان سنة ٨٠١هـ.

٤- السلطان الناصر زين الدين أو السعداء فرج بن برقوق بن أنص (٨٠١هـ - ٨٠٨هـ):

تسلطن يوم وفاة والده السلطان برقوق في يوم الجمعة النصف من شهر شعبان سنة (٨٠١هـ) وكان عمره حينئذ دون العشر سنين ! وكان مدبر ملكه هو الأتابك أيتمش، ووقعت الفتنة بين المماليك الظاهرية - مماليك الظاهر برقوق - وانقسموا إلى فرقتين، فرقة مع أيتمش وهم كبار المماليك،

وفرقه مع يشبك الخازندار وهم صغار المماليك، وانتهت الفتنة بوقوع الحرب بين الطرفين وانهزام المماليك الكبار بقيادة أيتمش، واستمرت الفتنة بين المماليك الظاهرية فأفنوا بعضهم بعضا تفتيلا وحبسا، واستمر هذا الحال لسنين وخربت غالب الديار المصرية حتى مل السلطان الناصر فخرج من القلعة تاركا السلطنة، وكان ذلك في يوم الأحد ٢٥ شهر ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ ولم يعرف له جهة ولا مكان.

حركة الجهاد في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق:

أولا: ظهور القان تيمور لنك واجتياحه للشرق ودخوله إلى الشام سنة (٨٠٣هـ):

فقد ظهر أمر تيمور لنك واكتسح ممالك المشرق كلها فقد دخلت جيوشه سمرقند وبغداد ونازل الملوك والسلطين ولم يصمد أمام أحد، ولم يبق أمامه سوى بلاد الشام ومصر وقد أرسل رسله إلى السلطان الظاهر برقوق، ولكن السلطان قام بقتل الرسل ثم جهز الجيوش من أجل محاربة تيمور لنك، ولكن حدث أن انشغل تيمور لنك بثورة على نوابه في بلاد الهند فعاد إلى الهند من أجل إخماد هذه الفتنة.

ولما علم تيمور لنك أن الظاهر برقوق قد مات قام بإعداد الجيوش من أجل غزو بلاد الشام، فقدمت جيوشه في ربيع الأول ونزل بظاهر حلب، فخرج نائب طرابلس بسبع مائة فارس إلى جيش تيمور لنك، وهم نحو ثلاثة آلاف، وترامى الجمعان بالنشاب، ثم اقتتل الفريقان، وتمكن

المسلمون من القبض على أربعة من التتار، ثم عاد الفريقين إلى أماكنهم ، وتم توسيط - قطع الشخص من نصف جسمه - الأربعة التتار على أبواب مدينة حلب، ثم نزل تيمور لك على عينتاب، وأرسل إلى نائب حلب دمرداش يعده بأن يظل على نيابة حلب إن هو سلم المدينة دون حرب، وكانت عزائم الأمراء المماليك في غاية الوهن والخوار، ولكن دمرداش نائب حلب قام بضرب عنق الرسول، فقام تيمور لك بالنزول على جبلان خارج حلب يوم الخميس ٩ من ربيع الأول، وزحف يوم الجمعة وحاصر سور حلب، وحدثت وقعة مهولة بين جيش تيمور لك ونواب الشام انتهت بهزيمة المماليك هزيمة منكورة، فدخلت جيوش التتار المدينة وقامت بأبشع الجرائم من قتل وحرقت حتى تكومت جثث النساء والأطفال والعزل من الرجال وأصبحت بطول قامة، وأتوا على مدينة حلب بكاملها بالحرقت والتخريب، وتم التعدي على النساء والبنات وكثر الهرج في المدينة والكل يسعى للخلاص بنفسه، واستمر هذا الحال من صباح يوم السبت إلى يوم الثلاثاء ولا أحد يصددهم ولا يدفعهم، وأما النواب من الأمراء ومعهم العساكر والجنود فقد اعتصموا بقلعة المدينة، وقد أحاط بهم جنود تيمور لك حتى تمكنوا من نقب القلعة من عدة جهات فطلب النواب النزول على الأمان، فأمنهم تيمور لك ٤ ثم رحل عن المدينة بعد أن دمرها تماما وتركها قاعا صفصفا.

ثم قام مرزه شاه ابن تيمور لك بالاستيلاء على مدينة حماة، فقد نزل على المدينة وأحاط بسورها وقامت جنوده بنهب خارج المدينة وسبي الأطفال والنساء وأسر الرجال وخرّبوا جميع ما كان خارج سور المدينة،

٤ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الثالث - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - من ص ١٠٣١ إلى ص ١٠٣٤ .

ومع ذلك ظلت القلعة ممتنعة على مرزّه شاه، فأعطى أهل المدينة الأمان ففتحوا له بابا واحدا وقدم له أهل المدينة أنواع الطعام المختلفة فقبلها منهم، وترك على المدينة رجلين ليديرا شؤون المدينة، ولكن نزل الجنود من القلعة بالليل فقاموا بقتل هذين الرجلين، وغضب مرزّه شاه وأشعل النار في المدينة واقتحمها وأكثر القتل في أهل المدينة حتى أصبحت حماة مثل حلب خراب خالية من أهلها. ٥

ثانيا: معركة دمشق وهزيمة السلطان الناصر فرج أمام تيمور لنك سنة (٨٠٣هـ):

وفي يوم ٦ من جمادى الأولى قدم السلطان إلى دمشق لتدارك الموقف ورد جيوش تيمور لنك عن دمشق والتي نزلت إلى البقاع، وفي يوم ١٠ من الشهر حدث قتال خفيف بين بعض فرق السلطان وبين فرقة من جيش تيمور لنك، وفي يوم السبت نزلت جيوش تيمور لنك إلى إحدى قرى دمشق وتدعى قطنا فملأت جيوشه الأرض، ونزلت طائفة من عسكر السلطان وقاتلت عسكر تيمور لنك، وخرج السلطان من مدينة دمشق يوم الثلاثاء ١٨ من جمادى الأولى لملاقاة جيش تيمور لنك فكانت الهزيمة على السلطان وجنوده، فقد انكسرت ميسرة جيش المماليك وحملت جنود تيمور حملة كبيرة لأخذ مدينة دمشق، ولكن جنود السلطان تمكنوا من دفع جنود تيمور فلم يمكنهم من دخول المدينة.

وفي تلك الأثناء اختلف الأمراء المماليك بالقاهرة على السلطان فأردوا أن يخلعوا السلطان ويولوا مكانه أمير من المماليك الشراكسة يدعى الشيخ

لاجئين الشركسي، فركب السلطان ومن معه من الأمراء وتركوا المدينة لمصيرها ورحلوا إلى الديار المصرية وهم يسابقون الزمن لمنع الأمراء الخائنين من خلع السلطان، وتمكن السلطان من إدراك هؤلاء الأمراء في مدينة غزة فأخذهم معه، ودخلوا جميعاً مصر في أسوأ حال من ضياع السلاح والأموال والخيول، ومنهم من دخل البلد وهو عريان تاركين مصير بلاد الشام بيد أهلها يدافعون عن أنفسهم أمام جيوش تيمور لنك. ٦

وكان من مصير دمشق أن جنود تيمور لنك دخولها في يوم الأربعاء آخر رجب فنهبوا المدينة وسبوا نساء المدينة كلها، وأسروا الأولاد والرجال وتركوا من الأطفال ما كان عمره دون خمس سنين، ثم أضرموا النيران في المنازل في يوم عاصف فاسرع ذلك من انتشار النيران في المدينة، واستمرت النار في المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يوم الجمعة، ثم رحل تيمور لنك في يوم السبت ٣ من رجب ومعه الأموال والأسرى والسبائا بعد أن أقام في المدينة مدة ثمانين يوماً كاملة، وقد احترقت المدينة بأكملها والجثث قد ملأت أرض دمشق كلها. ٧

ثالثاً: غارة الفرنج على مدينة طرابلس سنة (٨٠٤هـ):

وفي هذه السنة قدم مركب فيه عدة من الفرنج من أجل الغارة على مدينة طرابلس مستغلين حالة الفوضى في بلاد الشام، فخرج المسلمون لردهم وكان بالميناء مراكب لتجار الفرنج، فاجتمعت المراكب كلها وحاربت مراكب المسلمين وقصدوا المراكب التي شحنت بالبضائع وجهزت من أجل

٦ - المصدر السابق - ص ١٠٤٠ وص ١٠٤١ وص ١٠٤٥ .

٧ - المصدر السابق - ص ١٠٥١ .

الإبحار، فتمكنوا من أخذ مركبين فيهما مال كثير وأسروا خمسة وثمانين مسلما، وذلك بعد أن قاتلوا قتالا شديدا، وغرق جماعة وفر جماعة ثم أصبح الناس من أجل الحرب من جديد، وتم الاتفاق مع الفرنج على فك الأسرى مقابل مال يحصلون عليه، فلما حمل إليهم بعض المال فقام الفرنج بأسر الرجل ومضوا ونزلوا على قرية فقاتلهم أميرها فتمكن من القبض على الفرنجة وجاء بهم إلى طرابلس فسجنوا بها، وأخذ المسلمون مركبهم ٨.

رابعاً: غارة الفرنج الثانية على طرابلس سنة (٨٠٦هـ):

أراد الفرنج أن يثأروا مما لحقهم من الهزيمة على يد أهالي طرابلس، فنزلت على المدينة حوالي ثلاثين شينيا وقراقر، وكان أمير المدينة دمرداش غائبا عن المدينة فقاتلهم الناس قتالا شديدا، وقد وصل خبر نزول الفرنج إلى دمرداش وهو بنواحي بعلبك فاستنجد بالأمير شيخ نائب الشام وتوجه إلى طرابلس، ونودي في مدينة دمشق بالنفير العام فخرج الناس من أجل الجهاد، ومضى الفرنجة إلى بيروت بعد حرب شديدة مع دمرداش والمسلمون قتل فيها من المسلمين اثنان وجرح جماعة منهم، ووصل الأمير شيخ إلى طرابلس وكان أمر الحرب قد قضى وانتهى، فسار إلى بيروت فوصلها في وقت الظهيرة والحرب دائرة بين الفرنجة والمسلمون من يوم أمس وقتل الفرنجة مطروحين على الأرض فأمر بحرق جثثهم، ثم تبع الفرنجة إلى صيدا، فقد توجهوا إلى هناك بعدما تمكنوا من حرق عدة مواضع وأخذوا مركبا قدم من دمياط وعليه بضائع قيمة، وقام أهل صيدا بحرب الفرنجة

فلحقهم الأمير شيخ وقت العصر وقتلهم بعد أن نزلوا من مراكبهم إلى البر فالحق بهم الهزيمة وفروا من أمامه إلى مراكبهم، فأبحروا إلى جهة طرابلس ومنها أبحروا إلى ميناء فامجوستا في قبرص. ٩

٥- السلطان المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨هـ - ٨٠٩هـ):

تسلطن بعد تسحب أخيه من القلعة وذلك في وقت العشاء الآخرة من ليلة الإثنين ٢٦ من ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ فقد كانت وصية أبيه أن يكون ولي العهد بعد أخيه فرج ولهذا تولى السلطنة بناء على هذه الوصية وكان وقتها دون سن الحلم وأمره في السلطنة ضعيف ولا يلتفت إليه، وكثرت المفاسد في الديار وأخذت المماليك يبحثون على الملك الناصر فرج ولاسيما الأمير يشبك الشعباني الدوادار وحتى الملك المنصور عز الدين نفسه بحث عن أخيه، والذي كان مختفياً قتها عند أحد أصحابه وهو سعد الدين إبراهيم بن غراب فقام بإعلام الأمير يشبك بوجود السلطان عنده ففرح بذلك أشد الفرح فأخذ يمهّد الأمور لعودة السلطان فرج إلى سلطنته مرة أخرى، وفي ليلة الجمعة ٤ جمادى الآخرة سنة ٨٠٨هـ ظهر الملك الناصر فرج من بيت سودون الجمزاوي أحد مماليك الظاهر برقوق فتجمع عليه الأمراء والمماليك السلطانية فحارب المماليك فانهزموا من أمامه وصعد إلى قلعة الجبل فخلع أخاه المنصور وأحسن إليه، وأقام بقلعة الجبل ثم أخرجه الناصر إلى مدينة الإسكندرية وصحبته أخيه إبراهيم، ومات المنصور في ليلة الإثنين ١٧ ربيع الآخر سنة ٨٠٩هـ.

٦- سلطنة الناصر فرج بن برقوق وهي سلطنته الثانية (٨٠٩هـ - ٨١٥هـ):

وفي سلطنته الثانية أخذ الناصر يقتل جميع المماليك الذين خرجوا عليه من مماليك أبيه الظاهر حتى بلغ حد الإسراف وقيل أن من قتل على يديه من المماليك قد بلغوا الألف، ووقعت الحرب بين الناصر وبين نوابه ببلاد الشام وعند اللقاء عصته مماليكه وتركوه في الحرب فلم يثبت الناصر وانكسر عسكره وانهزم الناصر إلى دمشق ومعه ثلاثة فقط وكان ذلك في ليلة الأربعاء ١٥ من المحرم سنة ٨١٥هـ، واستولى المماليك بعد انهزام الناصر على الخليفة والقضاة، وقاموا بتولية الخليفة أمر السلطنة، والناصر مع ذلك مستمر في الحرب والقتال حتى تمكنوا منه بالأمان في ليلة الإثنين ١١ صفر سنة ٨١٥هـ، ولكنهم أخذوه وقيده وحبسوه بقلعة دمشق ثم أعطوه للمشاعلية الذين يتولون عملية الإعدام، فقتلوه بالسكاكين في ليلة السبت ١٦ من صفر ثم ألقوا بجثته على المزبلة وهو عاري البدن وكان الناس يمرون عليه حتى حمل بعد أيام فغسل وكفن ودفن بمقبرة باب الفراديس بمرج الدحداح.

حركة الجهاد في عهد السلطان الناصر فرج الثانية:

أولاً: غارة الفرنج على مدينة الطينة سنة (٨١٤هـ):

في البداية كانت الحرب بين طائفة الكتيلاية وطائفة الجنوية عند ميناء الإسكندرية فكان قتالا عظيما بينهما، وظن أهل الإسكندرية أنها خدعه

من الفرنجة من أجل الهجوم عليهم، ولكن الأمر قمادى بين الطائفتين وكثر القتل بينهما حتى بلغ نحو الألفين، عندها اطمأن أهل الإسكندرية، وكان من الجنويين رجل معروف بالعتو والسطوة الشديدة وكان يدعى البسقلوني وقد أسر على يد الكتيلاية فقاموا بتسليمه للسلطان، وحمل بالحديد إلى قلعة الجبل، فألزمه السلطان بغرامة مالية ثقيلة مقدارها مائة وخمسين ألف دينار فذكر له البسقاوي أن ماله كله مع الجنويين، فطلب أن يرأسهم في طلب المال فلم يرضوا أن يعطوه هذا المبلغ الضخم، فقبض السلطان على جميع تجار الفرنج الموجودين بالإسكندرية، فغضبت الجنوبية وأبحروا بمراكبهم إلى مدينة الطينة فسبوا النساء والأولاد بعد أن حاربوا أهلها، وقد خرجت طائفة من مدينة دمياط لنجدتهم، ولكن بعد أن أخذ الفرنج المال والأسرى وأموال التجار أيضا وفروا بهم، فصالح السلطان الجنوبية على أن يترك البسقاوي مقابل ستين ألف دينار فقط فقبلوا منه ذلك. ١٠

ثانيا: الغارة ثانية على مدينة الطينة سنة (٨١٤هـ):

ويبدو أن الفرنج قد غيروا وجهة غاراتهم وقرصنتهم من الإسكندرية إلى الطينة، فقد أصبح من الصعب الهجوم على الإسكندرية بعد أن تم تحصينها جيدا بالإضافة إلى يقظة أهلها فوجهوا قرصنتهم إلى الطينة، فقد نزلت أربعة أغربة وبيونيين - نوع من السفن له جدران مرتفعة - في ٢٢ من شوال وعليها عدة من المغامرين الفرنجة، فقاتلهم المسلمون على البر

١٠ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الأول - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٨٢ .

فجرح منهم جماعة وقتلت خيولهم، فمضى الفرنجة في آخر اليوم إلى بر مدينة الطينة القديم ونهبوا ما وقعت أيديهم عليه فيه، ثم عادوا في اليوم التالي إلى نفس المكان السابق فخرج للقائهم غراب من أغربة المسلمين ولكن تمكنت مراكب الفرنجة من أن يحيطوا به فألقى المسلمون بأنفسهم في الماء ولكنهم تمكنوا من الوصول إلى البر بأمان لقرب مركبهم منه، ثم مضوا إلى دمياط وتكاثر المسلمون على الفرنجة وتمكنوا من استعادة غراب المسلمين بعد قتال وجهد شديد وقتلوا من الفرنجة اثنان وأخذوا سلاحهم وانهزم باقي الفرنج، وحملت رأسا الفرنجيين إلى السلطان. ١١

٧- الخليفة العباسي والسلطان المستعين بالله العباس بن المتوكل (٨٠٨هـ - ٨١٥هـ):

تولى السلطنة مع الخلافة باتفاق أمراء المماليك بعد مقتل السلطان الناصر فرج على كره منه بعد أن اشترط عليهم عدة شروط فقبلوها جميعا، فلما عاد إلى القاهرة سكن في قلعة الجبل وجعل الأتابك شيخ المحمودي

نائب السلطنة والمدبر لأمر الدولة، ثم قام شيخ المحمودي بخلع الخليفة المستعين غصبا بعد أن جمع القضاة من أجل ذلك وتحفظ عليه بقلعة الجبل، ثم خلعه من الخلافة أيضا بأخيه المعتضد داود يوم الخميس ١٦ ذي الحجة سنة ٨١٦هـ، واستمر في قلعة الجبل مدة ثم حمل إلى الإسكندرية فسجن بها سنين كثيرة إلى أن تولى السلطان الأشرف برسباي فأخرجه من السجن وأسكنه بالإسكندرية إلى أن توفي بالطاعون يوم الأربعاء ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٨٣٣هـ.

٨- السلطان المؤيد أبو النصر شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري (٨١٥هـ - ٨٢٤هـ):

كان من مماليك الظاهر برقوق وأصله شركسي الجنس، وقد اشتراه من خوجا محمود شاه اليزيدي ثم أعتقه وأخذ يرقيه من رتبة إلى أخرى حتى جعله ساقيا ثم أمير عشرة ثم طبلخاناه، وولي عدة ولايات منها ولاية طرابلس، ثم أصبح أتابك للخليفة المستعين ثم خلعه وتسلم في يوم الإثنين مستهل شهر شعبان سنة ٨١٥هـ ثم أصابه مرض ألم المفاصل والذي أخذ يتزايد عليه مع مرور الأيام ثم توالى عليه الأمراض فلزم الفراش أشهراً إلى أن مات في يوم الإثنين ٩ من المحرم سنة ٨٢٤هـ.

حركة الجهاد في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي:

أولاً: استعادة مدينة طرسوس سنة (٨١٨هـ):

وفي ١٣ من المحرم من هذه السنة أرسل نائب حلب أن الأمير أحمد بن رمضان الشهابي الحلبي تمكن من استعادة مدينة طرسوس، وذلك بعد حصار طويل دام سبعة أشهر كاملة وأنه سلمها بعد أن دخلها عنوة إلى ولده إبراهيم، وكانت مدينة طرسوس قد استولى عليها تيمور لنك عندما غزا بلاد الشام، فلما مات استولى عليها محمد بك بن قرمان سلطان إمارة قرمان في جنوبي الأناضول، وقد انقطعت الخطبة فيها للمماليك مدة اثنتي عشرة سنة، فأعاد الأمير أحمد بن رمضان الخطبة فيها مرة أخرى لسلطان المماليك. ١٢

ثانيا: غارة الفرنج على مدينة الإسكندرية سنة (٨١٩هـ):

وفي ١٦ من جمادى الآخرة حدث أمر لم يكن متوقعا، فقد وصل الأمير صلاح الدين محمد الحاجب إلى مدينة الإسكندرية من أجل تحصيل الأموال فقد كان والده ناظر الخاص هو من أرسله وكانت وظيفته تحصيل أموال السلطان وتدبير أموره الخاصة فجلس في ديوان الخمس وهو ديوان اختص بتحصيل الضرائب من التجار الأجانب، فجاءه الخبر بأن ثمانية من مراكب الفرنج قد دخلوا إلى ميناء الإسكندرية ويريدون الهجوم عليه وعلى المدينة، ففر من وقته وفر الناس من ورائه، فهجم الفرنج على المدينة من جهة باب البحر فحاول العتالين أن يدفعوهم عن المدينة فتمكنوا من غلق باب البحر وقتلوا رجلا من الفرنج وقتل الفرنج نحو عشرين من المسلمين في المقابل وأسروا سبعين، وأخذوا ما قدروا عليه وحملوه إلى مراكبهم، ثم أتوا في الليل يريدون أن يملكوا السور، فترامى الفريقين حتى الفجر، وأخذ الكثير من المسلمين في الهرب بنسائهم وعيالهم من المدينة فمازلت ذكرى مذبحه المدينة من قبل ملك قبرص في أذهان الناس ماثلة أمامهم لم ينسوها بعد فخافوا أن تتكرر مرة أخرى، واستمر الترامي بين الفريقين إلى ليلة الجمعة من أعلى السور، وفي تلك الأثناء ومن سوء طالعهم ظهرت طائفة من المغاربة في مراكب لهم ومعهم زيوت وغيرها من تجارتهم، فقام الفرنج بتحويل هجومهم عليهم فقاتلوهم قتالا شديدا حتى تمكنوا من أخذهم قسرا، ثم ارتكبوا مجزرة وحشية في هؤلاء المغاربة حيث اقتادوهم إلى البر وقاموا بتقطيعهم إلى قطع، وأهل الإسكندرية ينظرون إليهم ولا يقدرّون على نجدتهم.

ولما وصل الخبر إلى القاهرة انطلق ناظر الخاص صاحب بدر الدين حسن بن نصر الله لينقذ ولده ومعهم الأمراء، وخرجت المتطوعة من المجاهدين بقيادة الشيخ أبو هريرة بن النقاش وكان خروجهم يوم الأحد ٢١ من هذا

الشهر فقدموا الإسكندرية ولكن كان الوقت قد فاتهم، فقد أقلع الفرنج ومعهم الأسرى وما سلبوه من التجار المغاربة التعساء فعادوا إلى القاهرة في آخر الشهر. ١٣

ثالثا: استعادة السلطان نفوذ المماليك في بلاد سويس سنة (٨٢٠هـ):

بعد أن استعاد السلطان مدينة طرسوس توجه إلى الأبلستين فنزل على النهر الأبيض في يوم ١١ من جمادى الأولى، وكان نائبه على حلب قد نزل على مدينة بغراض فقدم إليه ملك سويس ويدعى كريكون ومعه كبار مملكة الأرمن ومعهم مفاتيح قلعتي سويس وناورزا - هي قلعة عين زربة وتقع إلى الجنوب الغربي من سويس - فقام بإرسال كتاب السلطان يعلمه بما جري، فقام السلطان بتولية نيابة القلعة الشيخ أحمد أحد أمراء العشرات بحلب.

١٤

وكذلك تمكن السلطان من استعادة عدة مدن وقلاع مهمة في منطقة الأبلستين وما جاورها مثل «قلعة درنده، وقلعة طرسوس، وقلعة خندروس، وقلعة بهسنى، وقلعة كختا وقلعة كركر» وهكذا فقد عاد سلطان المماليك إلى هذه المدن والقلاع مرة أخرى بعد أن ضاع الكثير منها بسبب هجمات تيمور لنك والتركمان الذين حاولوا أن يكونوا إمارات مستقلة في هذه المناطق.

١٣ - المصدر السابق - ص ٢٦١ و ص ٣٦٢ .

١٤ - المصدر السابق - ص ٤٠٤ .

رابعاً: الحرب مع الملك قرا يوسف سنة (٨٢١هـ):

وكانت الحرب دائرة في بلاد العراقيين وديار بكر بين ثلاثة ممالك هم:

١- مملكة قرا قيونلو - الشاة السوداء التركمانية - ودولتهم في إقليم أذربيجان وحاضرتهم مدينة تبريز.

٢- مملكة آق قيونلو - الشاة البيضاء التركمانية - ودولتهم في إقليم ديار بكر.

٣- التيموريين في بلاد ما وراء النهر وخراسان وحاضرتهم سمرقند وهراة.

فقد كانت الحرب دائرة بينهم على بسط نفوذهم على مناطق العراقيين وما بعدها فبعد عودة تيمور لنك إلى بلاده ترك هذه البلاد في حالة فوضى فظهرت قبائل تركمانية كونا اتحادين الأول اتحاد قبائل الشاة البيضاء وقد كانت الشاة البيضاء حيوان مقدس لديها، والثاني اتحاد قبائل الشاة السوداء وهم أيضا كان حيوانهم المقدس هو الشاة السوداء، وقد تنافست هاتين الدولتين على مناطق العراقيين وديار بكر وكثرت الحروب بينهما ، فقام قرا يوسف بمحاربة الملك شاه رخ وتمكن من الوصول بجيشه إلى مدينة آمد، ففر من أمامه شاه رخ وعبر نهر الفرات معمقا إلى ما وراء النهر، فقام نائب حلب في شعبان بإرسال كتاب إلى السلطان بهذه الأخبار، فلما وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت أحوال السلطان وأمر بتجهيز تجريدة استعدادا لأي هجوم من قبل قرا يوسف على البلاد الحلبية.

ثم أتت الأخبار بعد ذلك بأن أهل حلب قد أخلو المدينة خوفا من قرا يوسف، وفي رمضان جاء البريد مع هجان ومعه أخبار أفرحت السلطان

فقد أخبر أن نائب حلب خرج لمحاربة جاليش - جيش - قرا يوسف، فتمكن من قتل جماعة من عساكره، وأن قرا سوف قد انكسر ورحل من حلب، فأرسل قرا يوسف إلى نائب حلب رسالة يقول فيها: «مالي عند بلاد السلطان شغل، وإما شغلي عند قرايلك، يقصد قرا عثمان بن طور صاحب مدينة آمد» فلما جاءت هذه الأخبار إلى السلطان هدئ باله قليلا.

ولكن كانت هذه الرسالة عبارة عن كخادعة من قرا يوسف للسلطان ففي شوال قام بالهجوم على مدينة عينتاب فدخلها ونهبها، وأحرق أسواقها، وقد أخلاها من أهلها، فزاد قلق السلطان وأراد السفر بنفسه إلى حلب لتدارك الموقف.

وفي شعبان أتت الأخبار أن قرا يوسف قد جمع جيشا كبيرا وأنه يريد التوجه إلى حلب والاستيلاء عليها فنادى السلطان بعرض الجيش والاستعداد للخروج من القاهرة، ولكن في ذي القعدة سنة ٨٢٣هـ أتت الأخبار بوفاة قرا يوسف بن قرا محمد بن بيرم خوجا، وقد كفي السلطان شره ولم يخرج الجيش لمحاربته وبوفاته انتهت فتنته. ١٥

خامسا: الحرب مع أمير قرمان والاستيلاء على مدينة قيسارية الروم سنة (٨٢٢هـ):

كان أمير دولة قرمان بقونية ويدعى محمد بيك بن قرمان قد أعلن العصيان على سلطنة المماليك وتعرض لبلاد الملك العثماني محمد جلبي

١٥ - الحنفى - محمد بن أحمد بن إياس - كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثاني - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ص ٣٩ و ص ٤٠ و ص ٥٥ و ص ٥٨.

فأحرق القرى والضياع، ثم أراد أن يتعرض لمدينة طرسوس ولكنه فشل في جميع محاولاته، فأرسل له السلطان ولده الأمير إبراهيم والذي تمكن هزيمة جنوده، ودخول مدينة قيسارية الروم في يوم الخميس ٩ من ربيع الآخر، فحضر إليه أكابر المدينة من القضاة والمشايخ والصوفية فتلقوه بالسُرور والفرح، فألبسهم الخلع، ثم طلع إلى قلعة المدينة في يوم الجمعة وأمر أن يخطب باسم سلطان مصر في جوامعها، ثم خلع على الأمير محمد بن قرمان وجعله نائب السلطنة بقيسارية الروم، فلما وصل خبر هذا الفتح أمر السلطان بدق البشائر بقلعة الجبل. ١٦

سادسا: الاستيلاء على مدينتي نكدة ولارندة سنة (٨٢٢هـ):

وفي يوم ١٨ من ربيع الآخر نزل الأمير إبراهيم ابن السلطان على مدينة نكدة وهي مدينة قديمة وصغيرة تبعد عن مدينة قيسارية مسيرة ثلاثة أيام فدخلها وقد تلقاه أهلها بالبشر والسُرور، وحاصر قلعتها بالمجانيق وجعل النقبون ينقبون سورها، وقام الأمير محمد بيك بن قرمان بالهروب هو وولده مصطفى من المدينة ومعه مائة وعشرين فارسا، وقد تمكن الأمير إبراهيم من أخذها عنوة في يوم ١٤ من جمادى الأولى بعد حصار دام سبعة وعشرين يوما، وقبض على مائة وثلاثة عشر رجلا فقيدهم وأقام عليها علي باك بن قرمان، ثم توجه منها إلى مدينة أركلي - هرقله - لارندة في يوم ١٦ من جمادى الأولى، فوصل إلى أركلي في يوم ١٨ من الشهر نفسه وتمكن من أخذها، ومنها إلى لارندة فوصلها في يوم ٢٨ من الشهر فتمكن من أخذها أيضا. ١٧

١٦ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الأول - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٩٢ وص ٤٩٨.

١٧ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الأول - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٤٩٧ وص ٤٩٨ وص ٥٠٢.

سابعاً: القبض على محمد بيك بن قرمان وحمله إلى القاهرة سنة (٨٢٢هـ):

وفي سنة ٨٢٢هـ أرسل السلطان المؤيد الأمير يشبك اليوسفي نائب حلب فتمكن من هزيمة طائفة من التركمان وأخذ ما معهم من أغنام وجمال وخيول، ثم أرسل السلطان الأمير ططر والأمير سودن القاضي نائب طرابلس، والأمير شاهين الزردكاش نائب حماة، والأمير مراد خجا نائب صفد، والأمير أينال الأزعري، والأمير جلبان رأس نوبة ومعهم جماعة من التركمان، فقد وصلت إليه أخبار عن وجود محمد بيك بن قرمان مختبئاً في جبال لارندة، فكبسوه في ليلة الجمعة ٦ من جمادى الآخرة، ففر منهم واستولوا على جميع ما في معسكره من خيول وجمال وأغنام وأثقال.

وفي رجب تحارب الأمير تنبك ميق العلاني نائب الشام مع مصطفى بن محمد قرمان، والأمير إبراهيم بن رمضان عند مدينة أضنة فانهمزما منه، وفي ١٦ من شعبان حاصر محمد بن قرمان ومعه ولده مصطفى وإبراهيم بن رمضان مدينة قيسارية فقام نائبها الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر بقتالهم وهزيمتهم ونهب ما معهم، فقد عمل ناصر الدين محمد حيلة على محمد بن قرمان بأن ترك بيوته فقام الأخير بالانشغال بنهب هذه البيوت فأعاد محمد بن دلغادر الكرة على بن قرمان فهزمه ففر منه إلى مغارة ومعه من يثق به من رجاله، فدل عليه رجل نصراني فقبض عليه، وقتل في هذه المعركة مصطفى ولد محمد بن قرمان وقطعت رأسه وأرسلت إلى السلطان بالقاهرة وقبض على محمد بن قرمان وحمل إلى القاهرة فوصلها في يوم الجمعة ١٦ من رمضان، وعلفت رأس مصطفى بن محمد بن قرمان على باب النصر. ١٨

ثامنا: سجن محمد بن قرمان بالقلعة سنة (٨٢٣هـ):

وفي أول شهر المحرم من سنة ٨٢٣هـ جلس السلطان المؤيد الشيخ بمجلسه في القلعة فحضر الأمراء والقضاة وأرباب الدولة وأحضر محمد بن قرمان وهو في القيد، ومعه الأمير داود بن دلغادر فأمر السلطان أن يقف داود بن دلغادر مع أمراء المماليك وهذا إعلانا عن رضاه عنه فأنعم عليه القماش والذهب، وأمر أن يؤخر محمد بن قرمان ثم السلطان قائما إلى القصر، وأحضر محمد بن قرمان فأجلسه وأخذ السلطان يلومه ويوبخه على أفعاله القبيحة من تعرضه لطرسوس وتخريبه للأموال والضياع، وخيانتة للملك محمد جلبي، فسأل محمد بن القرمان السلطان أن يعفو عنه، ثم قال له: «لمن يعطي مولانا السلطان البلاد؟» فضحك السلطان من كلامه وخفة عقله وقال له: «وما أنت والبلاد؟» ثم أمر به فاعتقل بالقلعة، وأمر السلطان محمد بن قرمان إلى نوابه في بلاده بقونية وما حولها يأمرهم أن يسلموا ما قد بقي بأيديهم منها إلى نواب السلطان وإلا قتل، فكتب بن قرمان ما أمره السلطان به.

تاسعا: إعلان إمارة قرمان دخولها في طاعة المماليك سنة (٨٢٣هـ):

وفي ٨ من صفر سنة ٨٢٣هـ أرسل أمير دولة قرمان الأمير علي بيك بن قرمان نائب سلطان المماليك على مدن لارنده، ونكدة رسول ومعه كتاب فيه أنه قد تمكن من أخذ مدينة قونية عاصمة القرمانيين، وأنه قد أقام الخطبة فيها باسم السلطان المؤيد، وضرب النقود المؤيدية، وهو يحاصر الآن قلعتها.

وفي يوم الجمعة ٧ من ربيع الأول عاد الأمير داود بن الأمير ناصر الدين

محمد بن دلغادر ومعه هدية إلى أبيه، ومعه قصاد علي بيك بن قرمان، ومعهم فرس بقماش وذهب، وكان معهم الأمير محمود العينتاي ناظر الأحباس من أجل تحليف نواب قلاع البلاد القرمانية وبلادها على تسليمها للسلطان. ١٩

وهكذا يكون نفوذ سلطنة المماليك قد امتد إلى أقصى مداه في بلاد الروم، فقد تمكن السلطان المؤيد شيخ محمود من الاستيلاء على بلاد ابن قرمان كلها والتي كانت « قيسارية الروم، ونكدة، وأركلي ولارندة وغيرها من المدن والقلاع » وبالتالي أصبح سلطان المماليك في مصر يحكم من مصر إلى بلاد الروم.

هل مات الأمير إبراهيم ابن السلطان مسموما سنة (٨٢٣هـ):

ويقال أن الانتصارات التي حققها الأمير إبراهيم بن السلطان والشجاعة الفائقة التي أبداهها جعلت أمراء المماليك يعجبون به، بل جعلتهم يفكرون في خلع السلطان المؤيد ويجعلون الأمير إبراهيم سلطانا مكانه، فعلم بذلك كاتب سر المؤيد ناصر الدين محمد بن البارزي فأخبر السلطان بما يدور بين أمراء المماليك، كان خبيث النفس فقد حسن للسلطان أن يسم ولده، ف قيل انه وضع له السم في الحلوى فأثر به واشتدت به العلة، فتوجهوا به إلى بولاق وهو محمول على محفة وأنزلوه بين البارزي، وقيل أن السلطان ندم على فعلته النكراء تلك وأرسل له الأطباء لعلاجيه ولكن لم ينفعه ذلك فقد بلغ السم من جسمه الغاية، ولما علم الأمراء أن الأمير في النزاع الأخير حملوه على أكتافهم من بولاق إلى القلعة، ومات الأمير

المسكين في ليلة الجمعة ١٥ من جمادى الآخرة ودفن في داخل القبة التي بناها السلطان داخل الجامع الذي بناه بجوار باب زويلة، وكثر الكلام في حق السلطان حتى دعا عليه الناس في وجهه عيانا. ٢٠

٩- السلطان المظفر أبو السعدات أحمد ابن المؤيد الشيخ المحمودي (٨٢٤هـ - ٨٣٣هـ):

تسلطن بعد وفاة أبيه بعهد منه في نصف النهار يوم الإثنين ٩ محرم سنة ٨٢٤هـ وعمره حينها سنة واحدة وثمانية أشهر وسبعة أيام!! وكان الأمير ططر هو مدبر أمر المملكة، ثم قام ططر بالتخلص من جميع الأمراء والمماليك الأقوياء فلما صفا له الأمر قام بخلع السلطان المظفر وتسلطن مكانه، وكان ذلك يوم الجمعة ٢٩ شعبان سنة ٨٢٤هـ، وتم التحفظ عليه بقلعة الجبل مدة ثم أمر بنقله مع أخيه إبراهيم إلى سجن الإسكندرية فظلا فيه حتى ماتا بالطاعون، وكان موت المظفر هذا في ليلة الخميس آخر شهر جمادى الأولى سنة ٨٣٣هـ.

١٠- السلطان الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر الظاهري (٨٢٤هـ):

تولى أمر السلطنة بعد أن خلع المظفر يوم الجمعة ٢٩ شعبان سنة ٨٢٤هـ، وأصله شركسي من مماليك الظاهر برقوق الصغار وأخذ في التراقي في

٢٠- الحنفي - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثاني - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د. محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ص ٥٢ و ص ٥٣.

المناصب حتى تمكن من الوصول إلى أمير مجلس في عهد الدولة المؤيدية، وبعد وفاة السلطان المؤيد شيخ قبض على أمير السلاح قجقار القردمي أقوى الأمراء المماليك وتآلف بقية الأمراء حتى يصفى له الملك، وأخذ ينشئ له ممالك خاصة به ويقبض على المماليك المؤيدية حتى قبض عليهم جميعاً، ولكن لم يهنأ بالملك فقد مرض أثناء عودته من سفره من دمشق إلى مصر فلزم الفراش ومات يوم الأحد ٤ ذي الحجة سنة ٨٢٤هـ وعمره نحو خمسن سنة.

١١- السلطان الصالح محمد ابن الظاهر ططر الظاهري (٨٢٤هـ - ٨٢٥هـ):

تسلطن بعد وفاة أبيه الظاهر ططر في يوم الأحد ٤ ذي الحجة سنة ٨٢٤هـ وعمره وقتها حوالي عشر سنين على وجه التخمين، وكان مدبر مملكته هو الأتابك جنبك الصوفي، ولكن الأمر لم يتم له فقد تنافس على منصبه اثنان من الأمراء هما برسبائي الدقمقي الدوادار الكبير، وطرباي الظاهري حاجب الحجاب، فتمكنوا من القبض على جنبك ونقلوه إلى سجن الإسكندرية، ثم تخلص برسبائي من طرباي وأصبح هو صاحب السلطة في السلطنة، ثم قام بخلع السلطان الملك الصالح في يوم الأربعاء ٨ شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ، وقد توفي بالطاعون في ليلة الخميس ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٨٣٣هـ وعمره نحو عشرين سنة فقط.

١٢- السلطان الأشرف أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري فاتح قبرص (٨٢٥هـ - ٨٤١هـ):

تسلطن بعد خلع الملك الصالح محمد في يوم الأربعاء ١٨ من ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ، وهو شركسي أخذ من بلاد الشركس وتم بيعه في بلاد القرم لبعض التجار، فجلبه هذا التاجر لبلاد الشام فابتاعه الأمير دقماق المحمدي الظاهري نائب ولاية ملطية، ثم قدمه الأمير دقماق إلى أستاذه الملك الظاهر برقوق فضمه إلى جملة مماليكه، ثم أعتقه وأخذ يترقى في أيام الدولة الناصرية فرج إلى أصبح ساقيا وأخذ يتقلب في المناصب والولايات حتى تمكن من أن يصبح في منصب دوا دار كبير أيام السلطان الظاهر ططر، وبعد وفاة الظاهر ططر وتسلطن ولده قام الأشرف برسباي من خلعه وتولى السلطنة مكانه وكانت له فتوح عظيمة منها فتحه لجزيرة قبرص وتمكن من أسر ملكها سنة ٨٢٩هـ، واستمر بالملك سنين طويلة حتى أصابه المرض وتوفي في يوم السبت ١٣ شهر ذي الحجة سنة ٨٤١هـ ودفن بترتبه التي أنشأها بالصحراء خارج مدينة القاهرة.

حركة الجهاد في عهد السلطان الأشرف برسباي:

١- غزو وفتح جزيرة قبرص الصليبية والقضاء على آخر معاقل الصليبية:

فقد كثرت غارات ملك قبرص الملك جانوس لوزجنان ١٣٩٨م - ١٤٣٢م، والذي كان يشجع مثل هذه الغارات على مراكب المسلمين التجارية القادمة

من بلاد الروم والتي تمر ببلاد الشام ومنها إلى الإسكندرية ودمياط، وكانوا لا يحترمون عهد ولا ذمة وينكلوا بالمسلمين الذين يقعون تحت أيديهم، ولهذا رأى السلطان الأشرف أن يحسم أمر هذه المملكة الصليبية البحرية وذلك بفتحها وضمها إلى سلطنة المماليك أو كسر شوكتها نهائيا، وقد مر فتح الجزيرة بثلاثة مراحل وهي:

الغزوة الصغرى للجزيرة سنة (٨٢٧هـ):

فقد خرجت خمسة مراكب من القاهرة بقيادة كلا من الأمير يشبك الحرون والأمير إياس الطويل، وكان خروجهم في يوم ٩ من رمضان، ثم أبحروا إلى بيروت ومنها إلى طرابلس، ثم أبحروا قاصدين ميناء الجزيرة ليماسول بالتحديد عند رأس التل، فلما نزلت المراكب تمكن الجنود من الغارة على القرى وأهل الساحل فتمكنوا من أسر بعض أهل الجزيرة وأخذوا الكثير من الجوخ والقطن وأثاث البيوت ثم عادوا سالمين.

الغزوة الثانية للجزيرة سنة (٨٢٨هـ):

وبهذا النصر السريع والخاطف والذي كان عبارة على حملة استكشافية لتحصين الجزيرة ومدى جاهزية فرسان وجنود الملك جانوس من مواجهة أي خاطر قادم لمداهمة وغزو الجزيرة والذي تبين ضعف الجزيرة من التحصين والمقاومة، وهذا شجع السلطان الأشرف أكثر لفتح الجزيرة فجرد الحملة الثانية.

فقد خرجت الحملة بقيادة الأمير سرماش قاشوق، وقد خرجت الحملة

من ثغر دمياط يوم السبت ٢٠ من شعبان فوصلوا إلى بيروت يوم الثلاثاء ٢٣ من شعبان ومنها إلى طرابلس في آخر يوم السبت المذكور واستراح الجند والفرسان، وأقلعت المراكب يوم الإثنين ١٤ من رمضان متجه إلى جزيرة قبرص وفي يوم الجمعة ١٨ من رمضان وقد وصلت السفن إلى ميناء قبرص - ميناء على الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة قبرص - يوم الجمعة المذكور، ثم وصلوا إلى ميناء رأس الماغوصة يوم السبت ١٩ من رمضان، وفي يوم الأحد ٢٠ من رمضان نزل حوالي سبعة فرسان من المماليك ومعهم الكشافة، وهنا ظهر لهم خيالة قبرص وكان عددهم حوالي ثلاثمائة فارس وعلى رأسهم أخو الملك ويدعى أخوانيزا أو هنري اللوزيناني، وبدأت معركة غير متكافئة بين الطرفين انتهت بنصر هذه الفئة القليلة، فقد قتل من فرسان قبرص حوالي خمسة عشر وجرح أكثر من خمسين، واستشهد من المسلمين اثنان من المماليك، وحدثت بعد ذلك حروب برية وبحرية كان النصر فيها كلها للمسلمين، وقد عاد الغزاة محملين بالغنائم والأسرى إلى مصر، وكان ذلك في يوم الأحد ٢٥ من شوال قدامين من مدينة دمياط إلى القاهرة، وكان معهم من الأسرى ما يقرب ألف والغنائم وطلعوا بهم إلى القلعة عند السلطان والذي أمر بعقد سوق لبيع الغنائم والأسرى.

الغزوة الكبرى وفتح الجزيرة كلها سنة (٨٢٩هـ):

الغزوة الكبرى كما يسميها المؤرخ الكبير بدر الدين العيني، فقد قام السلطان الأشرف برسباي بجعل أميرين لهذه الحملة الكبيرة الأمير تغري بردي المحمودي قائد القوات البرية للماليك، والأمير إينال الجكمي قائد على القوات البحرية، وقد اشترك في هذه الحملة الكثير من المتطوعة وجنود وفرسان من دمشق وصفد وغزة وطرابلس، وغيرها من بلاد الشام.

وقد علم ملك قبرص جانوس بخروج هذه الحملة الكبيرة فأمر بخروج قطع من السفن القبرصية، وذلك من أجل قطع الطريق على السفن المصرية فنشبت معركة بحرية بين الطرفين وتراموا بالنشاب وقتل من المسلمين عشرة من الرجال، ولكن السفن القبرصية لاذت بالفرار، وهنا توجهت السفن المصرية إلى قبرص حتى بلغت لنديا وهي على بعد عدة أميال من ميناء ليماسول، ونزلت القوات البرية في الحال أرض الجزيرة وقاموا بمحاصرة قلعة الميناء وتمكنوا من الاستيلاء عليها وعلى المدينة كلها ورفعوا علم السلطان عليهما.

معركة خيروكيتا الفاصلة:

وهنا أعد الملك جانوس جيش كبير مكون من أجناس مختلفة لمواجهة جيش المماليك، ولما علم المماليك بهذه الأنباء استقر رأيهم على الحرب ولكن على أن يرسلوا إلى جانوس برسالة يدعونه فيها للصلح، ولكن الملك أخذته العزة بالإثم وظن أنه قادر على سحق المماليك بكل سهولة، وهنا وضع القائدين الخطة وهي أن يسير الأمير تغري بردي المحمودي بالجيش برا، على أن يبحر الأمير إينال الجكمي بالسفن بجانب الشاطئ لكي يحموا القوات البرية وكان لهذه الخطة أكبر الأثر في تحقيق النصر.

ثم توجهت القوات البرية إلى ميناء الملاحة فقابلتهم طلائع جيش جانوس وعددهم ثلاثمائة فارس وجمع كبير من المشاة، ولكنهم لم يثبتوا طويلا أمام المماليك فقد ولوا فارين إلى جانوس، وهنا قام ملك قبرص بتقسيم جيشه إلى وحدات مختلفة الأعداد منها ما كان يحتوي على مائة جندي، ومنها يحتوي على خمسين جندي وقد قدر المؤرخين أن عدد جيش جانوس كان حوالي عشرة آلاف مقاتل، وأما جيش المماليك فلم يتجاوز

الخمسة آلاف، وهنا لجأ المماليك إلى خطة محكمة مفادها محاصرة الجيش القبرصي، فجزء اتجه إلى الناحية الشرقية لحصار جانوس، والجزء الآخر بقي على التلال التي تشرف على السهل الواسع والذي فيه معسكر جانوس، وانتهاز المماليك عنصر المفاجأة فقاموا بهجوم سريع على جيش جانوس وهنا لعب عامل آخر في نصر المسلمين، فقد كان جيش جانوس مكون من أعداد كبيرة من الكتيلان والروادسة والتركمان الذين أرسلهم علي بك قرمان، وبالتالي لم يكن جيشا متجانسا لهذا لما انقض المسلمون عليهم أخذ جيش جانوس يتراجع منهزما ففتبعوهم حتى إذا تأكدوا أن الأمر ليس فيه خدعة لحقوا بهم مسرعين وأدركوهم فأعملوا فيهم السيف والقتل، وحتى جانوس لم ينجوا إلا بشق الأنفس وقد جرح في ثلاث مواضع في جسده، فسقط من على فرسه وأسر المماليك.

الاستيلاء على نيقوسيا عاصمة قبرص:

وقد وصلت الأنباء إلى نيقوسيا عاصمة الجزيرة بانهزام الملك ومقتل أخيه في المعركة قام أسقف الجزيرة وهو الأخ الآخر للملك بتحصين المدينة وتجهيز المقاومة، وهنا ظهرت السفن القبرصية والتي كان الملك كان قد أمر بخروجها من أجل ضرب الأسطول المصري إتماما لخطته التي لم تنجح، ولم تعلم هذه السفن أن الملك قد خسر المعركة وأنه أسر، فقامت معركة بحرية عنيفة جدا انتهت بنصر المسلمين بعد أن تمكنوا من أسر سفينة قبرصية وقتل جميع ما فيها من جنود، وأما القوات البرية فقد أكملت مسيرها نحو عاصمة الجزيرة فمروا على بوتاميا فأحرقوها وظلوا يعملون السيف والنار في كل قرية ومدينة مروا بها، فلما علم أخو الملك بما فعلوه المماليك قام بالهرب أخذًا معه ابن الملك حنا وابنته وما تمكن من حمله من كنوز وأموال.

وكان دخول المسلمين إلى عاصمة الجزيرة دخولا عظيما مهيبا، وفي يوم الجمعة صلى المسلمون صلاة الجمعة في كنيسة المدينة وذلك بعد أن أذنوا في أبراج الكنيسة، وهكذا تم فتح الجزيرة بشكل كامل ونهائي ولم تعد هناك أية مقاومة وأصبحت الجزيرة رسميا تابعة لسلطان مصر، ولم يبق سوى عودة الجيش الظافر إلى الديار المصرية ومعهم الأسرى والغنائم، وأهم نتائج الحملة هي أسر ملك قبرص جانوس لوزينان.

وهكذا تم القضاء على آخر المعاقل الصليبية في العصور الوسطى في منطقة الشرق الأوسط، وهي مملكة قبرص راعية الصليبية والمحروسة عليها في الشرق، وكان ذلك من أعظم فتوح السلطان الأشرف برسباي، فقد تمكن من تحقيق ما فشل فيه السلطان الظاهر بيبرس من فتح جزيرة قبرص والاستيلاء عليها. ٢١

٢- محاولة الفرنج الغارة على مدينة الإسكندرية سنة (٨٣٢هـ):

وفي ٥ من شعبان قدمت خمسة أغربة إلى مدينة الإسكندرية وباتت ليلتها من أجل الهجوم في الصباح، وكان المسلمون قد استعدوا لها وحاربوهم من الغد، وأيضا أدركهم الأمير زين الدين ابن أبي الفرج أستاذار في يوم ٧ من شعبان الذي كان بتروجه وكان معه من الفرسان العرب الجمع الغفير، وكانت وقعة شديدة على الفرنج المهاجمين، ولما يأسوا من تحقيق هدفهم ولوا منهزمين، ولم يقتل سوى فارس واحد من رجال أبي الفرج. ٢٢

٢١ - العيني - بدر الدين - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي القرموط - الزهراء للأعلام العربي - ص ٢٧٣ وص ٢٧٨ وص ٢٧٩
وص ٢٨٠، وعاشور - د. سعيد عبد الفتاح - قبرص والحروب الصليبية - الطبعة الثانية - (٢٠٠٢م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ص ١٠٧ إلى ص ١١٨ .
٢٢ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الثاني - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة - (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٨٠٢ وص ٨٠٣ .

٣- محاولة الكتيلان الغارة على مدينة الإسكندرية سنة (٨٤٠هـ):

فقد أصبحت القرصنة البحرية شائعة في الفرنج، ولكن هذه المرة كان المتولي لأعمال القرصنة هذه هي مملكة قطلونية، ففي يوم ٢١ من المحرم هجمت ثلاثة أغربة على ميناء أبو قير خارج مدينة الإسكندرية، فتمكنوا من أخذ مركبين من مراكب المسلمين، فحاربهم الأمير أقباي الإشكبيبي الدوادار نائب الثغر، فرماهم وتمكن من تحري مركب ولكن الكتيلان حرقوا المركب الآخر.

وفي اليوم التالي ٢٢ من محرم هجم مركب آخر للكتيلان للهجوم على الإسكندرية مرة أخرى، وكان بميناء المدينة مركب للجنوية والذين ناصروا المسلمين على الكتيلان فهزموهم. ٢٣

١٣- السلطان العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن الأشرف (٨٤١هـ - ٨٤٢هـ):

تسلطن بعد وفاة أبيه في آخر يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١هـ، وكان عمره وقتها أربعة عشر سنة وأشهرها ومدبر أمر مملكته هو الأتابك جقمق العلاني، ولكن انضم إلى الأتابك جماعة من المماليك المؤيدية، والناصرية والسيفية فلما أحس أن سلطانه قوي قام بخلع السلطان العزيز في يوم الأربعاء ١٩ من ربيع الأول سنة ٨٤٢هـ، فقام جقمق بالتحفظ على الملك العزيز بقلعة الجبل، ولكن العزيز تمكن من الهرب من القلعة ونزل إلى القاهرة ولكن جقمق تمكن من الإمساك به فحبسه في قلعة الجبل أياما، ثم أخرجه إلى الإسكندرية فسجنه بها.

حركة الجهاد في عهد السلطان العزيز يوسف:

الحملة على منطقة الشمال الغربي من قونية سنة (٨٤١هـ):

فقد توجهت هذه الحملة من أجل حفظ حدود السلطنة في هذه النواحي، فدخل في طاعة السلطان أحمد بن قليج أرسلان صاحب تلي صار، وتقدم مع عسكر السلطان حتى نزلوا جميعا على مدينة آقشهر أو آقشار وهي تقع إلى الشمال الغربي من مدينة قونية في أول ذي الحجة، فهرب صاحبها المدعو حسن الأيتافي إلى قلعة برداش، فدخل عسكر السلطان المدينة وملكوها ثم سار أحمد بن قليج إلى قلعتي فارس وتمشلي فملكهما وأقر من قبل السلطنة بنيابتهما، ثم تمكنوا من أخذ قلعة بزطلش في يوم ١٨ من ذي الحجة، ثم تمكنت عساكر السلطان من تملك أرزنكان وكماخ، وهكذا أصبح نفوذ المماليك ممتد إلى قونية في الأناضول. ٢٤

١٤- السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العللي الظاهري (٨٤٢هـ - ٨٥٧هـ):

تولى امر السلطنة بعد خلع السلطان الملك العزيز يوسف، وكان توليه يوم الأربعاء ١٩ من شهر ربيع الأول سنة ٨٢٤هـ، وأصله جركسي جلبه رجل يدعى خواجا كزل إلى مصر فاشتره منه الأمير العللي علي بن الأتابك أينال اليوسفي ثم انتقل من خدمته إلى خدمة السلطان الملك الظاهر برقوق وأصبح من جملة الخاصكية ثم ترقى وأصبح ساقيا في أيام الدولة

٢٤ المقريزي - تفقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك في معرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الثالث - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الثانية - (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٠٥٨ و ص ١٠٥٩ .

الناصرية فرج، ثم أصبح أمير عشرة، ثم تم القبض عليه ثم أطلق سراحه، وتولى بعدها إمرة طبلخاناه وخازندارا في أيام الدولة المؤيدية شيخ، ثم صار بعد موت السلطان المؤيد شيخ أمير مائة ومقدم ألف، ثم صار في أيام الدولة الأشرفية حاجب الحجاب، ثم أمير أخور كبير، ثم أمير سلاح ثم أصبح أتابك الدولة أيام دولة العزيز يوسف ثم تسلطن بعد خلع العزيز.

ولما تسلطن خرج عليه جماعة من الأمراء ولكنه تمكن منهم، ولما صفا له الملك أصابه المرض في سنة ٨٥٦هـ ولما تمادى به المرض واشتد خلع نفسه يوم الخميس ٢١ المحرم سنة ٨٥٧هـ وفوض لولده أمر السلطنة، وهو الملك المنصور أبو السعادات عثمان وتوفي السلطان الظاهر جقمق ليلة الثلاثاء ٤ صفر سنة ٨٥٧هـ وصلى عليه الخليفة القائم بأمر الله حمزة بباب القلة من قلعة الجبل.

حركة الجهاد في عهد السلطان الظاهر جقمق:

أولا: محاولة السلطان جقمق ارسال النجدة لأهل غرناطة سنة (٨٤٤هـ):

فقد أرسل سلطان غرناطة الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن الأحمر سفارة إلى السلطان جقمق لطلب النجدة على ملوك قشتالة المحاصرين له، وقد وصلت هذه السفارة إلى القاهرة في رجب وكان في استقبالهم ابن السلطان جقمق الأمير محمد، وقد كتب أحد أفراد الوفد الأندلسي ما جرى في هذه السفارة مع السلطان جقمق كالتالي:

«استخرج كبير القوم ويدعى الحاج أبو القاسم كتاب السلطان الغالب بالله من جعبته فأخذه منه كاتم سر السلطان الظاهر القاضي كمال الدين أبو عبد الله محمد البارزي الحلبي فلما قرأه قال للسلطان: يا مولانا نصركم الله هذا كتاب من صاحب جزيرة الأندلس يشتكي لك ما أصابه من الإفرنج المجاورين له، ويطلب منك نجدة تُعينه بها، فالتفت إلينا وقال: سأبعث إلى ابن عثمان - مراد الثاني - يعينكم إن شاء الله، فقال له الحاج أبو القاسم: يا مولانا السلطان نصركم الله أنت هو كبير الملوك والسلطين وخديم الحرمين الشريفين، ولم نجيء إلا إلى حضرتكم وحاشاك أن تردنا خائبين، فقال: إن بلادكم بعيدة، ولا يمكننا أن نجهز لكم عسكريا، فقال: يا مولانا السلطان إذا لم يمكنكم تجهيز العسكر إلينا فلتعنا بالمال والعدة وما كان لله فهو يحفظه، فقال: نعم، أعينكم إن شاء الله بالمال والعدة، فسلمنا وانصرفنا، وقد أمر بإنزالنا، ورسم لنا بدينارين من الذهب في اليوم» هذا كان مضمون ما حدث في هذه السفارة، وقد نفذ السلطان الظاهر جقمق وعده فقد أمد الوفد الغرناطي بالمال والمكاحل والمدافع يستعينوا بها في حربهم ضد ملوك قشتالة، ونستنتج من هذه السفارة عدة أمور منها:

١- أن أهل الأندلس لم يعودوا ينتظرون النجدة من المغرب، فقد كانت مملكة بني مرين في حروب داخلية فيما بينهم، وبين من جاورهم من دول فتركوا أهل الأندلس لمصيرهم المحتوم.

٢- أن السلطان الظاهر جقمق ومراد الثاني كانا يريدان أن يتعاونوا من أجل نجدة أهل الأندلس ولكن بعد المسافة هو الذي منعهما من نجدتهم، فقد كانت العلاقات بين الدولتين في تلك الفترة طيبة والسفارات والهدايا بينهما متبادلة، وهذا يتبين في كلام السلطان للوفد من أنه سوف يرسل لابن عثمان لكي ينجدهم.

٣- أن الوفد الأندلسي لم يقصدوا من جميع ملوك وسلاطين المسلمين سوى سلطان المماليك، فقد قالوا عن السلطان الظاهر أنه أعظم ملوك وسلاطين العالم الإسلامي، وهذا يدل على مكانة دولة المماليك وعظم شأنها بين ممالك العالم الإسلامي آنذاك، وأنها حامية الإسلام والمسلمين. ٢٥

ثانيا: محاولة الظاهر جقمق فتح جزيرة رودس:

الغزوة الأولى لجزيرة رودس في سنة (٨٤٤هـ):

حاول السلطان جقمق أن يكون له فتح عظيم مثل فتح السلطان الأشرف برسباي فاتح جزيرة قبرص، وكانت هجمات قراصنة الفرنج على مراكب المسلمين في البحر قد كثرت ولم يبق من الجزر القوية سوى جزيرة رودس التي فيها نعارات صليبية، فقام بتجريد حملة بحرية في يوم الإثنين ٩ من ربيع الأول من ساحل بولاق مقدارها حوالي خمسة عشر غراب - مركب - وكان عليها من الجند مائتان وعليهم الأمير تغري برمش الزردكاش، والأمير يونس المحمدي آخور، وزاد عدد المشاركين في الحملة من المتطوعين والعامة - أرادل العامة والعبيد والأوغاد والمفسدين على قول المقريزي - فشقت الأغربة البحر متجه إلى قبرص بعد أن غبروا من دمياط، فلما وصلوا إلى جزيرة قبرص فزودهم ملكها ونائب السلطنة بكل ما يحتاجونه من الزاد، ثم أبحروا إلى العلايا فزودهم صاحبها بغرابين آخرين ثم أبحروا إلى جزيرة رودس ولكن أهلها كانوا على علم بقدوم الحملة من أجل غزوهم فأحسنوا التحصين والاستعداد لهم، فكانت بين الطائفتين حربا قوية وطويلة استمرت يوما كاملا لم ينتصر فيها أحد الطرفين على الآخر، فقتل من

٢٥ - الداية - الدكتور محمد رضوان - آخر أيام غرناطة نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر - تأليف مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة (٩٠٠هـ/١٠٠هـ) - الطبعة الثانية (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) - دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان - ص ١٣٥ و ص ١٣٦.

المسلمين اثنا عشر رجل من المماليك، وجرح الكثير منهم، وكذلك جرح وقتل الكثير من أهل رودس وانتهت الحرب بمغادرة مراكب المماليك بعد صعوبة شديدة وفي طريقهم مروا على إحدى قرى جزيرة رودس فقتلوا منهم وأسروا ونهبوا ما قدروا عليه، ثم أبحروا جهة دمياط ومنها ركبوا نهر النيل ومنه وصلوا إلى القاهرة خائبين وقد أسفر وجوه أمراء الحملة من عدم تحقيق النصر في هذه الحملة، وكان مقدمهم إلى الديار المصرية يوم الثلاثاء ٢١ من جمادى الأولى. ٢٦

الغزوة الثانية لجزيرة رودس سنة (٨٤٧هـ):

وفي يوم الإثنين ١٧ من ربيع الأول أمر السلطان جقمق خروج الغزوة الثانية لجزيرة رودس وذلك بعد فشل الغزاة الأولى لها، وكان المقدم على هذه التجريدة الأمير الدوادار الكبير أينال الأجروود - باش العسكر - وكان عدد الجنود ما بين ألف والألف وخمسمائة مقاتل هذا غير المتطوعة فاجتمعوا جميعا في دمياط ثم أبحروا متجهين إلى ميناء ليماسول في قبرص وكان عدد الأغربة ثمانين غراب، وحمالات - مراكب النقل لحمل الغلال والمؤن - ومربعات - مركبات صغيرة - و زوارق، وسلالير - قارب كبير - وكان وصولهم إلى ميناء اللمسون يوم الأربعاء ٢ من جمادى الأولى فقام صاحب الميناء بتجهيز الحملة من واجب الضيافة والمؤن، ثم سارت التجريدة بعد ذلك متجه إلى رودس، وفي ليلة السبت ١١ جمادى الآخرة أرسى السفن على حصن قشتيل وهو حصن منيع على جبل في جزيرة وسط البحر ٢٧ وحدث أن قام بعض الشباب من هذه الحملة قارب الحصن فتلکم

٢٦ - المصدر السابق - ص ١٢٠٥ و ص ١٢٠٦ و ص ١٢١٠.

٢٧ - هو حصن مربع الشكل تبلغ مساحته حوالي ٥ كم مربع ويقع في جزيرة جربة في أقصى الجنوب الشرقي منها، وهو فوق حاجز رملي يفصل بين البحر والسيخة، وتحيط به من الغرب إلى الشمال سيخة وأودية، وقد سيد هذا الحصن الأميرال الإسباني روجي دي لوريا سنة (١٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، ويبلغ طول ضلعه حوالي ٤٠م ويحتوي على بيوت صغيرة لإقامة الحرس بها .

معهم بعض كبار الذين في الحصن فرد الشباب عن الحصن، فظن بعض الحمقى من فرنج المتولين حراسة الحصن برمي على هؤلاء الشباب بمحكمة - مدفع - ظنا منهم أن المسلمين قد خافوا محاربتهم، فبعد أن أمر أمير الحملة بمغادرة الجزيرة التي بها هذا الحصن ظل به أمراء وجنود الحملة بضرورة تأديب أهل حصن قشتيل حفاظا على هيبة السلطنة والسلطان، فعاد أمير الحملة بالمراكب وأمر الجنود بالهجوم على الجزيرة وأمر أصحاب النقب والمعاول بنقب الحصن وظلت الحرب بين الفريقين يوما كاملا حتى طلب أهل الحصن الأمان وأدلو كبرهم من أعلى الحصن بحبل فتوقف المسلمون من رمي الحصن، ودخل المسلمون الحصن ورفعوا رايات السلطان ونكسوا أعلام الفرنج، ثم قاموا بعد ذلك بهدم أبراج الحصن وساوى جدارنه بالأرض فتم بذلك إخراج الحصن بأكمله، وقد قتل من المسلمين في هذه المعركة ثلاثين وجرح الكثير، وقتل من الفرنج الكثير وأسر منهم حوالي مائتين، وكان هذا النصر يوم الإثنين ١٧ من جمادى الآخرة، ثم عادت السفن إلى دمياط يوم الأربعاء ٢٠ من رجب دون تحقيق هدف الحملة الأساسي وهو غزو جزيرة رودس وذلك أن فصل الشتاء كان قد دخل واشتدت الرياح وخاف أمراء الحملة من غرق السفن فرغبوا في العودة إلى قبرص ولكن الرياح قذفت بهم إلى بعض جزائر الفرنج فتمكنوا من العودة إلى الديار المصرية بصعوبة بسبب الرياح والأمطار الغزيرة. ٢٨

٢٨ - السخاوي - محمد بن عبد الرحمن - كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك - مراجعة أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور - تحقيق أ. نجوى مصطفى كامل ود. لبيبة إبراهيم مصطفى - الجزء الأول - طبعة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - من ص ١٥٥ إلى ص ١٥٩.



حصن القشتيل

الغزوة الثالثة لجزيرة رودس سنة (٨٤٨هـ):

وكان خروج هذه الحملة في يوم الإثنين ١٢ من المحرم بقيادة أمير المجاهدين الدوادار الكبير أينال الأجرود، وكانت طائفة من الجنود قد سبقت أمير المجاهدين بحوالي ١٢ يوما إلى دمياط من أجل إحضار المركب والإبحار بها إلى الإسكندرية فاجتمعت العساكر السلطانية والمتطوعين وعددهم يزيد على ألف وخمسمائة، وقد خرجوا جميعا من ثغر الإسكندرية في يوم الخميس ١١ من ربيع الآخر وأبحروا متجهين إلى رودس حتى رسوا على برها ونصبوا الخيام بالقرب من عاصمة الجزيرة، ولكن المفاجأة أنهم قد وجدوا

أهلها قد تحصنوا داخل المدينة وقد حصنوا أسوارها وأبراجها فأصبحت في غاية الحصانة، فحضر المسلمون الحصار على المدينة بالمنجانيقات والمكاحل - المدافع - على أبراجها ودامت الحرب بين الفريقين أيام وقتل من الفريقين الكثير، وقد حاول أهل رودس الاستيلاء على مراكب المماليك ظناً منهم أنها خالية من الحرس ولكن تمكن الجنود من ردهم فقتلوا منهم وسبوا آخرين.

ولكن الذي حدث بعد ذلك كان أن تحول نصر المسلمين إلى هزيمة، فقد تفرق الجنود في بر الجزيرة فقام بعض جنود المسلمين بسكنى كنيسة كانت موجودة على بر الجزيرة وقد علم الفرنج بوجودهم فيها فهاجموا الكنيسة على حين غفلة من الجنود، فتمكن منهم من حمل السلاح والدفاع عن نفسه ومنهم من لم يدرك الحصول على سلاحه فاستشهد، ومنهم من رمى بنفسه في المياه ولحق ببقية الجيش المحاصر للمدينة، وقد استشهد في هذه الواقعة ما يزيد على العشرين وذلك بعد أن أبلوا بلاءاً حسناً وقتلوا من الفرنج الكثير، واستمر الحصار لعاصمة الجزيرة ولكن دون جدوى، فقد كانت المدينة محصنة بشكل جيد وقد آمنوا أنفسهم جيداً بما يحتاجونه من الميرة والمؤن، وهنا أمر أمراء الحملة بالعود إلى الديار المصرية، فركبوا المراكب وأبحروا تاركين الجزيرة فوصلوا إلى الإسكندرية ودمياط، ثم وصلوا إلى ميناء ساحل بولاق بمصر وكان وصولهم في آخر شهر جمادى الآخرة دون أن يحققوا هدف الحملة، وبذلك تنتهي محاولات السلطان جقمق من فتح جزيرة رودس ويحقق مجداً لنفسه مثل السلطان الأشرف برسباني فاتح جزيرة قبرص. ٢٩

ثالثا: طلب شاه روخ بن تيمور لك من السلطان كسوة الكعبة المشرفة
سنة (٨٤٨هـ):

وفي شعبان سنة ٨٤٨هـ أتى رسول من عند شاه روخ بن تيمور لك ومعه هدية جلية للسلطان الظاهر، ومع الهدية كسوة للكعبة المشرفة، فأمر السلطان أن تخفى هذه الكسوة حتى لا يعلم بها الأمراء وأرباب الدولة، فأخفوها ولكن خبر وصول الكسوة قد وصل إلى الأمراء فشق عليهم هذا الأمر، فإن الكسوة دائما تخرج مع المحمل من القاهرة فإن سلاطين المماليك هم أول من تلقبوا بخادم الحرمين الشريفين، فكانوا يخرجون كسوة الكعبة في كل موسم ومعها الأموال تصرف في الحرمين.

فقامت مجموعة من المماليك الجلبان ومعهم السواد الأعظم من الناس فنزلوا إلى الدار التي يقيم بها رسول شاه روخ فنهبوها كلها ونهبوا ما كان معه من المال وكان حوالي عشرة آلاف دينار، ولم يحس السلطان بهذه الفتنة، فلما بلغ السلطان ما حدث أمر حاجب الحجاب والوالي أن يدركا دار الرسول ويمنعوا الناس من نهبها، فأدركوا الناس وردوا بعض ما نهب من الرسول من خيول وقماش وسلاح وذهب، وقبضوا على جماعة من المماليك والعوام، فكانت فتنة كبيرة في القاهرة، وأمر السلطان بقطع جوامك - رواتب - الكثير ممن قبض عليهم في هذه الفتنة من المماليك، وضرب جماعة من العوام بالمقارع، وأمر بالقبض على من كان سببا في هذه الفتنة، وأرسل يعتذر إلى رسول شاه روخ وعوضه عن المال الذي سرق منه بأكثر مما سرق منه.

وللأسف تعرض رسول شاه روخ الأذى الشديد من العوام من سب ورجم، فلم يكن ليتصور العامة أن تخرج كسوة الكعبة من غيرهم فاعتبروها اهانة بالغة لهم، وأمر السلطان أن ترسل الكسوة إلى مكة في الخفاء وأمر

بفرشها داخل الكعبة وليس خارجها.

ولما كثر تشكي الأمراء من هذه الكسوة أرسل السلطان في رمضان سنة ٨٥٦هـ يأمر بنزع كسوة شاه روح من داخل الكعبة، وأرسل كسوة غيرها إرضاء لخاطر الأمراء والعامّة، ولم تخرج كسوة البيت الحرام الا من عند القاهرة بعد ذلك. ٣٠

رابعاً: العبيد الشناترة يقيمون سلطنة داخل دولة الظاهر سنة (٨٤٩هـ):

وفي ذي القعدة أورد المؤرخ ابن إياس حادثة غريبة فيقول: «أن طائفة من العبيد السود عدوا بر الجيزة وأقاموا به، ونصبوا هناك خيمة لهم، وعلقوا عليها سنجقا، وجعلوا لهم سلطانا ووزيرا ودوادارا، وجعل سلطانهم يجلس على دكة ويحكم بين العبيد، ويطلب من العبيد من هو معاد لهم ويوسطه بين يديه، ثم إن سلطانهم قرر لهم: أمير كبير، وحاجب الحجاب، وأرباب الوظائف، وولى منهم جماعة: شيء نائب الشام، وشيء نائب حلب، وشيء نائب طرابلس، واقتسموا المملكة بمصر والشام، وشاع أمرهم بين الناس.

فلما بلغ السلطان انحصر السلطان إلى الغاية، وصاروا العبيد يقطعون الطريق على الناس، وينهبوا المغل، ويأخذوا خراج المقطعين وضيافتهم، فعين لهم السلطان تجريدة، فتوجهوا إليهم في المراكب، فتقاتلوا معهم

٣٠ - الحنفى - محمد بن أحمد بن إياس - كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثاني - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ص٢٤٤ و ص٢٤٥ و ص٢٩٦.

وكسروا سلطانهم وشتتوهم وسجنوا جماعة منهم وهرب الباقون، ثم إن سلطانهم نادى في القاهرة، بأن كل من كان عنده عبد كبير، يطلع به إلى باب السلسلة ويقبض ثمنه، فصار كل من طلع بعبد قبض فيه أربعة آلاف درهم، فلما حصلوا منهم جانباً، رسم السلطان بسجنهم، وبعثهم في المراكب إلى ثغر الإسكندرية، وتوجهوا بهم من هناك إلى بلاد ابن عثمان، وقطع جاذرة العبيد الشنطرة من مصر» انتهى كلام ابن إياس، فكانت فتنة غريبة وجرأة من العبيد أن يقوموا بهذا الفعل العجيب وهم عبيد، وربما الذي جرأهم هو احساسهم بإمكانية إقامة دولة داخل دولة واستغلال حالة الفوضى التي ربما احسوا بها، فكان عاقبتهم القتل والتشريد والسجن وهي النهاية المتوقعة لهم. ٣١

خامساً: نهب جهان كير بن علي قرايولك مدينة ألبيرة سنة (٨٥١هـ):

وفي ذي الحجة قام معز الدين جهان كير قرايولك ملك ديار بكر والعراقيين بالهجوم على مدينة ألبيرة فنهبها وخرب ضياعها، فخرج له نائب مدينة ملطية الأمير قنصوه النوروزي وحاربه ولكنه جرح ونهب عسكره، وكانت هذه بداية الحروب التي سوف تتصاعد وتيرتها في عهد السلطان الأشرف قايتباي بعد ذلك. ٣٢

٣١ - المصدر السابق - ص ٢٥٣.

٣٢ - المصدر السابق - ص ٢٦١.

١٥- سلطنة المنصور أبو السعدات عثمان فخر الدين (٨٥٧هـ - ٨٦٤هـ):

تولى أمر السلطنة بعد خلع أبيه نفسه من السلطنة، وكان ذلك في يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٨٥٧هـ وكان سنه وقت جلوسه على كرسي السلطنة دون العشرين، وتولى أمر الأتابكية الأمير أينال العلاني وما لبثت أن وقعت الفتنة بين السلطان والأتابك أينال وكان مبتدأها يوم الإثنين في شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ ووصلت إلى حد القتال كل يوم بين الطرفين طيلة هذا الشهر، فلما كان يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور اجتمعت القضاة عند الأتابك أينال ببيت قوصون وانتهى الجمع على خلع السلطان المنصور عثمان وتولية الأتابك أينال باللفظ لا بالجلوس على تخت السلطنة، واستمر القتال مع ذلك بين الطرفين حتى تمكن أينال من الاستيلاء على قلعة الجبل والإصطبل السلطاني في عصر يوم الأحد يوم الأحد ٧ من ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ، وتم القبض على السلطان المنصور عثمان يوم الأحد ٢٨ من ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ وحمل إلى سجن الإسكندرية وظل به إلى سنة ٨٦٤هـ، وخرج من السجن لما تولى السلطان الظاهر خشقدم فرسم بإخراجه من السجن وأذن له في العيش بالإسكندرية.

١٦- سلطنة الأشرف أينال العلاني الناصري (٨٥٧هـ - ٨٦٥هـ):

تولى أمر السلطنة بعد أن خلع السلطان المنصور عثمان في صبح يوم الإثنين ٨ من ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ وأصله جركسي الجنس جلبه رجل يدعى خواجا علاء الدين إلى مصر، فاشتره الملك الظاهر برقوق، وظل في الرق إلى أن أعتقه الملك الناصر فرج وجعله في أواخر دولته خاصكيا،

ثم أصبح أمير عشرة في دولة المظفر أحمد بن شيخ، ثم جعله السلطان برسباي أمير طبلخاناه ورأس نوبة، ثم أصبح رأس نوبة ثاني، ثم تولى نيابة غزة، ثم تولى نيابة الرها، ثم تولى إمرة مائة وتقدمة ألف، ثم تولى نيابة صفد، ثم ترقى إلى أن صار دوادارا كبيرا، ثم تولى أمر أتابكية السلطنة أيام السلطان المنصور عثمان.

واستمر في السلطنة والملك إلى أن خلع نفسه من أمر السلطنة، وتوفي بعدها بيوم واحد وكان ذلك يوم الخميس ١٥ من جمادى الأولى سنة ٨٦٥هـ.

حركة الجهاد في عهد السلطان الأشرف أينال:

التجريدة التي خرجت إلى جزيرة قبرص سنة (٨٦٣هـ):

وكان سبب خروج هذه التجريدة البحرية أن ابن ملك جزيرة قبرص ويدعى جاكم - جيمس - بن جون قد أتى إلى السلطان طالبا منه أن يساعده في أن يجلس على عرش قبرص بعد وفاة أبيه الملك جون والذي توفي في سنة ٨٦٢هـ، فقد وقع الخلاف بين أسرة الملك على العرش وقاموا بتعيين أخته شارلوت فلم يعترف أخوها جاكم بالملك، وكان مجيئه إلى السلطان في شهر رمضان، فقام السلطان في شهر ذي القعدة بإصدار الأوامر لعمارة المراكب التي ستوجه إلى قبرص.

وقام السلطان بإرسال الأمير تغري بردي الطيار لكشف أخبار الجزيرة، ثم خرجت العساكر على ظهر المراكب متجهين إلى الجزيرة، وقد عادت هذه الحملة ظافرة في شهر المحرم سنة ٨٦٣هـ، وكان عليها من الأمراء: «جاني

بك كوهيه، ومغلباي طاز وبرد بك المشطوب» ومات من الأمراء الأمير قاني باي قراسقل، وكان معهم من أسرى الفرنج نحوًا من مائة وخمسين رجل، وكان من بينهم قنصل الفرنج، فأمر السلطان بضرب رقاب بعضهم، وأمر بسجن الباقي، وقيد القنصل وطلب منه فدية مائة ألف دينار لكي يفتدي بها نفسه، ثم أطلق بعدها بأيام على مبلغ من المال يدفعه. ٣٣

وفي جمادى الآخرة سنة ٨٦٤هـ عاد الأمير تغري بردي الطيار والذي كان عين السلطان على قبرص، فعاد ومعه مجموعة من ملوك الفرنج، فأمر السلطان الأشرف بعمل الخدمة السلطانية بالقصر، فصعد من حضر من ملوك الفرنج فلم يلتفت لهم السلطان، ونزلوا من عند السلطان ولم يحصلوا على مرادهم. ٣٤

وفي شعبان سنة ٨٦٤هـ عرض السلطان الأشرف أينال العساكر المعينة للخروج إلى قبرص، وكان هدف هذه التجريدة هي تولية جاكم على عرش قبرص وتظل الجزيرة على تبعيتها لسلطنة المماليك، وعين من الأمراء على التجريدة: «يونس الدودار الكبير، وهو صهر السلطان فجعله باش العسكر، وسودون قراقاش حاجب الحجاب، وقانم التاجر، وبرد بك البجمقدار، وجاني بك الظريف، ويشبك الفقيه المؤيدي، وهؤلاء كانوا من أمراء الطبلخانات، ومن أمراء العشرات، جكم، ومن المماليك السلطانية حوالي خمسمائة مملوك»

وفي رمضان من هذه السنة انتهت عمارة المراكب والأغربة التي أنشأها السلطان من أجل التجريدة في جزيرة أروى، وكان المسؤول عن عمارتها

٣٣ - الحنفى - محمد بن أحمد بن إياس - كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثاني - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ص ٤٥٤ و ص ٣٥٥ و ص ٣٥٦.
٣٤ - المصدر السابق - الجزء الثاني - ص ٣٥٩.

وشدها الأمير سنقر قرق شبق الزردكاش، والذي ظلم وعسف الناس من أجل عمارة هذه المراكب فقطع من أشجار الغيطان الكثير فأذى الناس بذلك، وفي شوال عين السلطان الأمير برسباي البجاسي وهو برتبة أمير آخور كبير، وعين رجل يدعى كزل المعلم، وأمرهما بالتوجه إلى ثغر الإسكندرية من أجل جمع المراكب التي بالميناء، وأيضا جمع المراكب التي بثغر دمياط، وذلك لحمل العساكر عليها، ثم نزل السلطان الأشرف من القلعة في موكب حافل ومعه الأمراء وأرباب الدولة، وشق بهم من طريق الصليبة حتى وصلوا جميعا إلى جزيرة أروى، وذلك من أجل معاينة المراكب وصنعها، فأعجب بالعمل فخلع على الأمير سنقر الزردكاش وعلى جماعة النجارين، ثم عاد إلى القلعة، وأعطى المماليك المعينين لهذه التجريدة نفقة السفر.

وفي يوم وفاء النيل من هذا الشهر خرج السلطان على عادة السلاطين لفتح السد، وكان معه الأمراء والعساكر الذين عينهم للخروج إلى قبرص، وكان في صحبة السلطان جاكم بن جون، وبعد فتح السد خرجت التجريدة المعينة إلى قبرص لنصرة الأمير جاكم على أعدائه في قبرص وتنصيبه على العرش. ٣٥

مصير التجريدة التي خرجت إلى جزيرة قبرص:

وفي المحرم من سنة ٨٦٥هـ أتى جماعة من المماليك الذين خرجوا في تجريدة قبرص ومعهم أخبار غير سارة عن مصير التجريدة، فقد أخبروا السلطان أن السفن بعد أن أبحرت من مصر متجهة إلى قبرص هبت عليها رياح عاصفة شتت المراكب، فذهبت كل مركب إلى جهة من البلاد، وأن بعض

هذه المراكب قد وصل سالما إلى ساحل ثغر الطينة، وأما بقية المراكب فقد
عدمّت أخبارها.

وفي شهر صفر أتي الأمير برد بك عرب الأشرفي الخاصكي والذي كان في تجريدة
قبرص فأخبر السلطان أن الأمير يونس البواب تمكّن من الوصول سالما إلى
الجزيرة وترك العسكر بقيادة جاني بك الأبلق الظاهري باش عسكر عليهم،
وأن الطاعون قد فتك بالكثير من العسكر الذين كانوا في التجريدة.

ثم وصل من قبرص إلى القاهرة الأمير يونس البواب الدوادار الكبير ومعه
بقية العسكر، فصعد إلى السلطان الأشرف بالقلعة، ففرح السلطان به وخلع
عليه خلعة سنية، وعلى بقية الأمراء الذين كانوا معه، ثم نزلوا من القلعة
في موكب حافل، ولكن هذا التشريف ليونس البواب لم يعجب بقية أمراء
المماليك خصوصا أنه لم يحقق هدف التجريدة.

وفي شهر ربيع الآخر جاءت الأخبار من قبرص بأن جاني بك الأبلق ظفر
بجماعة من أهل شيرينه - مدينة كيرينا تقع في شمال قبرص اليوم - وأن
الأمير تاني بك الترجمان أخذ المال الذي أورجه جاكم والذي أصبح ملك
قبرص بعد والده جون، وفي أثناء سفره عائدا من قبرص إلى مصر خرج عليه
جماعة من اتباع أخت الملك جاكم ملك قبرص، فأخذوا كل المال الذي معه
وأسروه فلما بلغ السلطان ما حل بالأمير تاني الترجمان حزن لأجله، وأمر
بتعين تجريدة لتأديب أهل قبرص، ولكن القدر لم يمهله فقد مرض ومات
في نفس السنة. ٣٦

١٧- السلطان المؤيد شهاب الدين أبو الفتح أحمد بن السلطان أینال
(٨٦٥هـ - ٨٩٣هـ):

تولى أمر السلطنة في يوم الأربعاء ١٤ جمادى الأولى ٨٦٥هـ، وجعل أمير السلاح خشقدم أتابك العسكر، وكان خيرا حسن السياسة منصف يحب العدل، ولكن لم يكن من أمراء المماليك من يعينه على الخير بل اتفقوا جميعا على خلعه دون سبب شرعي يقتضي منهم ذلك، وبالفعل خلعه يوم الأحد ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥هـ ثم أرسل إلى الإسكندرية حيث سجن هناك إلى أن أخرجه السلطان الملك الظاهر تمربغا من السجن ورسم له بالسكنى في الإسكندرية إلى أن توفي في منتصف شهر صفر سنة ٨٩٣هـ.

١٨- السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد خشقدم (٨٦٥هـ - ٨٧٢هـ):

كان رومي الجنس جلبه إلى مصر خواجا ناصر الدين ولهذا نسب إليه بالناصري، فاشتره الملك المؤيد شيخ سنة ٨١٦هـ ثم أعتقه وأصبح خاصكيا في دولة المظفر أحمد بن شيخ، ثم صار ساقيا للسلطان الظاهر جقمق وأخذ يترقى في الأعمال حتى تولى أمرة سلاح في أيام دولة السلطان الأشرف أینال، ولما تسلطن ولده الملك المؤيد أحمد خلعه وتولى مكانه، وكان فيه حسن تدبير وسياسة ولكن كان كثير الطمع وفيه شح وقامت ممالیکه بمظالم كثيرة، ودامت سلطنته حتى أصابه المرض وطال عليه فمات بسببه بعد ظهر يوم السبت ١٠ من ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ.

أولاً: خروج تجريدة لتأديب جزيرة قبرص:

التجريدة الأولى سنة (٨٦٧هـ):

وكان سبب خروج هذه التجريدة هو قيام الأميرة شارلوت منافسة أخيها جاكم ملك قبرص سنة ٨٦٥هـ بالتوجه إلى جزيرة رودس وطلب النجدة من فرسانها الصليبيين لطرد المماليك من قبرص والاستيلاء على مدينة شيرينة، فاستنجد الأمير جاني بك الأبلق وأرسل إلى السلطان الأشرف أينال يتحثة على سرعة إخراج التجريدة ولا يعلم أن الأشرف أينال قد خلع من كرسي السلطنة، وأن الظاهر خشقدم قد تولى مكانه.

وقد سافر نائب طرابلس إياس الطويل في ذي الحجة من نفس السنة إلى قبرص نجدة إلى جاني بك الأبلق، وقد وصلت الأخبار أن الفرنج قد تحركوا لمحاربته، فاهتم السلطان خشقدم لتجهيز التجريدة بسرعة، ولكن في المحرم من سنة ٨٦٦هـ اتى إياس الطويل من قبرص إلى دمياط من دون أن يأذن له السلطان بذلك، فلما علم السلطان بمقدمه أرسل له الأمير قايتباي المحمودي شاد الشراب خاناه فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية فسجن به.

وفي ربيع الآخر سنة ٨٦٧هـ خرجت التجريدة المعينة لتأديب قبرص أخيراً بعد أن جهزت الشواني والسفن وكان باش العسكر الأمير برد بك البجمقدار حاجب الحجاب، والأمير جاني بك قلقسيز، ومعهم المماليك ونفقاتهم وركبوا السفن في البحر المالح، ولكن هذه التجريدة قد انتهت على غير طائل، فقد أتى الأمراء في ربيع الأول من سنة ٨٦٨هـ من غير السلطان إلى مصر دون إذن من السلطان فشق عليه ذلك، وأمر بتجهيز تجريدة ثانية، ولكن لم تخرج تجريدة أخرى فقد قامت الفتن والحروب على حدود السلطنة

من الجهة الشمالية بين أبناء دلغادر وحسن الطويل جهان شاه. ٣٧

ثانيا: عصيان شاه سوار وإعلانه الحرب ضد المماليك سنة (٨٧١هـ):

وكانت بداية هذه الفتنة أن رستم بن دلغادر قد تحارب مع شاه سوار، فأرسل السلطان إلى نائبه على حلب بأن يناصر رستم بن دلغادر على شاه سوار، فكان هذا أول الشر بين إمار ذي القادر وسلطنة المماليك والتي سوف تستمر حتى ينهيها تماما السلطان الأشرف قايتباي.

وفي ذي القعدة خرج الأمير وردبش الظاهري الخاصكي إلى البلاد الحلبية من أجل إعادة شاه بضاغ بن دلغادر إلى نيابة الأبلستين وحكم إمارة ذي القادر، وصرف الأمير رستم عمه عنها، فلما خرج من القاهرة أتت الأخبار بإعلان شاه سوار العصيان على السلطان الظاهر وخروجه عن الطاعة، فأمر السلطان حينها بخروج كلا من نائبي الشام وحلب وسائر النواب لمحاربة شاه سوار والقبض عليه. ٣٨

وفي المحرم من سنة ٨٧٢هـ أتت الأخبار من حلب بأن شاه سوار قد تمكن من تجميع جيش كبير من التركمان وأن شوكتة قد قويت، وقد بدأ بالزحف على بلاد السلطان، ولكن السلطان وقتها كان قد حم في جسده وبدأ يصارع مرض الموت فلم يهتم لهذه الأخبار، وإنما كان اهتمامه منصبا على مرضه وشفائه.

٣٧ - المصدر السابق - ص ٣٧٢ وص ٣٨٥ وص ٣٨٦ وص ٣٨٩ وص ٤٠٣ وص ٤١٦.

٣٨ - المصدر السابق - ص ٤٤٤ وص ٤٤٩.

ثالثا: خروج التجريدة لمحاربة شاه سوار سنة (٨٧٢هـ):

وهذه أولى حروب المماليك مع مملكة ذي القادر، فقد كتب الأمير خاير بك الدوادار مرسوم سلطاني على لسان السلطان لجميع النواب بأن يخرجوا لمحاربة الخارج عن الطاعة شاه سوار، ثم تواترت الأخبار على القاهرة بضرورة التحرك لقمع عصيان شاه سوار وإلا استفحل أمره، فجلس السلطان بالدهيشة رغم مرضه الشديد وأحضر كاتب المماليك أبا الفضل بن الجلود وكتب أسماء الأمراء المعينين في هذه التجريدة وهم «الأتابكي يلباي، وقرقماس الجلب أمير سلاح، وتمرغا الظاهري أمير مجلس، وقايتباي المحمودي، ومغلباي طائر المؤيدي» وكثير من الأمراء العشرات وغيرهم من المماليك، ولكن السلطان لم يرى هذه التجريدة فقد مات في نفس السنة.

٣٩

١٩- السلطان الظاهر أبو النصر يلباي المؤيدي (٨٧٢هـ-٨٧٣هـ):

تسلطن في آخر نهار يوم السبت ١٠ ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ وتولى الأتابكية الأمير تمرغا الظاهري، وهو جركسي الجنس جلبه الأمير أينال ضضخ الساقى من بلاد الشركس، فاشتره منه السلطان المؤيد شيخ قبل سنة ٨٢٠هـ وأعتقه وجعله خاصكيا، ثم أصبح ساقيا في دولة الظاهر جقمق، وأخذ في الترقى حتى أصبح أمير كبير سنة ٨٧١هـ حتى وفاة السلطان خشقدم، وتولى بعده أمر السلطنة، وجعل أمر المملكة إلى الأمير خير بك الدوادار، وكان السلطان أبو النصر يلباي ضعيف الرأي في تدبير امر المملكة

والسياسة، فكثرت الفتن في أيامه وعدم الأمن، وظل الأمر على هذه الحال حتى أراد السلطان أن يأخذ خير بك وخشداشيته، ولكن تدبيره أتي عليه هو فخلع السلطان يوم السبت ٧ من جمادى الأولى سنة ٨٧٢هـ، وحمل في النيل إلى مدينة الإسكندرية وظل به إلى أن مرض في العشر الأخير من صفر سنة ٨٧٣هـ، ومات في ليلة الإثنين أول شهر ربيع الأول بمدينة الإسكندرية.

شاه سوار يكسر الجيش الشامي والحلبى سنة (٨٧٢هـ):

واستمر عصيان شاه سوار وأخذه الغرور بعد أن تمكن من تجميع التركمان من حوله وكون منهم جيش كبير يمكنه من خلاله محاربة جيش المماليك، وقد تمكن من هزيمة جيش المماليك الشامي والحلبى بالفعل، وقتل عدد كبير من أعيان وأمراء المماليك، وتوغل في بلاد السلطان وأخذ عدة مدن وقلاع تابعة للمماليك، وقد أسر برد بك البجمقدار نائب الشام، وتمكن من قتل نائب طرابلس قاني باي حسن المؤيدي، وقتل أيضا قراجا الظاهري الخازندار أتابك دمشق، وقتل غيرهم من الأمراء الكبار، وكانت هذه أولى انتصارات شاه سوار على المماليك وليس آخرها. ٤٠

٢٠- السلطان الظاهر أبو سعيد قمر بغا الظاهري (٨٧٢هـ-٨٧٩هـ):

تسلطن على الديار المصرية في نهار يوم السبت ٧ من جمادى الأولى سنة ٨٧٢هـ، وهو رومي الجنس من ممالك السلطان جقمق ثم أعتقه ورباه

صغيرا واختص به ورقاه حتى جعله خاصكيا، ثم جعله سلاح دار، ثم دودار، ثم خازندار، ثم جعله دودارا ثانيا، ثم أصبح دودارا كبيرا في عهد دولة ولده الملك المنصور، وبعد خلع المنصور حبس ست سنوات، ثم أخرجوه إلى مكة فأقام بها أكثر من سنتين، ثم قدم إلى مصر في عهد السلطان الظاهر خشقدم فأخذ في الترقى في عهده حتى أصبح أتابكا في عهد دولة السلطان يلباي، ثم تولى أمر السلطنة، وعلى الرغم من كفايته وحسن تدبيره لأمر الدولة إلا أن خير بك وثب عليه وقبض عليه في ليلة الإثنين سنة ٨٧٢هـ وحبسه بالقلعة، وتمكن من إخراجه الأتابك قايتباي، ولكن مماليك وأمراء قايتباي حسنوا له خلع تهربغا، ففعل وتم خلع السلطان تهربغا يوم الإثنين ٦ من رجب سنة ٨٧٢هـ، ثم قام بتسفيره إلى ثغر دمياط ومعه عائلته وحشمه وظل هناك في عيش هانىء ورغيد حتى توفي السلطان الظاهر تهربغا يوم الجمعة في ذي الحجة سنة ٨٧٩هـ.

بداية طمع حسن الطويل ملك مملكة العراقيين في دولة المماليك:

وفي سنة ٨٧٢هـ بدأ حسن الطويل ملك مملكة ديار بكر والعراقيين بالمرور بدولة المماليك، فتظاهر بخروجه لحرب شاه سوار، ولكنه في الحقيقة كان طامعا في أرض السلطان الظاهر تهربغا، فقد استغل ظهور شاه سوار لكي يكون له حجة في الحرب، فمتى تمكن من التخلص من أولى عقباته في البلاد الحلبية وهي مملكة ذي القادر والاستيلاء عليها يتوجه للاستيلاء على البلاد الحلبية نفسها وربما يمكنه الحظ من الاستيلاء على بلاد الشام نفسها، مستغلا صراعات أمراء المماليك فيما بينهم على كرسي السلطنة وانشغالهم عن بلاد الشام. ٤١

٢١- السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي الظاهري (٨٧٢هـ - ٩٠١هـ):

وهو جركسي الجنس جلبه إلى مصر خواجه محمود وإليه ينسب، فاشتره منه الملك الأشرف برسباي في سنة (٨٣٩هـ) ثم نقل إلى خدمة الملك الظاهر جقمق فأعتقه وجعله خاصكيا ثم دوا دارا صغيرا، ثم أمير عشرة في أيام دولة الملك الأشرف أينال، ثم صار أمير طبليخاناه وشاد الشراب خاناه في أول دولة الملك الظاهر خشقدم ثم نقل بعد سنين إلى إمرة مائة وتقدمة ألف، ثم صار رأس نوبة النوب في سلطنة الظاهر يلباي، ثم أتابكا في دولة الملك الظاهر تمربغا، ثم تسلطن بعد خلع السلطان الظاهر تمربغا في يوم الإثنين ٦ من رجب سنة ٨٧٢هـ، وظل في السلطنة حتى توفي في يوم الأحد ٢٧ من ذي القعدة سنة ٩٠١هـ.

أولا: الحرب مع إمارة ذي القادر سنة (٨٧٢هـ):

وفي عهده استمر شاه سوار في عصيانه لسلطان المماليك فجرد عليه الأشرف ثلاث تجريدات:

التجريدة الأولى في رجب سنة في سنة (٨٧٢هـ):

ففي شهر رجب عين السلطان قايتباي أولى التجريدات ضد الشاه سوار بن ذي القادر والذي جمع عدد كبير من التركمان وأراد أن يزحف على بلاد السلطان، ولم يكن سوار يريد أكثر من هدية سلطانية وخلعة من الأشرف كاعتراف بشرعية حكمه ولكن السلطان نحى للاستخدام القوة بدل

الحيلة، وقد عين هذه التجريدة الكثير من الأمراء الكبار تحت قيادة باش العسكر الأتابكي جاني بك قلقسيز وأكثر من ألف مملوك من المماليك السلطانية، وقد خرجت هذه التجريدة من القاهرة يوم الإثنين ١٢ من شعبان.

وفي يوم الإثنين ٧ ذي القعدة أنت الأخبار من نائب الشام أوزبك أن العساكر السلطانية قد انكسرت أمام قوات ساه سوار، وأن جاني بك قلقسيز قد أسر، وأن جماعة من الأمراء قتل أبرزهم برد بك هجين المحمدي، والأمير نانق المحمدي، وأن الأمير تهر حاجب الحجاب قد جرح في وجهه، وقتل ما لا يحصى من الجنود، وقد دخلوا حلب على أسوأ حال، وأنهم قد دخلوا المدينة بغير قماش ولا برك والجنود حفاة عراة، ثم أتت الأخبار أن شاه سوار يريد الزحف على مدينة حلب. ٤٢

التجريدة الثانية سنة (٨٧٣هـ):

وفي شهر ذي القعدة من نفس السنة عين السلطان الأمير قرقماس الجلب أمير المجلس فجعله باش العسكر، وجعل معه الأمراء سودون القصري، وقراجا الطويل الأينالي، وأزدمر الطويل الأينالي، ثم وصلت الأخبار أن شاه سوار قد أطلق جاني بك من أسره وأنه أكرمه ترضية لخاطر السلطان.

وفي ربيع الأول سنة ٨٧٣هـ أمر السلطان بخروج الأمير أزدمر الطويل الأينالي ومعه خمسمائة من المماليك السلطانية لحفظ حلب من هجمات

٤٢ - الحنفي - محمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثالث - حققها وقدم لها وكتب لها الفهرسة د. محمد مصطفى زيادة - طبعة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ٧ وص ٩ وص ١٢ وص ١٣.

شاه سوار، وأن يظل هناك إلى أن تأتي التجريدة إليه، وبعدها وصلت الأخبار بأن شاه سوار قد نزل وحاصر قلعة دندرة، فأراد السلطان أن يخرج بنفسه لقتاله فقال له الأمراء: إيش هو شاه سوار حتى يقابله السلطان أو يقاتله ؟ ولا يقاتل السلطان إلا سلطان مثله ٤٣. فخرج أزدمر بالمماليك الخمسمائة إلى حلب في الشتاء.

شاه سوار يستولي على مدينة دربند ويقتل نائبها سنة (٨٧٣هـ):

ولكن في يوم الإثنين ١٥ من جمادى الأولى سنة ٨٧٣هـ وردت أخبار سيئة من جهة حلب مفادها أن شاه سوار قد تمكن من أخذ مدينة درندة عنوة ومملك قلعتها وقتل نائب السلطان ابن بلبان، وذلك بمواطئة أهل المدينة مع شاه سوار، فعظم هذا الخبر على قلب السلطان واغتم لهذه الأخبار. ٤٤

وفي جمادى الآخرة سنة ٨٧٣هـ عين السلطان الأتابكي أوزبك، وأمير المجلس قرقماس، وسودون القصري رأس نوبة النوب، وقمر حاجب الحجاب، وقراجا الطويل الأينالي، وجاني بك الزيني وأكثر من عشرين أميرا، وخرجت هذه التجريدة الكبيرة في شهر شعبان ومعهم حوالي ألف وخمسمائة مملوك.

وبعد أن وصلت التجريدة إلى حلب وصلت الأخبار أن الجيش قد تمكن من أخذ باب الملك أنهم قد كسروا شاه سوار وقد قتل أخيه مال باي الأقطع قد قتل وقتل جماعة كبيرة من جنوده، وقد أرسلت رأس مال باي الأقطع

٤٣ - الصيرفي - علي بن داود الجوهري (ت ٩٠٠هـ) - إنباء الهصر بأنباء العصر - تقديم وتحقيق د. حسن حبشي - طبعة (٢٠٠٢م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ١٨.

٤٤ - المصدر السابق - ٤٤.

ومعه رأسين من أمراء سوار، فطيف بهذه الرؤوس في شوارع القاهرة ثم علقت على باب زويلة، ولكن الذي حدث أن المماليك لم يتمكنوا من المحافظة على هذا النصر الذي حققوه، فقد جاءت الأخبار بعد ذلك في ذي القعدة بأن العسكر المصري قد انكسر أمام شاه سوار بعد أن احتال عليهم بأن جرهم خلفه فلحقوا به إلى موضع ضيق جدا بين الأشجار فخرج عليهم كمين كان هناك وكانوا السواد الأعظم من التركمان، فخرجوا علي المماليك ومعهم القسي والنشاب والسيوف والفؤوس فأحدثوا مقتلة عظيمة في المماليك، وقد تمكن المماليك من الهرب من هذا الكمين بشق الأنفس إلى الشام ومنها إلى القاهرة في حالة يرثى لها. ٤٥

حرب نائب ملطية مع سوار سنة (٨٧٤هـ):

وقد جاءت الأخبار من حلب في صفر بأن نائب ملطية الأمير قرقماس الصغير حارب سوار شاه وتمكن من هزيمته وأحدث مقتلة عظيمة في جنوده فقتل منهم نحو خمسمائة، وأسر عدد كثير من أمرائه وأقاربه.

رسول سوار إلى السلطان سنة (٨٧٤هـ):

وفي رمضان سنة ٨٧٤هـ قدم رسول إلى السلطان الأشرف من عند شاه سوار، وكان معه هدية للسلطان ورسالة من شاه سوار فأذن للرسول في الصعود إلى القلعة من دون الهدية، وكان في الرسالة عدة طلبات رفضها السلطان كلها، فقد طلب سوار الصلح على شروط هي: «أن يكون أمير الأبلستين،

٤٥- الحنفي - محمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثالث - حققها وقدم لها وكتب لها الفهرسة د. محمد مصطفى زيادة - طبعة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة لمصرية للكتاب - القاهرة - ص ١٥ وص ٢١ وص ٢٦ وص ٢٩ وص ٣٢ وص ٣٣ وص ٣٤.

وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب، وأنه في المقابل يسلم مدينة عينتاب للسلطان» فلم يقبل السلطان بالصلح وأنزل الرسول دون أن يخلع عليه، وكان هذا معناه استمرار الحرب مع شاه سوار. ٤٦

التجريدة الثالثة والأخيرة سنة (سنة ٨٧٦هـ):

وفي شهر المحرم سنة ٨٧٥هـ أمر السلطان الأمير أينال الأشقر رأس نوبة النوب ومعه الكثير من الأمراء وقصدوا التوجه إلى حلب لحمايتها وحفظها من شاه سوار، وأمرهم السلطان بالبقاء هناك حتى يأتي الجيش المصري، وجمادى الأولى عين السلطان بخروج الجيش لتأديب شاه سوار، وكان الأمير يشبك الدوادار الكبير باش العسكر ومعه الأمير قمران الشمسي ابن أخت السلطان، وأن خروج الجيش سوف يكون بعد تربيع الخيول.

مقتل الأمير قرقماس الصغير على يد شاه سوار سنة (٨٧٦هـ):

قامت الحرب بين شاه سوار وقرقماس الصغير مرة أخرى وكان النصر حليفه هذه المرة، فكانت الحرب بينهما في المحرم سنة ٨٧٦هـ، وأسر الأمير قرقماس الصغير وقتله بأن علقه في شجرة ورماه بالنشاب حتى مات. ٤٧

٤٦ - المصدر السابق - ص ٤٤.

٤٧ - المصدر السابق - ص ٣٨ و ص ٦٢.

انتصار التجريدة الثالثة على شاه سوار:

وقد خرج الجيش في شهر شوال سنة ٨٧٥هـ، وفي شهر صفر سنة ٨٧٦هـ أتت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك قد أخذ قلعة عينتاب من شاه سوار، وأن شاه سوار قد هرب حاملاً معه أولاده وعياله وأمواله وأودعهم في قلعة زمنطوا، وفي جمادى الأولى حضر الأمير محمد ابن نائب البهسنا من عند الأمير يشبك الدوادار ومعه كتاب فيه أن شاه سوار قد انهزم، وأن جنوده قد تركوه وهربوا فأصبح أمر شله سوار في انحطاط، وقد ذكر في كتابه أن الحرب كانت بينهم وبين شاه سوار عند نهر جيحون، وأن الأمير يشبك قد ثبت في الحرب ومعه المماليك أمام هجمات جنود شاه سوار وتمكنوا في النهاية من هزيمتهم، فقتل من جنود شاه سوار خمسمائة، وأسر ثلاثمائة، ولولا هجوم الليل لتمكن المماليك من إفناء جيش شاه سوار كله، ولم يقتل من المماليك سوى اثنان وغرق ثالث، وقد جرح الأمير تميز الشمسي بسم في رجله ولكنه جرح طفيف.

ولكن شاه سوار تمكن بالفرار هو ومن تبقى معه من الجنود إلى قلعة زمنطوا، فقام الأمير يشبك بمحاصرة القلعة وربماها بالمدافع، وفي شهر شوال سنة ٨٧٦هـ أتت الأخبار من عند الأمير يشبك الدوادار بأن شاه سوار قد طلب الصلح، وأنه يطلب من السلطان أن يكون نائبه على قلعة دندرة، وأنه سوف يبعث بولده ومعه القلعة، فلم يوافق الأشرف على طلبه وأنه لا بد أن يحضر هو بنفسه إلى حضرته بالقاهرة.

وفي ذي الحجة من السنة نفسها وصل رسول من عند الأمير يشبك ومعه رسالة يخبر فيها أن شاه سوار قد طلب الأمان لنفسه، وأنه يريد الإقامة في قلعة زمنطوا ومعه أهله وعياله، فرد عليه الأمير يشبك: «حتى نكتب السلطان بذلك» ٤٨.

٤٨ - المصدر السابق - ص ٥٢ وص ٥٤ وص ٥٩ وص ٦٢ وص ٦٤ وص ٦٥ وص ٦٦ وص ٦٩

وص ٧١.

القبض على شاه سوار بن ذي القادر سنة (٨٧٧هـ):

وفي المحرم حضر الأمير قاني باي صُلق من حلب إلى مصر في خيل السريعة في مدة ثلاثة عشر يوماً، ومعه رسالة من باش العسكر الأمير دودار وفيها البشارة بالقبض على شاه سوار وأنه قد أنزله من قلعته زمنطوا بالحيلة، فقد طلب يشبك من الأمير تَمراز الشمسي أن يصد إلى القلعة ويتلطف بالكلام مع شاه سوار وينله من مخبئه، فلما صعد الأمير تَمراز وكان معه القاضي شمس الدين بن أجا الحلبي قاضي العسكر فقابلوا شاه سوار ودار بينهم الكلام على انتهاء الحرب، فطلب سوار أن يلبسه السلطان خلعة السلطنة ويقبل له الأرض ولا يقابل الأمير يشبك، فلم يوافق على ذلك الأمير تَمراز، فقال له سوار: «أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة وأخشى إذا نزلت إليهم قتلوني» فأجابه تَمراز: «ضمانك عليّ ما يصيبك شيء» فلم يوافق سوار على طلبه، فانتهى المجلس على امتنع الطرفين، فعاد تَمراز الشمسي بجواب سوار إلى الأمير يشبك فلم يوافق على طلباته، فزاد تضيق الحصار على القلعة وزاد من رمي أسوار القلعة بالمدافع فزاد ضيق وخوف سوار وأرسل يطلب الأمير تَمراز والقاضي شمس الدين ثانية، وأنه ينزل معهما فلما صعدا إليه فأضافهما ثم نزلوا جميعاً في منتصف النهار ومعه عدد قليل من عسكره وتوجه إلى خيمة الأمير يشبك فرحب به الأمير وألبسه خلعة، فلما أراد سوار الانصراف قال له يشبك: «امض إلى نائب الشام وسلم عليه» وكان نائب الشام و الأمير برقوق، فلما وصل إلى خيمة برقوق نزل عن فرسه ودخل عليه وصحبته الأمير تَمراز الشمسي، فلما سلم عليه قال له برقوق: «من أنت؟» قال له: «أنا سوار»، قال: «أنت سوار» قال: «نعم أنا سوار» فأخذ يردد عليه السؤال ويرد عليه سوار بنفس الإجابة ثم قال له برقوق: «أنت الذي قتلت الأمراء والعساكر؟ فسكت سوار، ثم قال برقوق: «أحضروا له خلعة» فأتوا إليه بخلعة وفي

ضمنها جنزير فلما ألبسوها له وضعوا في عنقه ذلك الحديد، فلما رأى جنود سوار ما حصل له ثاروا وسلوا السيوف من أغمادها، وكان برقوق قد أعد كمان لتوقعه حدوث ذلك فهجم مجموع من الفرسان في كامل أسلحتهم فقتلوه جميعاً، ثم أمر بالقبض على سوار شاه، فلما تأكد الأشرف من صحة هذه الأخبار خلع على الأمير قاني باي.

ثم وصل الجيش المصري بقيادة الأمير يشبك إلى القاهرة في يوم الإثنين ١٨ من ربيع الأول ومعه الشاه سوار وفي رقبته جنزي من حديد ومعه اخوته، فصعدوا به إلى القلعة فعمل السلطان الموكب السلطاني بالقصر الكبير، فدخل عليه الأمراء وقبلوا له الأرض، فأمر بالانتقال إلى الإيوان فعقد المجلس به وطلب شاه سوار فمثل بين يدي السلطان فبدأ يوبخه بالكلام، ثم أمر به فسجن أحد أبراج القلعة.

ثم أخذوا شاه سوار ومعه اخوته الأربعة وهم: «أردوانة الأحذب، وخدادا، ويحيى كاور، وسلمان» ومعهم بقية الأمراء، فسمروهم وأركبوهم على ظهور الجمال ونزلوا بهم من شارع الصليبة، والمشاعلية تنادي عليهم: «هذا جزاء من يخامر على السلطان» فاستمروا على ذلك حتى وصلوا بهم إلى باب زويلة فشنكلوا سوار وعلقوه في وسط الباب زويلة، وأخاه يحيى عن يمينه وأردوانة عن شماله، وعلقوا خُدادا داخل الباب، وأما سلمان فكان صغير السن جميل الهيئة فرق له الناس، فشفع فيه الأمير يشبك فخلصه من الشنكلة، ثم توجهوا ببيعة الأمراء إلى بركة الكلاب فوسطوهم - قطعوهم بالسيف من منتصف أجسادهم - أجمعين، ومات شاه سوار وإخوته الثلاثة بعد أن ظلوا معلقين يوماً وليلة كاملة والناس تنظر إليهم، ثم أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم، ودفنوهم بالقرب من زاوية كهنيوش هناك. ٤٩

ثانيا: الحرب مع الملك حسن الطويل سنة (٨٧٧هـ):



رسم أوروبي للملك حسن الطويل

وكان حسن الطويل ملكا على اتحاد قبائل الآق قوينلو أو الشاة البيضاء التركمانية وقد تمكن بفضل حسن سياسته وقوة جيوشه أن يضم إلى مملكته ديار بكر ممالك العراقيين وبلاد ما وراء النهر وخرسان وتبريز، وكان شوكة في حلق العثمانيين وتوسعاتهم في آسيا الصغرى وما حولها من بلاد، وقد تمكن من انتزاع حصن كيفا من الأيوبيين فأنهى بذلك آخر نفوذ الأيوبيين وإلى الأبد، وفي رجب سنة ٨٧٣هـ وصلت سفارة من حسن الطويل ومع الرسول هدية للسلطان ومفاتيح القلاع والحصون، وأنه نائب السلطان في

هذه البلاد التي فتحها، فأخلع السلطان على رسول حسن الطويل بكاملية حافلة، وأرسل معه هدية لملكه حسن الطويل، وكان كل ذلك مخادعة من حسن الطويل للسلطان الأشرف.

ففي شهر شوال من هذه السنة أتت الأخبار إلى القاهرة بأن حسن الطويل قد تمكن من هزيمة السلطان أبو سعيد أحمد بن سعدان شاه بن تيمور لك سلطان سمرقند وبخارى، وكان أعظم ملوك الشرق، فخاف السلطان الأشرف من حركة حسن الطويل القادمة، وفي ذي القعدة وصل رسول حسن الطويل ومعه رأس أبو سعيد موضوعة في علبة.

ولما رأى حسن الطويل تجراً شاه سوار على سلطان المماليك بمصر طمع هو الآخر في الاستيلاء على البلاد الحلبية، فتحرك في سنة ٨٧٥هـ لمحاربة دولة المماليك، فلما سمع الأشرف قايتباي هذه الأخبار تنكد وعزم على الخروج بنفسه إلى حلب.

وفي ذي القعدة سنة ٨٧٦هـ أتى رسول من عند حسن بك الطويل ومعه هدية للسلطان ورسالة سرية لم يطلع السلطان عليها أحد ولكنها أزعجته، وفي جمادى الآخرة سنة ٨٧٧هـ أتت الأخبار من نائب حلب بأن الملك حسن بك الطويل ملك العراقيين قد حشد جيشه وأنه زاحف على بلاد السلطان الأشرف وقد أرسل ابنه محمد إلى مدينة الرها، فلم يصدق السلطان ولا الأمراء المماليك ما يحدث لهم ولدولتهم من فتن وشرور.

وفي جمادى الآخرة عين السلطان تجريدة جديدة لمحاربة حسن الطويل وعليها الأمراء «جاني بك قلقيسز أمير سلاح، وسودون الأفرم، وقراجا الطويل الأينالي» ومن الجنود نحو خمسمائة مملوك وأمرهم بالتوجه فوراً إلى حلب. ٥٠

استيلاء حسن الطويل على بعض البلاد وتهديده للأمير الأبلستين سنة (٨٧٧هـ):

وفي جمادى الآخرة أتت الأنباء من حلب بأن جيش حسن بك الطويل قد تمكنت من الاستيلاء على كختا وكركر، وبعث برسالة مكتوبة بماء الذهب إلى الشاه بُضاغ حاكم الأبلستين وفيها بضرورة تسليمه للقلاع التي تحت يده، وأن يكون تحت طاعته، وكان من ضمن الكتاب جملة مفادها: «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، ثم هدد في مكاتبتة بأن متى خلفه يحصل عليه منه ما هو كيت وكيت» فأرسل شاه بُضاغ هذه الرسالة السلطان الأشرف، فلما قرأها انزعج منها، فأمر بتعيين الأمير يشبك الدوادر باش العسكر، وعين لهذه التجريدة أكثر من ألفين مملوك للخروج وحرب حسن بك الطويل، فخرجت التجريدة من الريدانية رجت القاهرة لخروجهم وكان يوما من أيام القاهرة المشهودة.

وفي رجب أرسل نائب الشام رسالة حسن الطويل يهدده ويأمره بالطاعة وكان في صدر هذه الرسالة آية قرآنية هي: «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» فانزعج السلطان من هذه الرسالة، ثم أتت أخبار مفرحة للسلطان الأشرف من نائب حلب فيها أن نائب البيرة ردبش قد قبض على بعض جنود حسن الطويل وكسر جيشه، فسر السلطان لهذه الأخبار.

*القبض على جواسيس حسن بك الطويل بحلب سنة (٨٧٧هـ):

وفي شعبان من هذه السنة أتى رسول من نائب حلب يفيد أن نائب حلب قبض على بعض جواسيس بلغ عددهم حوالي أربعين رجلا كان من أهمهم عثمان بن أغلبك، وأستادار مقدمة حسن الطويل التي كانت بحلب فكانوا يكتبون حسن الطويل بأخبار السلطنة، فأمر نائب حلب بشنقهم جميعا، فشنقوا بحلب.

انتصار يشبك الدودار على جيش حسن الطويل سنة (٨٧٧هـ):

وفي شوال دخل يشبك الدودار الكبير إلى حلب، ثم أتى إليه رسول من عند حسن الطويل ومعه رسالة فيها أن يفرج يشبك عن الأسرى الذين تم أسرهم وسجنهم بحلب، فإذا أطلق سراحهم أطلق سراح من عنده من المماليك، وكان فيهم الأمير دولاب باي النجمي والذي كان نائب ملطية وناس آخرين، فلم يلتفت يشبك إلى رسالة حسن الطويل، ولا حتى رد عليه رسالته.

وفي ذي القعدة أرسل نائب حلب بأن الأمير يشبك قد بعث جماعة من الجنود إلى البيرة لمقاتلة جنود حسن الطويل، وأن الجنود قد انتصروا عليهم، وأن حسن الطويل أرسل للفرنج لكي يقيم معهم حلفاً ضد سلطنة المماليك، وفي أواخر الشهر أتت رسالة من عند ابن الصوّا من حلب يخبر فيها بأن الأمير يشبك قد انتصر على جيش حسن الطويل وأجلاهم عن البيرة، وأن محمد بن حسن الطويل قد جرح جراحات بليغة، وأصيب أحد إخوته في عينه، وكانت معركة مهولة، وقتل من أمراء المماليك الأمير قرقماس العلائي، وانتهت الحرب بانتصار المماليك. ٥١

وكان حسن الطويل قد أرسل أمير الحاج العراقي ويدعى رستم ومعه القاضي أحمد بن دحية وكسوة للكعبة وأمر أميراً مكة والمدينة أن يخطبا للملك العادل حسن الطويل فقبض عليهما شريف مكة محمد بن بركات ووضع الحديد في أيديهم وأرسلهم إلى السلطان الأشرف بمصر.

وفي شعبان سنة ٨٧٧هـ عاد عدد كبير من جنود التجريدة، وفي رمضان عاد الأمير يشبك الدودار الكبير ودخل القاهرة ومعه بقية الجنود فصعد إلى

القلعة فخلع عليه السلطان وأنزله في موكب حافل أوصله حتى داره، وقد قام الأمير يشبك بالشفاعة في أمير الحاج العرقي رستم والقاضي أحمد بن دحية فأطلق السلطان قايتباي سراحهما وخلع عليهما ترضية لخاطر الملك حسن الطويل.

وفي المحرم سنة ٨٧٩هـ قدم رسول من عند الملك حسن الطويل ومعه كتاب فيها الاعتذار مما كان منه من عداوة سلطنة المماليك، وأن قرار محاربته لم يكن باختياره، فأكرم السلطان الرسول وأخبره بأن رضي عن حسن الطويل وعفى عما بدر منه.

الأمير محمد أوغولوا بن حسن الطويل يستنجد بنائب حلب سنة (٨٨٠هـ):

وفي ربيع الآخر وصلت الأخبار من حلب بأن محمد أوغولوا بن حسن الطويل قد حارب أباه وطلب النجدة من نائب حلب، فقام نائب حلب بإرسال حملة من العساكر بقيادة أينال الحكيم أتاك حلب، فلما التقوا بجنود حسن الطويل انكسر عسكر حلب، وجرح محمد أوغلا جرحاً بالغاً، ورجع إلى حلب فقط خمسة، وأن أينال الحكيم فقد في المعركة، وقتل من عسكر حلب أغلبهم، فلما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان الأشرف بالقلعة غضب وقام تعيين تجريدة للخروج إلى حلب ورصد تحركات حسن الطويل، وفي تلك الأثناء أرسل اب الصّوا رسالة فيها أن جيش حسن الطويل قد عاد إلى بلاده، فأبطل السلطان أمر التجريدة.

وهكذا انتهت فتنة ملك العراقيين الملك العادل حسن بك الطويل، ولم يعد لمحاربة المماليك بعد هزيمته وظل ساكناً حتى مات في شعبان سنة ٨٨٣هـ.

بابندر نائب ابن حسن الطويل يقتل الأمير يشبك سنة (٨٨٥هـ):

فقد وردت الأخبار من حماة، وأن نائب حلب الأمير أزدمر قريب السلطان قد قتل في فتنة حدثت بحماة، وسببها أن الأمير سيف أمير قبيلة آل فضل أعلن العصيان على السلطان فحاربه أزدمر فقتل وقتل معه جماعة من الأمراء، ولما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان انزعج وقام بتعيين تجريدة إلى حماة.

وفي ربيع الأول عين السلطان الأمير يشبك الدوادر وعين معه مجموعة من الأمراء الكبار، وكان غرض الأمير من الخروج في هذه التجريدة أن يقصد ديار بكر وممالك العراق فقد كانت مملكة حسن بك الطويل بعد وفاة ابنه خليل في اضطراب وعدم استقرار، وقد حسن له بعض الأعاجم القادمين من بلاد العرق أنه متى توجه إلى حرب أبناء حسن الطويل فإنهم يستسلمون له ويسلموه بلادهم، فانخدع بقولهم، وخرجت التجريدة بقيادة يشبك في ربيع الآخر ومعه خمسمائة مملوك.

وفي رجب أتت الأخبار بأن الأمير يشبك دخل الشام وأخذ معه نائبها قنصوة اليحياوي ثم توجه إلى حلب وأخذ نائبها، ونائب حماة، ونائب طرابلس، وكان معه عساكر مصر والشام وحلب وغيرهم فكان عددهم حوالي عشرة ألف جندي، فلما علم سيف أمير آل فضل بقدوم يشبك فر هاربا إلى الرها عند نائب الملك يعقوب بن حسن الطويل ويدعى بابندر، فعدى الأمير يشبك بكل الجيش نهر الفرات وحاصر مدينة الرها أشد الحصار حتى كاد أن يستولي عليها، فأرسل له بابندر يقول له: «ضمان مسك سيف علي» وأرسل له مرة أخرى يقول: «ارحل من الرها

وأنا أجمع لك من أهل المدينة مالا له صورة» فلم يرضى الأمير يشبك بأي من هذه الأمور فأمر بنفخ النفير وركوب العساكر كاملة، وبرز لهم بابندر بعساكره فدارت الحرب بين الطرفين والتي لم تدم أكثر من ساعة حتى انكسر الجيش المملوكي، وأسر الأمير يشبك الدوادر وظل عنده في الأسر ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع بعث إليه بابندر بعبد أسود بقم بقطع رقبتة، ثم رموا بجثته على قارعة الطريق مكشوف العورة. ٥٣

سفارة يعقوب بن حسن الطويل للسلطان الأشرف سنة (٨٨٦هـ):

وفي رمضان سنة ٨٨٦هـ وصلت سفارة من عند الملك يعقوب بن حسن الطويل ومع الرسول كتاب فيه اعتذار من مليكه عما قام به نائبه على الرها بابندر من قتله للأمير يشبك الدوادر، وأنه لم يكن بعلمه فعاتب السلطان القاصد، ثم قام بإضافة الرسول وأخلع عليه وأذن له بالسفر إلى بلاده. ٥٤

السفارات الدولية في عهد السلطان الأشرف قيتباي:

فقد قام السلطان الأشرف قيتباي بإرسال الرسل واستقبال الرسل والسفارات من مختلف إمارات وممالك دول العالم في زمانه، وكانت أهمها هي:

٥٣ - المصدر السابق - ص ١٦٤ وص ١٦٥ وص ١٦٦ وص ١٦٧ وص ١٦٩ وص ١٧٠ وص ١٧١.

٥٤ - المصدر السابق - ص ١٨٩.

سفارة ملك الهند غياث الدين سنة (٨٧٦هـ):

ففي جمادى الآخرة أتى رسول من عند ملك الهند غياث الدين ومعه هدية للسلطان الأشرف، وهدية أخرى للخليفة المستنجد بالله يوسف، وأرسل كتاب فيه طلب أن يرسل له الخليفة والسلطان تقليدا بولايته على بلاد الهند، فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأرسل الخليفة له تقليدا بولايته على بلاد الهند. ٥٥

سفارة السلطان الأشرف لملك قطلونية سنة (٨٨٤هـ):

فقد كثرت في عهد السلطان الأشرف عمليات القرصنة في البحر المتوسط، وكان مقر خروج سفن القراصنة من ميناء قطلونية، فقام السلطان الأشرف في ذي الحجة بإرسال سفارة من عنده وكان سفيره الخواجه محمد بن محفوظ المغربي وأرسل معه هدية عظيمة لعله يوقف عمليات القرصنة في البحر المتوسط. ٥٦

سفارة ملك قبرص للسلطان سنة (٨٨٤هـ):

وفي ذي الحجة من هذه السنة أرسل ملك قبرص سفارة إلى السلطان الأشرف

٥٥ - سليم - محمود رزق - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي - المجلد الثاني (وهو القسم الثاني من الجزء الأول) - الطبعة الثانية (١٣٨٤هـ/١٩٦٥م) - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - القاهرة - ص ١٧.

٥٦ - الحنفي - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى - الجزء الثالث (من سنة ٨٧٢هـ إلى سنة ٩٠٦هـ) - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ١٥٠.

ومعها ما كان المقرر عليه من الجزية، وكان عاصيا مدة سنين لا يرسل الجزية السنوية وكان السلطان قد عين خروج تجريدة تأديبية إلى ملك قبرص فلما أرسل ما عليه من الجزية أوقف خروج هذه التجريدة، وهذا وإن دل على شيء دل على مدى قوة ونفوذ المماليك في تلك الفترة على من حولهم من الممالك والدول. ٥٧

سفارة ملك غرناطة طالبا النجدة من السلطان سنة (٨٩٢هـ):

وفي ذي القعدة أتت سفارة من عند ملك غرناطة أبو عبد الله الصغير محمد بن علي آخر ملوك ومع الرسول رسالة فيها طلب العون من السلطان الأشرف أن يرسل له تجريدة تعينه على حرب الفرنج، فقد كانت غرناطة تحت الحصار، فلما قرأ الرسول الرسالة على السلطان رأى أنه من الصعب جدا إرسال جنود إلى غرناطة لبعدها المسافة، ولكن قام بالإرسال إلى قساوسة كنيسة القيامة بالقدس وأمرهم أن يرسلوا كتابا على يد قسيس من كبرائهم إلى ملك الفرنج بمدينة نابل - نابولي بإيطاليا - بأن ي كاتب ملك قشتالة يأمره فيها بفك الحصار عن مسلمي غرناطة، وإلا سوف يقوم سلطان المماليك بإزعاج أهل كنيسة القيامة ويقبض عليهم، ويمنع أيضا جميع طوائف الفرنج من دخول الكنيسة ويأمر بهدمها، وقد قام القساوسة بهذه المهمة ولكن لم يمنع ذلك من سقوط غرناطة، فقد استمر الحصار حتى ملكوا المدينة وطردها أهلها ونصروا من بقي منهم. ٥٨

٥٧ - المصدر السابق - ص ١٥٠.

٥٨ - المصدر السابق - ص ٢٤٤ و ص ٢٤٥.

تجار الفرنجة يأسرون تجار السلطان:

ففي رمضان أتت الأخبار من ثغر الإسكندرية بأن بعض تجار الفرنج قد تمكنوا من أسر مجموعة من التجار المسلمين وكان فيهم تجار للسلطان الأشرف وهم: «ابن عليبة، وابن يعقوب، وعلي الكيزاني، وعلي النمراوي» وخرجوا بهم من ساعتهم نحو بلاد الفرنج، وقد أرسل أهل اسكندرية رسالة للسلطان بما جرى على تجاره فأرسل السلطان أحد خاصكته وهو الأمير قيت الساقى ومعه مراسيم إلى نائب الإسكندرية يأمره فيها بالقبض على جميع تجار الفرنج الموجودين في الإسكندرية وعلى طول السواحل، فقبض عليهم قيت الساقى وأودعهم في الحديد وضيق عليهم، ثم ألزمهم أن يكتبوا ملوك الفرنج لكي يقدوا أنفسهم مقابل تجار السلطان الذين تم أسرهم، وانتهت هذه الفتنة بقيام تجار السلطان بشراء حريتهم من الفرنجة بأموال كبيرة وعادوا إلى الإسكندرية مرة أخرى. ٥٩

أعمال السلطان التحصينية ضد هجمات قراصنة الفرنج:

ومع كثرة عمليات القرصنة في البحر المتوسط والتي كانت تخرج من جزيرة رودس ومملكة قطلونية، قام السلطان ببناء أبراج وقلاع على المدن الساحلية وإنشاء سلاسل ضخمة لمنع السفن الأوروبية وهي:

أولاً: بناء البرج العظيم في مدينة رشيد سنة (٨٧٦هـ):

فقد أمر السلطان في ذي الحجة سنة ٨٧٦هـ ببناء وانشاء البرج العظيم بثغر رشيد، فتم بناء على أحسن ما يكون، فكان من أحسن وأقوى البروج من حيث البناء والإمكان، وكان الغرض من بنائه رصد حركات القرصنة في البحر وصد هجماتها عن ساحل المدينة. ٦٠

ثانياً: إنشاء السلسلة الضخمة على ساحل دمياط سنة (٨٨٤هـ):

وقد أنشأ الأمير يشبك الدوادر في ثغر دمياط بأمر السلطان الأشرف سلسلة من حديد وزنها حوالي ٢٥٠ قنطاراً من الحديد، وكانت هذه السلسلة قديمة الصنع ولكن بطل العمل بها، ثم جاء السلطان وجدد العمل بها وكان الغرض من صنعها هو منع وطرده سفن الفرنجة الحربية، ومكانها عند برج الظاهر ببيرس. ٦١

ثالثاً: بناء قلعة قايتباي بالإسكندرية سنة (٨٨٤هـ):

وبدأ العمل في بناء القلعة في ربيع الأول سنة ٨٨٢هـ على أساسات منار الإسكندرية القديم، وقد جعل لهذه القلعة مقعد يطل على البحر ينظر من خلاله الحرس مسيرة يوم فينظر إلى مراكب الفرنجة وهي داخلة إلى الميناء فيكونوا على حذر منها، وبنى أيضاً جامعاً من الجهة الشمالية الشرقية للقلعة وبنى مربع الشكل وجعل له أربعة أبراج من جهاته الأربع فكانت مساحته ٣٠ متراً، وجعل بداخلها أيضاً فرناً وطاحونة وحواصل،

٦٠ - المصدر السابق - ص ٧١.

٦١ - المصدر السابق - ص ١٥٠.

وشحن القلعة بالرجال والسلاح، وجعل تحت القلعة دهاليز على مساحات واسعة تحت الأرض تمتد حتى تصل إلى داخل القلعة، وجعل لهذه القلعة فتحات لرمي السهام من خلالها ومكاحل ومدافع معمرة ليلا ونهارا من أجل ضرب سفن الفرنجة، فكانت هذه القلعة تصل مساحتها ٢٠ ألف متر مربع، فكان طولها ١٥٠ مترا، وعرضها ١٣٠ مترا، فجاء شكلها شبه مربع تحيط بها المياه من ثلاثة جهات. ٦٢



قلعة قايتباي بالإسكندرية

وهكذا نرى إنجازات هذا السلطان العظيم من مواجهة أعداء السلطنة الطامعين في ممتلكات المماليك في البلاد الحليية وما جاورها منتهزين

٦٢ - المصدر السابق - ص ١٣٢ و ص ١٥٥.

- الدكتور سعاد ماهر - محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامي - طبعة (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) - لجنة الخبراء المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة - ص ١٦٣ و ص ١٦٤.

خلافات المماليك الداخلية، فقام السلطان بواجبه أمامهم بكل حزم وتمكن من هزيمتهم وقهرهم، وأيضاً بنائه القلاع الحصينة على سواحل البلاد، وأيضاً محاولته الصادقة لنجدة أهل الأندلس، ولولا بعد المسافة لتمكن من نصرتهم على أعدائهم الأسبان.



حدود الدولة المملوكية في أقصى اتساعها في عهد الأشرف قايتباي

٢٢- السلطان ناصر الدين أبو السعدات محمد بن قايتباي (٩٠١هـ - ٩٠٤هـ):

تولى السلطنة سنة ٩٠١هـ قبل وفاة أبيه بيومين، وكان مدبر دولته الأتابك قانصوه خمسمائة، وكرتباي الأحمر الأستاذار، وطمع في أمر السلطنة الأمير قنصوه خمسمائة فقام بعمل فتنة كبيرة انهزم فيها هو جنوده أمام ممالك السلطان محمد، ففر واختفى ولكن الفتنة لم تخمد في السلطنة، وقد قتل السلطان ناصر الدين محمد في كمين عمله له أحد أمرائه يدعى طومان باي فقد قتله في ليلة لهو سنة ٩٠٤هـ وعمره لم يتجاوز السابعة عشرة.

٢٣- السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه (٩٠٤هـ - ٩٠٥هـ):

هو أبو سعيد قانصوه الأشرفي أصله من ممالك السلطان قايتباي وأخذ في الترقى سريعاً، ولم يهنأ بالسلطنة فقد خرج عليه الأمراء، فخرج عليه كلا من الأمير جان بلاط، والأمير طومان باي الدوادار فانهزم السلطان أمامهما ففر واختفى سنة ٩٠٥هـ.

٢٤- السلطان الأشرف جان بلاط (٩٠٥هـ - ٩٠٦هـ):

تولى السلطنة بعد اختفاء السلطان الظاهر قانصوه وجعل مدبر أمر السلطنة الدوادار طومان باي، وقد جد في البحث عن الظاهر قانصوه حتى وجده فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية، ولكنه لم يهنأ بالملك فقد انقلب عليه الأمير طومان باي وطلب السلطنة لنفسه وانضم إليه

عدد كبير من المماليك، فتحصن السلطان الأشرف جان بلاط بالقلعة مع جنوده ولكنه أسر في النهاية وأرسل إلى سجن الإسكندرية ثم مات خنقا فيه سنة ٩٠٦هـ.

٢٥- السلطان العادل طومان باي (٩٠٦هـ):

هو أبو النصر طومان باي الأشرفي وكان من كبار المماليك، وكان معروفا عنه الغدر فقد قتل ابن سيده الناصر محمد بن قايتباي، وغدر بالسلطان الظاهر قانصوه، وأمر بخنق الأمير قوصروه الذي عانوه للوصول إلى السلطنة فأمر بخنقه، فتحالف عليه الأمراء وحاربوه حتى هزموه ففر واختفى إلى أن عثر عليه فحزت رأسه سنة ٩٠٦هـ.

٢٦- السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦هـ - ٩٢٢هـ):

هو السلطان أبو النصر قانصوه الغوري من مماليك الأشرف قايتباي، وقد أعتقه الأشرف وأخذ في الترقى حتى أصبح أستاذارا للسلطان العادل طومان باي، فلما هزم واختفى السلطان طومان باي اتفقت كلمة المماليك على تولية قانصوه الغوري وكان عمره وقتها ستين عاما تقريبا، وهو الذي قبض على السلطان السابق العادل طومان باي وأمر بإعدامه، وعندما تولى أمر السلطنة كانت في أسوأ حالتها من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، فقد اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح فتضررت الدولة لذلك فقد نقصت الضرائب التي كان يجنيها سلاطين المماليك من مرور السفن الأوروبية من خلال مصر إلى بلاد الهند والشرق، وكثرت الغارات من قبل الفرس

والعثمانيين على أطراف وحدود سلطنة المماليك خصوصا بلاد الشام، ولكن كانت هزيمته في معركة مرج دابق وموته بالشلل على إثر خيانة أحد كبار قواده وهو خاير بك والذي فر من أرض المعركة والتحق بالسلطان العثماني سليم الأول، وكانت هذه المعركة في شهر رجب سنة ٩٢٢هـ.

الأساطيل البرتغالية والإسبانية تغزوان العالم الإسلامي:

ومن سوء حظ السلطان قنصوه الغوري أن حركة الملاحة الغربية تقدمت تقدما كبيرا سبقت فيه أسطول المماليك من الناحية العسكرية ومن ناحية الصناعة وشكل السفن، فقد كان لخروج المسلمين من الأندلس الأثر البالغ في خروج السفن الأوروبية من البرتغال وإسبانيا فيما عرف في أوائل القرن الخامس عشر بحركة الكشف الجغرافية، والتي كان دوافعها عديدة أهمها:

١- الدافع الديني:

فقد كان الغرض من خروج الأساطيل البحرية البرتغالية والإسبانية هو مطاردة المسلمين وكسرهم في عقر دارهم، والانتقام منهم بالقتل والأسر والتشريد، وفرض النصرانية عليهم بالإجبار، لهذا كان طابع هذه الحملات صليبي من الدرجة الأولى.

٢- الدافع الاقتصادي:

كانت أوروبا في تلك الفترة تعاني من أزمات اقتصادية طاحنة، فأرادت أن

تصل إلى كنوز الشرق والبلاد البعيدة مثل الهند وغيرها والاستيلاء على الذهب والفضة، لهذا قامت برحلات الكشوف الجغرافية، وأيضاً أرادت أن تكسر شوكة الممالك الاقتصادية والمتمثلة في الضرائب التي تحصل عليها من مرور السفن من خلالها إلى بلاد عرب والهند، لهذا قامت باللف حول القارة الإفريقية مبتعدة عن البحر المتوسط الذي تسيطر عليه الممالك، وقد نجحت في ذلك باكتشافها رأس الرجاء الصالح والذي أضعف الممالك اقتصادياً.

أولاً: الخطر البرتغالي:

وهو المتمثل في بقايا الحروب الصليبية التي قادتها هذه المرة البرتغال وتبعتها إسبانيا ضد العالم الإسلامي، فقد تمكنت الأساطيل البرتغالية من احتلال مدن الساحل الغربي للمغرب الأقصى مستغلين ضعف دولة بني مرين، والنزاع الذي كان قائماً بينها وبين بني وطاس، وهذه المدن هي: «سبتة سنة ٨١٨هـ، ومدينة القصر سنة ٨٦٢هـ والتي تقع بين سبتة وطنجة، وطنجة سنة ٨٦٩هـ، وأصيلا وإفني سنة ٨٧٦هـ، والعرائس وأغادير ورباط أسفي، وآزمور والمعمورة» ولم تكتفي بهذه المدن فقط بل التف الأسطول البرتغالي حول أفريقيا ليصل إلى الصومال واليمن والهند ويتمكنون من احتلال مدن «سواكن، وعدن»

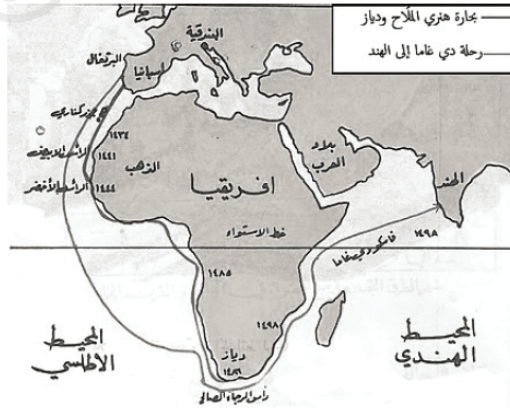
ثانياً: الخطر الأسباني:

وأما الأساطيل الإسبانية فقد طاردت المسلمين بعد سقوط مدينة غرناطة

آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة ١٤٩٢م، فقد قامت باحتلال جنوب البحر المتوسط الغربي، فقد تمكن القائد بيدرو نفارو من احتلال ميناء المرسى الكبير، ثم تمكن من احتلال مدينة وهران، ثم مدينة بجاية، ثم طرابلس الغرب، وعنابة وتنس وشرشال ودلس ومستغانم والجزائر» وأجبروا ملك تلمسان أن يعلن تبعيته للإمبراطورية الإسبانية.

ثالثا: بارثولوميو دياز يكتشف رأس الرجاء الصالح سنة (١٤٨٨م):

فقد تمكن البرتغاليون من اكتشاف السواحل الغربية لأفريقيا، وهذا شجعهم على زيادة الرحلات الاستكشافية في قارة أفريقيا والدوران حولها والوصول إلى الهند دون الحجة إلى المرور من خلال مصر المملوكية، وتمكن الملاح البرتغالي بارثولوميو دياز من الوصول أقصى جنوب القارة الأفريقية سنة ١٤٨٨م واكتشاف رأس الرجاء الصالح، والتي سوف تكون قاعدتهم من أجل الوصول إلى الهند وشن عمليات القرصنة على السفن التجارية الإسلامية، واحتلال المدن العربية والإسلامية.



اكتشاف رأس الرجاء الصالح من قبل البرتغاليين

حركة الجهاد في عهد السلطان قنصوه ضد البرتغاليون والأسبان:

أولاً: خروج الأسطول المملوكي إلى الهند سنة (٩١١هـ):

ولما كثرت هجمات أساطيل وسفن القراصنة البرتغالية في بحر الهند على سفن المسلمين على المدن الساحلية نواحي اليمن والهند كان لزاماً على السلطان مواجهة هذا الخطر الصاعد فأخرج حملة بحرية في جمادى الآخرة إلى الهند، وهي مؤلفة من خليط من العساكر من أولاد الناس والمماليك والعبيد وتركمان والفئة الغالبة منهم كانوا من المغاربة والرماة.

وقد خرجت هذا الحملة يوم الإثنين ٦ من جمادى الآخرة بعد أن أعطى السلطان لكل من شارك في هذه الحملة خمسين ديناراً، وجعل لهذه الحملة باشيان للعسكر، فكان باش العسكر على العبيد والمماليك حسين المشرف، وباش عسكر المغاربة الخواجا نور الدين المسلاقي، فتوجهوا إلى السويس ومنها إلى جدة بعد أن ركبوا مراكب جدة وقد جهزهم السلطان بكل ما يلزم الحملة من الزاد والسلاح.

وقد قامت هذه الحملة بعدة أعمال كان لها أثر إيجابي في حماية السواحل التي تعرضت لأعمال القرصنة:

١- كسر أمير ينبع يحيى بن سبع سنة (٩١٢هـ):

وكان أمير ينبع قد كثر فساداً في بلاد الحجاز، ولهذا توجهت الحملة إليه أولاً لكسره هو ومن معه من الأعراب، فأتت الأخبار في صفر من ينبع أن العسكر قد تمكنوا من هزيمة الأمير يحيى بن سبع، وأنه هرب وقتل من عربانه الكثير، وأحرقوا الدور التي على ساحل البحر التي ببندر ينبع،

وأخربوا غالب دكاكينه وشتتوا العربان في كل وجه، وبهذا يكون المماليك قد كسروا أمير ينبع وأخمدوا فتنته.

٢- بناء أبراج على ساحل بندر جدة (٩١٢هـ):

وزيادة في حماية ميناء وبندر جدة قام باش الحملة حسين المشرف وسنقر أحد الزردكاشية وعلي المسلاقي المغربي في بناء أبراج على ساحل بندر جدة لحمايتها من هجمات الأعراب والفرنجة على السواء.

٣- الاستيلاء على مدينة سواكن سنة (٩١٢هـ):

ثم أكمل الأسطول سيره حتى وصل إلى مدينة سواكن وهي تقع في شمال شرق السودان، وعلى الساحل الغربي للبحر الأحمر، وقد تمكن الجنود من أخذها بالأمان واحتاطوا على ما فيها من بهارات وغيرها، ثم أجلوا أهلها عنها، فلما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان فرح بها وانشرح لها صدرها ٦٣١.

ثم قام حسين المشرف بعد بناء الأبراج على ساحل جدة بالتوجه إلى مدينة عدن من أجل صد قرصنة السفن البرتغالية في بحر الهند، فقد وصلت الأخبار بأن سفن الفرنج قد تمكنت من الوصول إلى بحر الحجاز حتى بلغ عددها أكثر من عشرين مركبا، وصاروا يقطعون طريق الملاحة على سفن تجار الهند ويأخذون منهم البضائع والأموال.

٦٣ - الحنفى- محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الرابع - حققها وكتب لها المقدمة والفهرسة د. محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص٨٤ وص٨٥ وص٩٥ وص٩٦.

ثانيا: معركة شاول أو غوا سنة (٩١٤هـ):

وقد وصل الأسطول المملوكي بقيادة باش العسكر حسين المشرف وهو مكون من ثلاث عشرة سفينة عليها ألف وخمسمائة جندي، وقد وصلت السفن الإسلامية إلى مدينة مالابار بساحل الهند، وقام بإرساء السفن في مرفأ ديو، وكمن بسفنه منتظرا السفن البرتغالية على مدينة غوا على ساحل مالابار حتى لاحت السفن البرتغالية في الأفق، فبدأت الحرب بين السفن المملوكية بقيادة حسين المشرف وبين لورنزو بن فرانسيسكو دي ألميدا، وكانت السفن البرتغالية قليلة في العدد والعدة، واستمرت الحرب بين الفريقين لمدة يومين، ثم انتهت المعركة بانتصار الأسطول المملوكي ومقتل لورنزو وغرق سفينته.

وقد وصلت أنباء هذا النصر العظيم إلى القاهرة وأنهم غنموا من البرتغاليين غنائم كثيرة جدا، فسر السلطان وأمر بدق الكوسات بالقلعة ثلاث أيام متوالية، وقد أرسل الأمير حسين المشرف يطلب المدد من السلطان لكي يتمكن من صد البرتغاليين، فقد وصلت إليه أنباء عن تجهيز فانسيكو دي ألميدا لأسطول جديد من أجل الانتقام من المماليك. ٦٤

ثالثا: الأمير قمر باي الهندي يأسر مركب للفرنجة سنة (٩١٤هـ):

وفي ذي القعدة كان الأمير قمر باي الهندي كان قد توجه إلى مدينة الطينة من أجل عمارة الأبراج الدفاعية التي أنشأها السلطان على ساحل البحر من أجل صد ورد هجمات الفرنجة، فبينما هو هناك رسي مركب للفرنجة من أجل السلب والنهب، فجمع قمر باي الهندي الخفراء والمماليك وحارب القراصنة وتمكن من هزيمتهم وأسر حوالي سبعة وعشرين رجلا منهم وأخذ مركبهم، وأرسل بذلك للسلطان ففرح بهذا النصر. ٦٥



الحرب بين البحرية المملوكية والبرتغالية

رابعاً: معركة ديو وتدمير الأسطول المملوكي سنة (٩١٥هـ):

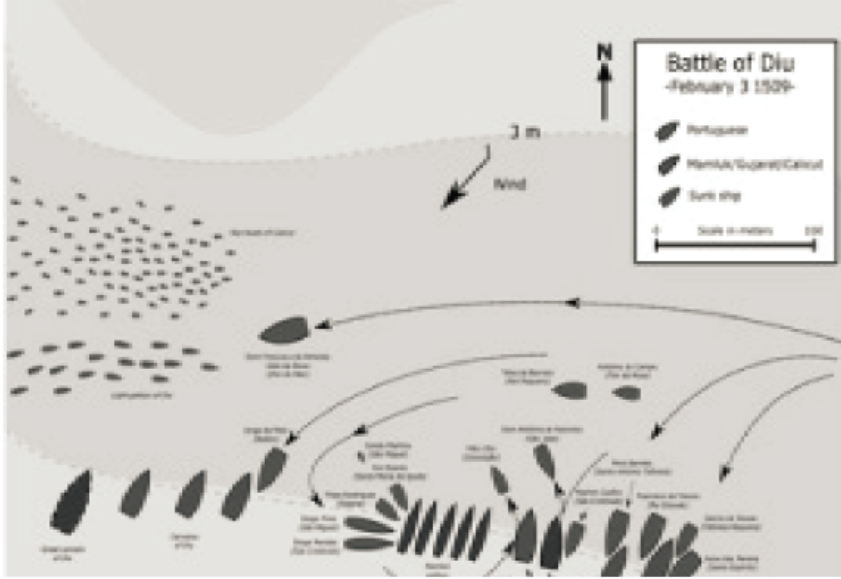
وبعد الانتصار الذي حققه الأمير حسين المشرف عاد بأسطوله مرة أخرى إلى مرفأ ديو منتظراً المدد الذي طلبه من السلطان بمصر، ولكن البرتغاليون لم ينتظروا فقد توجه فرانسيسكو دي ألميدا إلى ديو بعد أن علم بوجود الأسطول المملوكي هناك، وقامت حرب غير متكافئة، فقد كان الأسطول المملوكي أكثر في العدد ولكن التفوق العسكري كان في صف البرتغاليون، فقد كانت مدفعية المماليك في السفن ضعيفة والأسلحة لم تكن متطورة، أما السفن البرتغالية على الرغم من قلة عددها إلا أن المدفعية الثقيلة بالإضافة إلى سرعة تحرك السفن واستخدامهم لخطط حربية متطورة جعلت النصر حليفهم، فتمكنوا من تدمير الأسطول المملوكي بأكمله وغرق وقتل كل الجنود ونهبت مراكب المماليك عن آخرها، فكانت هزيمة ساحقة بحق وقد ترتب عليها نتائج خطيرة منها:

١- أن السيادة البحرية في المحيط الهندي والخليج العربي في يد البرتغاليين، فأصبحت جميع طرق التجارة البحرية في قبضة الأسطول البرتغالي.

٢- تدمير قوة المماليك البحرية نهائياً في المحيط الهندي وبحر العرب، فلم في إمكان السلطان إرسال أساطيل أخرى بعد هذه الهزيمة الكبيرة.

٣- تمكن الأسطول البرتغالي احتلال مدن غوا، ودابول، وظفار ومسقط في عمان، وهرمز والمنامة في ساحل الخليج العربي، بل هددوا بضرب مكة والمدينة.

وقد اضطر الأمير حسين المشرف الفرار بما بقي معه من سف ورجال إلى ميناء جدة والسفن البرتغالية تطارده حتى تمكن من الوصول إلى جدة بصعوبة شديدة.



معركة ديو وهزيمة الأسطول المملوكي

خامسا: محمد بك قريب السلطان يأمر مركب للفرنج سنة (٩١٥هـ):

وعلى من تدمير الأسطول الا أن السلطان حاول إعادة بناء أسطول جديد، فأرسل أحد أقاربه وهو محمد بك إلى منطقة الجون لكي يأتي بالأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد يرسله إلى بحر الهند، فصادف وجوده هناك قيام أحد مراكب الفرنجة بمحاولة القرصنة على السواحل فحاربهم وتمكن من هزيمتهم وقتل منهم عدد كثير وأسر الباقي، وغنم جميع ما كان في مركبهم وأموال تقدر بحوالي مائة ألف دينار، وكانت هذه الواقعة في رجب وقد سر السلطان بهذه الأخبار سرورا عظيما. ٦٦

سادسا: استنجد ملك محمود شاه بالسلطان ملك گنباية سنة (٩١٦هـ):

وفي صفر سنة ٩١٦هـ أرسل ملك گنباية رسول من عنده ومعه رسل من ملوك الهند بطلب النجدة وسرعة تجهيز وخروج الأسطول المملوكي لنجدة المدن والسواحل الإسلامية من قرصنة وهجمات البرتغاليين فقد بلغت سفنهم في المحيط الهندي أكثر من خمسين سفينة. ٦٧

سابعا: الأسطول الأسباني يحتل مدينة طرابلس الغرب سنة (٩١٦هـ):

وفي جمادى الأولى أتت الأخبار من بلاد المغرب بأن الأسبان قد تمكنوا من أخذ مدينة طرابلس الغرب عنوة ودخلوها بالسيف، فقد حاصروا المدينة من البر والبحر، وكان الأسطول الأسباني ضخم جدا حوالي مائة سفينة مجهزة بالمدافع والذخيرة، وأحدثوا مقتل عزيمة في المسلمين، فقد قتلوا حوالي أربعين ألفا، فلما بلغت هذه الأخبار إلى السلطان حزن حزنا شديدا وحزن أهل مصر كلهم لهذه الأخبار السيئة. ٦٨

ثامنا: القراصنة يقتلون الأمير محمد بك سنة (٩١٦هـ):

وفي جمادى الآخرة أرسل نائب طرابلس إلى السلطان أن قريبه محمد بك قد خرج عليه قراصنة من الفرنج وهو بالقرب من ساحل قلعة أياس،

٦٧ - المصدر السابق - ص ١٨٣.

٦٨ - المصدر السابق - ص ١٩٠.

وكان قد توجه إلى الجون من أجل الأخشاب لصناعة السفن، فحاربهم الأمير بنفسه وقد تفرق عنه من كان معه من الجنود فقتل الأمير، وقتل أيضا من تبقى معه من الجنود، وأخذ الفرنج كل ما كان معه من المراكب المشحونة والسلاح وآلة الحرب، وكان عدد هذه المراكب حوالي ثمانية عشر مركبا، فلما بلغ السلطان ذلك الخبر تنكد للغاية وامتنع من أكل الطعام ليومين كاملين. ٦٩

تاسعا: الرئيس حامد المغربي يأسر مجموعة من القراصنة سنة (٩١٧هـ):

وفي يوم الإثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ٩١٧هـ حضر إلى مصر أحد البحارة المجاهدين ويدعى الرئيس حامد المغربي ومعه حوالي مائتي من القراصنة الفرنج يقومون بهجمات في بحر البرلس، فتمكن من أسرهم وأتى بهم إلى مصر، وشق بهم القاهرة وهم في الحديد حتى وصل بهم إلى حضرة السلطان بالقلعة فأمر سجنهم. ٧٠

عاشرا: الأسطول المملوكي العثماني يتوجه إلى الهند سنة (٩٢١هـ):

وهي الحملة الأخيرة التي يخرجها السلطان قنصوه الغوري، فقد كان الأسطول البرتغالي يعيث فسادا في المحيط الهندي لا يجد من يصدّه أو يردعه، فجهز أسطولا ضخما تحالف فيه معه مجموعة كبيرة من

٦٩ - المصدر السابق - ص ١٩١ و ص ١٩٢.

٧٠ - المصدر السابق - ص ٢٢٠.

العثمانيين والمغاربة، فكان الأسطول عبارة عن عشرين مركبا مجهزين بالسلاح والمدافع وآلة الحرب، وعدد الجنود من المماليك أكثر من ستمائة، ومن العثمانيين والمغاربة حوالي ألفين جندي، وجعل عليهم باش العسكر الرئيس سلمان العثماني.

وفي يوم الإثنين ١٠ رجب كان خروج الأسطول وقد تكامل عدد الجنود فوصل عددهم إلى ستة آلاف من الجنود من مختلف الأجناس فكان من المماليك وألاد الناس ستمائة، ومن المغاربة وعثمانيين وتراكمة ومقاتلين وبحارة خمسة آلاف وثلاثمائة أربعة وأربعين، وجعل عليهم القادة فكان رئيس البحارة سلمان العثماني وقد خلع عليه بكاملية مخمل أحمر بسمور، والباش الثاني الأمير يشبك وهو أمير عشرة، والباش الثالث شخص يدعى دمرداش الإقريطشي، فخرجوا من عند السلطان من الميدان فنزلوا وشقوا القاهرة وأمامهم الطبول والزمور ومكاحل النفط والبنديقيات، على رؤوسهم الصنجق السلطاني فرحلوا إلى الريدانية ومنها توجهوا إلى السويس فركبوا المراكب المجهزة بالبارود والمدافع والزاد، فتجهوا إلى الهند لطرد الفرنجة

، ثم أتت الأخبار في يوم الأربعاء ١٨ من شعبان أتت الأخبار من السويس بأن أحد هذه المراكب قد غرق نتيجة اصطدامه بالشعب المرجانية فانكسر المركب وغرق جميع من فيه فتشائم الناس من ذلك. ٧١

ما حل بهذه الحملة وعودتها إلى مصر سنة (٩٢٣هـ):

وقد أمضت هذه الحملة في حربها مع السفن البرتغالية حوالي سنتين، وقد

عاد الرئيس سلمان العثماني إلى مصر بعد دخول السلطان سليم شاه إلى مصر، وقد حضر في شهر شعبان سنة ٩٢٣هـ ومعه أسرى من الفرنج أسرههم وهم يقومون بعمليات القرصنة على السفن التجار المسلمين والهنود، وقد تمكن هو والأمير حسين المشرف نائب جدة من تحقيق العديد من الانتصارات على البرتغاليين وغنموا منهم أموالا لا تحصى، وقد أشيع بين الناس أن الرئيس سلمان قد قام بتغريق الأمير حسين المشرف لعداوة قديمة بينهما منذ أيام السلطان الغوري، فلما عاد إلى مصر دخل في خدمة السلطان سليم شاه وانضم إلى أسطوله البحري. ٧٢

٢٧- السلطان الأشرف أبو النصر طومان باي (٩٢٢هـ - ٩٢٣هـ):

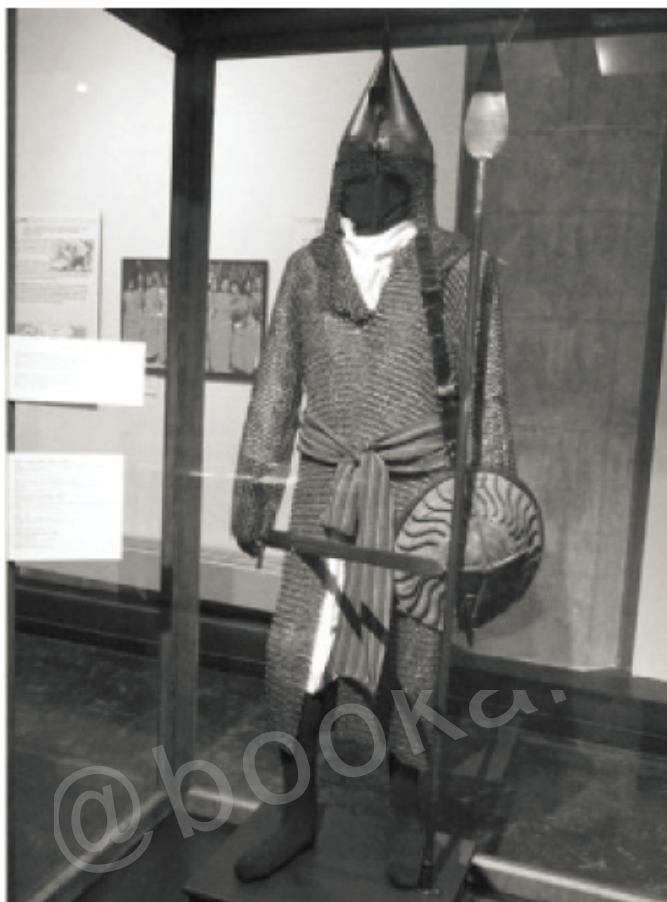
تولى أمر السلطنة بعد أن علم الأمراء المماليك في مصر بموت سلطانهم قانصوه الغوري في مرج دابق، وأصله من مماليك الأشرف قايتباي، ثم أعتقه ابنه السلطان الناصر بن قايتباي، وتولى نائب غيبة في عهد السلطان الغوري، ثم أصبح السلطان باجتماع كلمة المماليك عليه، وأعد العدة لصد العثمانيين عن دخول مصر، ولكنه هزم أمام جيش سليم الأول في الريدانية في أواخر سنة ٩٢٢هـ، ثم جمع قواته مرة أخرى ولكنه هزم أيضا عند نواحي الجيزة، ففر إلى بعض أصحابه من عرب البحيرة ولكنهم غدروا به وسلموه للسلطان سليم الأول والذي أمر بشنقه على باب زويلة في المحرم من سنة ٩٢٣هـ، وموت السلطان طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة ليس بسبب ضعفهم المادي وعدم كفايتهم الحربية،

٧٢ - الحنفى - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الخامس - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د. محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ٢٠٣.

ولكن انهزموا بسبب انهيار معنوياتهم واختلاف كلمتهم وانضمام الكثير منهم إلى السلطان العثماني سليم الأول، ولولا ذلك لانتصر المماليك على العثمانيين ولظلت مصر في مكان الصدارة في الإسلامي، ولكن سنة الله في خلقه قضت بسقوط هذه الدولة العظيمة التي كان لها أياد بيضاء في صد التتار وتحرير المدن الإسلامية من يد الفرنجة.

@booka

٧٣ - سليم - محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي - المجلد الأول - القسم الأول من الجزء الأول - الطبعة الثانية (١٣٨١هـ / ١٩٦٢م) - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجواميز - القاهرة - من ص ٥٥ إلى ص ٦٣.



اللباس الحربي لفرسان المماليك



الفصل الرابع

(ذئاب الأناضول وصقور المشرق)

@booka.

العثمانيون القوة الناهضة في العالم الإسلامي

الزمن سنة ٦٨٦هـ، المكان الأناضول بالقرب من مدينة قونية عاصمة إمارة قرامان.....

وكعادته آوى إلى فراشه بعد أن أدى فريضة العشاء ولم يلبث أن أخذه نوم عميق ثم رأى رؤيا عجيبة اهتز لها بدنه وهو نائم، فاستيقظ على أذان الفجر فقام مسرعا إلى إناء الوضوء فغسل وجهه وتوضأ، ثم صلى الفجر في المسجد وبعد أن انتهت الصلاة جلس بجوار إحدى سوارى المسجد مطأطأ الرأس متفكر فيما رآه، ثم رفع رأسه وأخذ يتذكر أحداث الرؤيا ويتأمل رموزها محاولا إيجاد تفسير لها.

وفي ذلك الوقت كان هناك رجل من العلماء الأتقياء اسمه الشيخ أده بالي معروفا عنه الصلاح والكرامة، وهو أيضا صاحب ثروة وجاه وله ابنة معروفا عنها الصلاح والجمال، فذهب إليه صاحب الرؤيا عسى أن يجد مبتغاه عنده من فك رموزها وتفسيرها له فوجده جالس في بستانه يقول ورده من أذكار الصباح، فاستأذن في الدخول عليه والجلوس معه، فأذن له الشيخ وقال له:

الشاب: يا شيخنا أده بالي أريد أن أقص عليك رؤية عجيبة رأيتها قبيل الفجر اليوم، وقد احترت فيها.

الشيخ أده بالي: قص علي يا ولدي رؤياك ، فقص عليه الرؤيا:

«يا شيخ لقد رأيت قمرا خرج من حضنك، ودخل حضني، ولما دخل حضني نبتت منه شجرة عظيمة في بطني، عمت ظلالها العالم، وتحت ظلها جبال وأشجار وصحاري وفيافي، ويخرج من أسفل كل جبل وشجرة مياه تتدفق وتسيل، ويشرب بعض الناس من هذه المياه، وبعضهم الآخر يسقي الحدائق، وبعضهم الآخر يسقون بساتينهم، وبعضهم أيضا يسقون زرعهم والسواقي تدور والعيون تتدفق وتسيل، وهذه الرؤيا التي رأيتها»

فلما سمع الشيخ أده بالي هذه الرؤيا سند ظهره إلى حائط بستانه مبتسما مطمئنا له، فقال له:

«إنها البشرى لك أيها البطل، لقد أعطيت السلطنة لك ولذريتك، وأنت ستتزوج ابنتي مال خاتون، ويكون أولادك منها»^١

فقفز الشاب فرحا بتفسير رؤياه ولزواجه من ابنة الشيخ المعروف عنها الجمال والدين والخلق القويم، وبالفعل مرت الأيام والليالي وتوفي والد بطلنا أمير قبيلة قاي أرطغرل بن سليمان سنة ٦٨٧هـ، وقام الملك علاء الدين السلجوقي ملك إمارة قرامان بتعيينه في نفس السنة أميرا على قبيلته، وولدت له زوجته مال خاتون ثاني أولاده أروخان غازي.

إنه الأمير باديشاه عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه غازي مؤسس الأسرة العثمانية في الأناضول وأول من اتخذ لنفسه منهم علم وشعار - وهو علم تركيا اليوم - وكانت عاصمة ملكه مدينة يني شهر - المدينة الجديدة - وأول من رفع راية الجهاد من أسرته الأتراك، فقد حارب التتار والروم معا، وتمكن من الانتصار عليهم في معارك عديدة.^٢

ولكننا لن نتكلم هنا عن تاريخ الدولة العثمانية وسلطانيتها، بل سنتكلم عن علاقة سلاطين الدولة العثمانية بسلاطين دولة المماليك من حيث العلاقات الودية التي كانت تربط ما بين السلطنتين في أولها، ثم تحولها بعد ذلك إلى الحرب والصدام المباشر بين الدولتين، والأسباب التي أدت إلى هذا الصدام وما ترتب عليه من قيام السلطان سليم الأول من هزيمة السلطان قنصوه الغوري وخلفه السلطان طومان باي، وإسقاطه لدولة المماليك سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م.

١ - لطفي باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي محمد - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - الطبعة الأولى - (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة - ص ١٠٥ وص ١٠٦.

٢ - محمود شاكر - الخلفاء العثمانيون (٩٢٣هـ - ١٣٤٢هـ) - الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) - المكتب الإسلامي - بيروت - ص ٤٨ وص ٤٩.

(العلاقات بين العثمانيين والمماليك)

زمن المحبة والاحترام

كانت بداية العلاقات العثمانية المملوكية طيبة قائمة على المودة والاحترام، فقد كانت السلطنة العثمانية في بداياتها وكانت تنظر إلى سلاطين دولة المماليك نظرة كلها احترام وتقدير لجهودهم العظيمة في الدفاع عن دولة الإسلام ضد الصليبيين والتتار، فما زالت ذكرى عين جالوت قريبة من أذهانهم.

والبعض يرجع العلاقات بين السلطنتين إلى عهد الملك مراد الأول بن أورخان بن عثمان (٧٦١هـ - ٧٩١هـ) والسلطان الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٦٤هـ - ٧٨٧هـ) وهي كالاتي:

أولاً: مراد الأول بن أورخان والسلطان الأشرف زين الدين شعبان:

فقد ذكر المقريزي في كتابه السلوك عن أول رسول ملك العثمانيون في الأناضول، والذي أرسله إلى سلطان مصر سنة ٧٦٧هـ فقال: «وفي خامسه - يقصد خامس يوم في شهر شوال - قدم رسول الملك أرخان بن عثمان ملك الروم يخبر أنه جهز مائتي غراب بحرية - السفن الحربية - نجدة للسلطان على ممتلك قبرص، فأجيب بالشكر والثناء، وأنه لا يتحرك حتى تقدم من ديار مصر الشواني» انتهى من كلام المقريزي. ٣

٣ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الأول - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة - (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ١٢١.

فهذه كانت أول إشارة للعلاقات بين الدولتين العثمانية والمماليك في مصر، ولكن خلط المقريزي في اسم الملك العثماني فقد اختلطت عليه الأسماء، فقد توفي الملك أورخان في سنة ٧٦١هـ وتولى من بعده ولده الملك مراد الأول، والذي تولى المملكة في سنة ٧٦١هـ، وبالتالي يكون هو من أرسل الرسول بهذه الرسالة إلى السلطان الأشرف شعبان في سنة ٧٦٤هـ وليس أبيه أورخان غازي بن عثمان.

ونستشف أيضا من هذه الرسالة التي أرسلها مراد الأول إلى سلطان المماليك هو رغبته في أن يكون بين الدولتين تعاوناً عسكرياً وحربياً ومشاركة منه في الجهاد ضد أعداء الأمة من الصليبيين في البحر المتوسط، وأيضاً طلب الاعتراف الرسمي من سلطان المماليك في مصر بدولة بني عثمان في الأناضول، فقد كانت دولة المماليك في مصر والشام هي حامية الإسلام ومقر الخلافة في القاهرة ومن هناك تخرج الرسوم السلطانية والاعترافات من الخليفة بقيام الدول والإمارات في جميع نواحي العالم الإسلامي في الشرق والغرب.

ثانياً: مراد الأول والسلطان الظاهر برقوق بن أنص:

ولما تولى السلطان الظاهر برقوق سلطنة مصر سنة ٧٨٤هـ، كان مراد الأول على وفاق مع دولة المماليك فقام في سنة ٧٩٠هـ بإرسال رسل إلى السلطان بالقاهرة، فأنزلهم السلطان الميخان الكبير بخط موردة الجبس أو موردة الجيش.

وفي ١٨ شهر صفر أمر السلطان الظاهر برقوق بإحضار رسل الملك مراد الأول إلى الخدمة السلطانية بالقلعة فقدموا هدية مراد الأول إلى السلطان فقبلها منهم. ٤

٤ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الثاني - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة - (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٥٧٤.

ثالثاً: بايزيد الأول الصاعقة بن مراد والسلطان الظاهر برقوق:

وبعد وفاة الملك مراد الأول تولى ولده بايزيد الأول سلطنة بلاد الروم وكان ذلك في سنة ٧٩١هـ وكان دائم الجهاد في بلاد أوروبا، فلم يكن ينهي غزوة في بلادهم ويعود إلى الأناضول حتى يعاود الجهاد مرة أخرى في بلادهم فلقبوه بيلدرم أي الصاعقة.

فلما تولى السلطان الظاهر برقوق سلطنته الثانية في مصر سنة ٧٩٢هـ، عادت العلاقات الودية بين السلطنتين، فقام السلطان الظاهر في سنة ٧٩٤هـ بإرسال الأمير حسام الدين حسن الكجكني إلى بلاد الروم بهدية إلى الخوندكار - لقب سلاطين آل عثمان لدى المماليك - بايزيد بن مراد.

وهذا دليل على أن العلاقات بين السلطنتين كانت قائمة على تبادل الهدايا والاحترام، فقد كانت الرسائل والهدايا متبادلة بين السلطنتين، ففي سنة ٧٩٥هـ أي في السنة التالية مباشرة قام السلطان بايزيد الأول بإرسال الرسل مع الأمير حسام الدين حسن الكجكني بهدايا سنوية، منها باز أبيض وطلب من السلطان الظاهر أن يبعث مع الرسل بطبيب ماهر من أطباء القاهرة لكي يعالجه من مرض ألم، فقام السلطان بتعين الطبيب شمس الدين محمد بن محمد الصغير، وجهز معه ما يحتاجه من أدوية وعقاقير مما يلزم لعلاج السلطان بايزيد. ٥

وفي تلك الأثناء كان أمر القان الجديد للمغول تيمور لنك قد استفحل، فقد اكتسحت جيوشه بلاد فارس وبدأوا يقتربون من بغداد مهددين الشرق الإسلامي في موجة ثانية جديدة، فكثر الرسل بين العثمانيين والمماليك، ففي

سنة ٧٩٦هـ قدمت رسل السلطان بايزيد الثاني إلى السلطان الظاهر برقوق، وفي نفس السنة قدمت سفارة أخرى عاجلة من السلطان بايزيد الأول إلى السلطان الظاهر برقوق مفادها أنه قد جهز مئتي ألف من أجل نصره السلطان اذا خرج لحرب جيش تيمور لنك الذي تمكن من دخول بغداد وهزيمة خانها أحمد بن أويس. ٦

وفي سنة ٨٠١هـ قدمت سفارة من السلطان بايزيد الأول برئاسة الأمير طولو بن علي شاه والذي قدم بالبشارة إلى السلطان الظاهر برقوق يبشره بانتصار العثمانيين على الأنكروس - المجر - وأنهم ظفروا منهم بغنائم كثيرة لا تحصى، وقتل منهم أعداد كبيرة جدا.

ثم قدمت سفارة أخرى من نفس العام في ٣٢ من شعبان من نفس السنة قدمت رسل السلطان بايزيد عن طريق البحر إلى ساحل بولاق بالقاهرة، فخرج إليهم حاجب السلطان بالخيول السلطانية - التشريفة - فركبوها ونزلوا دارا قد أعدت لهم، وفي ٧ رمضان قدمت السل الهدية المرسلة من عند السلطان بايزيد إلى السلطان الظاهر. ٧

رابعا: بايزيد الأول الصاعقة والسلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق:

وفي سنة ٨٠١هـ تولى السلطان الناصر فرج سلطنة مصر والشام، وكان القان تيمور لنك قد تمكن من ضم بلاد الهند إلى أملاكه، وقد وصلت الأخبار إلى القاهرة بأن السلطان العثماني بايزيد الأول قد عزم إلى التوجه إلى بلاد الشام من أجل أخذها.

٦ - المصدر السابق - ص ٨١٣ وص ٨١٧.

٧ - المصدر السابق - ص ٨٧٣ وص ٨٧٩.

ثم وردت الأخبار في ١٣ من شهر ذي الحجة أن بايزيد الأول قد تمكن من أخذ مدينة الأبلستين فصح بذلك الخبر عن عزمه لأخذ بلاد الشام، فجمع السلطان الناصر فرج أرباب الدولة والأمراء والقضاة في يوم الإثنين ١٥ من ذي الحجة وقرئ عليهم الكتب التي وردت بشأن ابن عثمان، وأنه قد أرسل أخا له يدعى عليا على رأس جيش وأنه تمكن من أخذ مدينتي ملطية والأبلستين، وأن صدقة بن سولي فر من أمامه فتسلمها في يوم ٢٨ من ذي القعدة، وأنه الآن يحاصر مدينة دندرة، فاتفق الجميع على الخروج والمسير لقتال بايزيد الأول وأخيه عليا، ولكن المماليك السلطانية أنكروا صحة هذه الأنباء فقالوا: هذا حيلة علينا حتى نخرج من القاهرة فقط» وقاموا بإرسال الأمير سودن الطيار لكي يكشف لهم صحة هذه الأنباء، فسار الأمير سودن الطيار على خيل البريد من أجل التحقق من صحة أخبار ابن عثمان، فدخل مدينة دمشق يوم ٢٠ ذي الحجة، ثم أخرج مرسوم السلطان بتجهيز عساكر الشام لكي يتوجهوا إلى بلاد بايزيد الأول لقتاله، فنودي بذلك في البلاد، ثم توجه سودن الطيار إلى مدينة حلب^٨.

و يذكر المقرئزي أنه في سنة ٨٠٢هـ ورد الخبر التالي: ورد الخبر في ١٨ محرم سنة ٨٠١هـ بنزول ابن عثمان على ملطية ومحاصرتها، وبها الأمير جُمُوق من الظاهرية. ثم يستطرد فيكمل الخبر بقوله: «وكان من خبر أبي يزيد - هو أصل الاسم العربي لبازيد التركي - بن عثمان أن القاضي برهان الدين صاحب سيواس لما قتل، كتب أهل سيواس إلى ابن عثمان يستدعوه فسار إليهم من فوره على عسكر كبير وملكها، وأقام عليها ابنه سليمان ثم مضى إلى أرزنجان، ففر منه طهر ابن حاكمها إلى تيمور لك، فأخذ ابن

٨ - المقرئزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الثالث - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الثانية - (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٩٦٥ و ص ٩٧١ و ص ٩٧٢.

عثمان ماله، وأفحش في حريمه بتمكين سواسه - رعيته وأتباعه - منهمن وعاد إلى مملكته»

وقد ورد البريد من مدينة دمشق بأن القان تيمور لنك تمكن من الاستيلاء على مدينة سيواس في المحرم سنة ٨٠٣هـ، وأن الأمير سليمان بن بايزيد الأول قد هرب من أمامه، وقد قتل الكثير من أهل سيواس، وبالتالي كانت المواجهة بين القان تيمور لنك والسلطان بايزيد قد باتت وشيكة.

وفي ١٦ من ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ قدمت سفارة من بايزيد الأول بهدية فيها عشرة من المماليك، وعشرة رؤوس من الخيل، وعشر قطع من الجوخ، وشربتان من الفضة - الكأس والصحن - وعشر قطع فضة ما بين أطباق وغيرها، وهدايا أخرى إلى الأمراء، وقرئ كتابه الذي أرسله إلى السلطان الناصر فرج في يوم ٢٠ من الشهر.

موقعة أنقرة وأسر بايزيد الأول سنة ٨٠٤هـ:

وكان سبب هذه الحرب أن خان العراق أحمد بن أويس قد فر من بغداد إلى السلطان بايزيد الأول طالبا اللجوء إليه، فأرسل تيمور لنك لبايزيد أن يسلمه أحمد بن أويس فرفض طلبه فانتهزها فرصة لإكمال غزوه في بلاد الأناضول.

فزحف تيمور لنك بجيوشه إلى سيواس ففر من أمامه سليمان بن الباييزيد وقبض على ولده الآخر أرطغرل وقتله، ثم تابع سيره ناحية الغرب فتمكن من الاستيلاء على مدينة عمورية، وهنا أسرع بايزيد إلى حشد جيوشه

٩ - المصدر السابق - ص ٩٧٩.

١٠ - المصدر السابق - ص ١٠٢٧.

١١ - المصدر السابق - ص ١٠٦٩.

فتمكن من حشد ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين ألفاً مقاتل، على حين كان جيش تيمور لك يزید عن ثمانمائة ألف مقاتل، والتقى الجمعان في سهل أنقرة يوم ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ، وبدأت المعركة من صباح هذا اليوم حتى غروبه، وكاد بايزيد الأول أن ينتصر لولا الخيانة فقد تفرقت عنه فرق إمارات آيدين، ومنتشا، وكرميان، وصاروخان وانضمت إلى جيش تيمور لك، بالإضافة إلى كمين كان قد أعده تيمور لك لجيش بايزيد، فقد خرج عليه من الكمين مائة ألف مقاتل كادوا أن يفنوا جيشه كله، وفر من المعركة ولد السلطان سليمان متجها ناحية بروصا عاصمة الدولة العثمانية، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للجيش العثماني ووقع السلطان بايزيد نفسه في الأسر ومعه ولده موسى.

وعلى الرغم من أن تيمور لك لم يسيء للسلطان العثماني إلا أنه لم يتحمل مرارة الأسر وحاول الفرار ثلاث مرات ولكنه فشل فيها جميعا، ولما علم بنية القان من وضعه في قفص مصنوع من حديد وأخذه معه إلى بلاده مرض من الهم والحزن وتوفي في يوم ١٥ شعبان سنة ٨٠٥هـ.

وبعد هذه الهزيمة تمزقت الدولة العثمانية ودب الصراع بين أبناء السلطان بايزيد الأول وشجعهم تيمور لك على ذلك بعد رجوعه عن الأناضول، فتحارب الأبناء على السلطان وعادت الأناضول مرة أخرى إلى إمارات متنافرة مع بعضها، وكان هذا في مصلحة المماليك، فقد كانت هزيمة بايزيد في سهل أنقرة مدا لحكمهم قرن آخر من الزمان.

-
- ١٢ - محمود شاكر - الخلفاء العثمانيون (٩٢٣هـ-١٣٤٢هـ) - الطبعة الأولى - (١٤٢٤هـ/٢٠٣٣م) - المكتب الإسلامي - بيروت - ص ٦٧ وص ٦٨.
- لطفي باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي محمد - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - الطبعة الأولى - (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة - ص ١٤٩ وص ١٥١.

خامسا: الملك محمد جلبي الأول والسلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي:

تولى سلطنة بني عثمان محمد جلبي الأول والذي وحد الأناضول مرة ثانية بعد حروب مع أمراء الأناضول وإخوته الذين استقلوا بإماراتهم، وفي سنة ٨٢٣هـ حاول أمير قونية محمد بيك بن قرامان أن يستولي على بلاد الملك محمد الأول بن بايزيد ولكنه لم يستطع فقام بحرق ما وصلت إليه يده من بلاده، ثم حاول أن يغير على مدينة طرسوس والتي كانت من أملاك المماليك، ولكنه هزم أمام المماليك وأسر، وأمر السلطان بسجنه في القلعة، ثم أمر السلطان بإرسال الأمير قجقار القردمي رسولا إلى الملك محمد كرشجي في مقر حكمه ببرصا بالقبض على عدوه الأمير محمد بيك بن قرامان واعتقاله في سجن القلعة.

فكانت هذه السفارة إعلانا لعودة العلاقات بين السلطنتين مرة أخرى بعد تفكك سلطنة بايزيد على يد تيمور لnk، ففي ٢٨ صفر من نفس السنة وصلت سفارة من السلطان محمد الأول إلى السلطان المؤيد معهم الهدايا يشكرون فيها السلطان على قبضه على ابن قرامان، فعملت لهم خدمة الإيوان بدار العدل احتفالا بهم.

والجدير بالذكر أن قاضي العثمانيين شمس الدين محمد بن حمزة بن محمد بن الفري الحنفي، قد ورد إلى القاهرة يوم الثلاثاء ٤ من ربيع الأول، فاستدعاه السلطان إلى حضرته وأخذ يسأله عن أحوال بلاد الأناضول، ثم أنعم عليه وأكرمه، و يبدو أن السلطان أحب أن يعرف من قاضي السلطان العثماني بطريق غير مباشر أحوال السلطنة وما آلت إليه من قوة أو ضعف. ١٤

١٣ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الأول - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة - (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٥١٩.

١٤ - المصدر السابق - ص ٥٢٢ وص ٥٢٣.

سادسا: مراد الثاني والسلطان الأشرف برسباي الدقمقي:

ثم تولى أمر العثمانيين مراد الثاني، وكان سلطان المماليك هو الأشرف برسباي صاحب الفتح العظيم لجزير قبرص، فبعد أن تم فتح الجزيرة ووقوع ملكها جانوس في الأسر سنة ٨٢٩هـ، وفدت إليه السفارات والرسل لتهنئته بهذا الفتح، وكان من ضمن هذه السفارات سفارة من السلطان مراد الثاني سلطان الدولة العثمانية يهنئه بالفتح.

وهكذا عادت الرسل والسفارات من جديد بين الدولتين، فالعثمانيين كانوا ينظرون إلى المماليك نظرة كلها إعزاز وتقدير، وفي ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ٨٣١هـ وفدت سفارة أخرى من مراد الثاني إلى الأشرف برسباي، وكان معهم كتاب من السلطان مراد الثاني وهدية إلى سلطان المماليك، فاحتفل بهم السلطان وأركب العساكر في موكب للقاء رسل مراد الثاني، وفي هذا دليل على مدى تقدير المماليك للعثمانيين. ١٥

مصاهرة السلطان الأشرف برسباي للأمير سليمان العثماني:

والجدير بالذكر أن هناك حادثة جرت أيام السلطان مراد الثاني، فقد كان له أخ يدعى أورخان فقبض عليه مراد وأودعه السجن حتى مات به، وكان له مولود يدعى سليمان ففر به أحد مماليك أبيه إلى السلطان الأشرف برسباي، والذي أكرمه ورباه، ثم أراد مملوك أبيه هذا أن يفر به مرة أخرى إلى بلاد الروم ولكن السلطان قبض عليه وسجنه، ثم أفرج عنه وتزوج من أخته شاه زاده. ١٦

١٥ - المصدر السابق - الجزء الرابع - القسم الثاني - ص ٧٢٥ وص ٧٧٦.

١٦ - المصدر السابق - الجزء الرابع - الجزء الثالث - ص ١٠٦٤.

ويبدو أن السلطان الشرف برسباي أراد أن يكون أحد أبناء بني عثمان في دولته فيستخدمه في أغراضه بعد ذلك في مصلحة دولته، فعلى الرغم من العلاقات الودية القائمة بين الدولتين إلا أن الحذر والتوجس كان حاضرا في ذهن السلطان الأشرف تجاه العثمانيين وتنامي قوتهم في المنطقة.

سابعاً: مراد الثاني والسلطان الظاهر أبو سعيد جقمق العلاني:

وعندما تولى السلطان الظاهر جقمق السلطنة سنة ٨٤٢هـ، قام السلطان مراد الثاني في سنة ٨٤٣هـ بإرسال سفارة لتهنئته السلطان بتولي السلطنة، وقد وصلت هذه السفار في ١٦ ذي القعدة واستقبلها السلطان استقبال حسن.

ثم قام السلطان الظاهر جقمق بإرسال الأمير علاء الدين علي بن أيناك وهو من خواصه في سفارة إلى السلطان مراد الثاني وأرسل معه هدية جليلة. ١٧

ثم أتت الأخبار من بلاد العثمانيين في يوم الإثنين ١٦ شوال سنة ٨٤٨هـ أن السلطان مراد الثاني قد حقق انتصار كبير على الحلف الصليبي الأوروبي وأحدث في جيوشهم مقتلة عظيمة، وأنه قد أسر أكثر من عشرة آلاف من جنودهم، وتمكن أيضا من أسر خمسة من أمرائهم.

وبعد وصول هذه الأخبار إلى مصر أرسل مراد الثاني سفارة إلى السلطان جقمق مكونة من مجموعة من أمراء الدولة لديه وكان ذلك بعد النصر الذي حققه بحوالي شهرين، فقد وصلت هذه السفارة في يوم الثلاثاء ١١ من ذي الحجة، وكان معهم جماعة من الأمراء وغيرهم من الأسرى الذين

تم أسرهم في كامل لباسهم الحربي وعلى خيولهم الحربية، وكان هذا تلميحاً واضحاً إلى مدى قوة العثمانيين الحربية، وكان لمجيئهم إلى القاهرة احتفالاً أعظم من احتفال المصريين بيوم خروج المحمل إلى الحج، فقد خرج جميع أهل مصر من رجال ونساء وأطفال من أجل الفرجة عليهم، وكان مع هذه السفارة هدية من مراد الثاني إلى الظاهر جقمق عبارة عن: «خمسون مملوكاً، وخمسة من الجواري البيض الخاصة وقماش وحريز».

وقد قام السلطان مراد الثاني بإرسال مثل هذه السفارة وهؤلاء الأسرى بهذه الهيئة المذكورة إلى قان الدولة التيمورية شاه رخ بن تيمور لنك وغيره من ملوك الشرق، وكان غرضه من هذه السفارات إظهار قوة الجيوش العثمانية كما ذكرنا سابقاً. ١٨

وفي يوم الجمعة ٤ من جمادى الآخرة سنة ٨٥٣هـ، أرسل السلطان الظاهر جقمق تاجر يدعى قانم ويبدو أنه كان من أهل الثقة لدى السلطان بهدية إلى مراد الثاني في برصا، وهذه الهدايا كانت رداً على هدايا سلطان العثمانيين التي قد أرسلها من قبل. ١٩

وقد عاد قانم التاجر من سفارته ببلاد العثمانيين في العام التالي، وقد وصل القاهرة في يوم الخميس ١٨ من صفر سنة ٨٥٤هـ، وقد أنعم عليه السلطان مراد الثاني بخلعة وأشياء أخرى كثيرة. ٢٠

وبالتالي نرى أن العلاقات بين السلطنتين كانت على ما يرام من المحبة والتقدير لجهود كليهما في الجهاد ضد أعداء الأمة من التتار والصليبيين، ولكن هذا لم يكن يمنع من وجود شيء من الحذر في العلاقات، وهذا يتبين من سؤال سلاطين المماليك عن أحوال العثمانيين وتتبع أخبارهم أولاً بأول.

١٨ - السخاوي - محمد بن عبد الرحمن - كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك - مراجعة أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور - تحقيق أ. نجوى مصطفى كامل ود. لبيبة إبراهيم مصطفى - الجزء الأول - طبعة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٢١٩ وص ٢٢٠.

١٩ - المصدر السابق - الجزء الثاني - ص ١٧٥.

٢٠ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ١٩.

ثامنا: محمد الثاني الفاتح والسلطان الظاهر جقمق:

وفي سنة ٨٤٨هـ تنازل مراد الثاني عن العرش لولده محمد الثاني، فقد شعر بالتعب من أعباء الحكم، وأيضا توفي أكبر أولاده علاء الدين والذي كان سيتولى بعد أبيه عرش السلطنة، فأثر ذلك في مراد الثاني فاعتزل الملك لولده محمد الثاني وكان عمره وقتها لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ٢١.

وقد أتت سفارة السلطان محمد الثاني إلى السلطان الظاهر جقمق بالقاهرة في يوم السبت ٣ من شوال سنة ٨٤٩هـ، وكانت عبارة عن هدايا جليلة مكونة من خمس وعشرين قفصا، خمسة منها أواني فضة وهي أقداح وسكارج - الإناء الصغير - وصحون، وخمسة ثياب صوف ملونة، وخمسة مخمل ذهب، وخمسة شقق حرير مزهرات، وخمسة مخمل ملون، ومجموعة من الجواري البيض من جنس الروميات، وكان الرسول معه رسالة من مراد الثاني مفادها: «أن السلطان مراد الثاني يعلم السلطان الظاهر بتنازله عن عرش السلطنة لولده محمد الثاني، وأنه يطلب من السلطان أن يشمل ولده محمد الثاني بالنظر والرعاية». ٢٢

وهذه السفارة من السلطنة العثمانية اعتراف رسمي بمدى الاحترام الذي يكنه سلاطين العثمانيين لسلاطين المماليك، فقد كان مراد الثاني قد مني

٢١ - لطفي باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي محمد - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - طبعة دار البشير للثقافة والعلوم - الطبعة الأولى (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - القاهرة - ص ١٩٠.

- محمود شاكر - الخلفاء العثمانيون (٩٢٣هـ/١٣٤٢) - الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) - بيروت - ص ٧٩.

٢٢ - السخاوي - محمد بن عبد الرحمن - كتاب التبر المسبوك على ذيل السلوك - الجزء الأول - مراجعة أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور - تحقيق أ. نجوى مصطفى كامل ود. لبيبة إبراهيم مصطفى - طبعة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٢٦١.

بهزيمة كبيرة على يد ملك المجر وفقد ولده الكبر لم يتحمل الصدمتين، وبالتالي تنازل عن عرشه لولده الثاني محمد الثاني والذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد، وبالتالي احتاج إلى حماية سلطان المماليك إن حاول أحد أفراد العائلة أن ينقلب على ولده محمد فطلب من السلطان الظاهر أن يشمل ولده بالنظر والرعاية، وهذا ما سوف نراه في الخبر التالي.

فقد أورد المؤرخ السخاوي قصة سفارة السلطان الظاهر التي وصلت الأمير محمد الثاني أمر السلطنة فقال: «وفي يوم الإثنين ١٥ شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٥هـ، سافر أسنباي الجمالي الظاهري، أحد أمراء العشرات إلى بلاد الروم لتولية محمد بن مراد بك بن عثمان مملكتها، عوضاً عن أبيه، ثم عاد وهو بزي الأروام على قاعدة من تقدمه من القصاد، وقدم قصاد المتولي وعلى يدهم هدية، فأنزلهم السلطان الميدان». ٢٣

وفي هذه الفقرة دليل قاطع على تبعية العثمانيين ضمناً لسلطين المماليك، فمنهم يستمدون شرعية حكمهم وملكهم على بلاد الأناضول وما حولها من مدن وبلاد.

مصاهرة السلطان الظاهر جقمق للعثمانيين:

ولتوكيد العلاقات بين دولة المماليك ودولة العثمانيين، ولزيادة رابطة المودة قام السلطان جقمق من الزواج من إحدى بنات العائلة العثمانية وكانت تدعى خوند شاه زاده بنت أردخان بن محمد بن عثمان، وقد ذكر ابن إياس في تاريخه أنها قد توفيت في رجب سنة ٨٥٩هـ في القاهرة، وقد تزوجت من بعده الأمير برسباي اليجاسي حاجب الحجاب وتوفيت وهي في عصمته، وهذا الزواج السياسي في المقام يدل على مدى معرفة المماليك

بأهمية تقوية علاقاتهم بالعثمانيين جيرانهم على حدودهم الشمالية في
الأناضول وحلفائهم أيضا . ٢٤

تاسعا: محمد الفاتح والسلطان الأشرف أينال العللي:

ثم تولى أمر السلطنة في مصر السلطان أينال العللي سنة ٨٥٧هـ، وكانت
العلاقات بينه وبين السلطان محمد الثاني على خير ما يرام، ففي شوال من
سنة ٨٥٧هـ وصلت سفارة من السلطان محمد الفاتح يبشر فيها السلطان
أينال بفتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية
والتي استعصت على المسلمين في عهد الخلافتين الأموية والعباسية، وقد
فتحت المدينة يوم الثلاثاء في ٢٠ من جمادى الأولى، فأمر السلطان بدق
البشائر في القلعة، ونودي في القاهرة كلها بتعليق الزينة احتفالا بهذا النصر
العظيم، ثم إن السلطان عين سفارة من قبله وضع على رأسها أمير آخور
ثاني هو الأمير يرشباي فأرسله إلى محمد الثاني لتهنئته بفتح القسطنطينية.
٢٥

وفي جمادى الأولى سنة ٨٦٠هـ وصل الخواجا جمال الدين عبد الله القابوني
رسولا من محمد الثاني، ومعه كتاب إلى سلطان مصر الأشرف أينال ذكر فيه
ما قام السلطان العثماني من فتوحات أخرى جديدة، فأكرمه السلطان غاية
الإكرام، وعند عودته إلى بلاده عين معه السلطان الأمير قاني باي اليوسفي
المهمندار، وأرسل معه هدية لتهنئته بفتوحه في أوروبا. ٢٦

٢٤ - الحنفي - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور -
حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى - الجزء الثاني - الطبعة الثالثة
(١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ص ٣٢٩.

٢٥ - المصدر السابق - ص ٣١٦ .

٢٦ - المصدر السابق - الجزء الثاني - ص ٣٣٢.



خريطة توضح حصار القسطنطينية وفتحها

@booka.

(العثمانيون والمماليك - زمن العداوة والحرب)

بدأت العلاقات يشوبها الحذر بين العثمانيين والمماليك بعد علو نجم السلطان مراد الثاني والذي تمكن من هزيمة الحلف الأوروبي على بلاده سنة ٨٤٨هـ، وإرساله للأمراء الأسرى إلى السلطان في القاهرة ومعهم الهدايا والتحف، وقد أراد السلطان مراد أن يستعرض قوته وقوة جيوشه أمام المماليك وملوك المشرق، ولكن على الرغم من ذلك كان الاحترام قائما بين العثمانيين و المماليك، ولكن بعد أن قام ولده محمد الثاني والذي لقب بالفاتح بعد فتحه للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، فمنذ ذلك الحين أخذ السلطان محمد الثاني يكتب في مراسلاته باسم السلطان وقد كان من قبله لا يفعلون ذلك مع سلاطين المماليك، وإن كانوا يخاطبون بذلك في بلادهم أمام رعيته وأرباب دولتهم، ولكن العلاقات سوف تسوء أكثر بحيث تتطور إلى الحرب المباشرة بين الدولتين، فقد أحس العثمانيون بقوتهم فبدأوا يتوسعون في الشرق، وسوف نتكلم عن كيفية الصراع بين العثمانيين والمماليك والذي بدأ بانتصارات للمماليك على العثمانيين ولكنها لم تكن حاسمة فقد مارسوا هوايتهم المفضلة وهي التنافس على كرسي السلطنة، ولو كانوا أكثر وعيا لوحدوا كلمتهم وتركوا الصراع فيما بينهم ليتمكنوا من القضاء على العثمانيين وضم بلادهم، ولكن الأمر انتهى بقيام العثمانيون باستخدام البارود والبنادق والمدافع فتمكنوا من هزيمة المماليك والقضاء على دولتهم.

عاشرا: محمد الثاني والسلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد خشقدم:

ندية السلطان محمد الثاني للسلطان الظاهر:

وفي زمان السلطان خشقدم بداية هذا الجفاء الذي حدث بين المماليك والعثمانيين، فقد وصلت سفارة السلطان محمد الثاني في رمضان سنة ٨٦٨هـ، ولما صعد الرسول إلى حضرة السلطان بالقلعة لم يقبل الأرض على ما هو معتاد عليه من مراسم الخدمة السلطانية التي يقوم بها السفراء والرسل، فغضب منه السلطان ولم يخلع عليه، وزاد من غضب السلطان من كتاب محمد الثاني أنه عندما قرأه الرسول لم يجد فيه من ألقاب التشريف والتفخيم ما هو معتاد عليه فكاد أن يفتك بالرسول لولا وجود الأمراء الذين منعه، فكانت هذه السفارة بداية العداء والوحشة بين الدولتين.

وفي شهر شوال خلع السلطان الظاهر خشقدم على رسول محمد الثاني وأرسل معه هدية للسلطان وعين معه الأمير سودون القصري للسفر إلى الأناضول، ولكن تم إلغاء سفر الأمير سودون وأذن للرسول بالسفر وحده. ٢٧

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٨٦٩هـ أرسل السلطان الظاهر إلى محمد الثاني سفارة برئاسة السيد الشريف نور الدين علي الكردي، وأرسل معه رسالة مضمونها الوقوف معه ضد الأمير حسن الطويل أمير ديار بكر، والذي استولى على قلعة كركر وهي من ضمن ممتلكات المماليك، ولما علم حسن الطويل بأمر غضب السلطان الظاهر منه أرسل سفارة له

في جمادى الآخرة ومع الرسول مفاتيح قلعة كركر وذلك إعلانا منه على تبعيته للسلطان الظاهر.

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٨٧٠هـ وصل السيد الشريف نور الدين علي الكردي رسول السلطان الظاهر إلى محمد الثاني فذكر عدم انصاف السلطان محمد له، وفي هذا دليل أيضا على أن السلطان محمد الثاني كان يعامل سلطان المماليك على قدم من المساواة والندية. ٢٨

تبعية صاحب قونية للعثمانيين و إعلان عصيانه للمماليك:

وقد زادت خشية السلطان الظاهر خشقدم من تزايد نفوذ العثمانيين وطمعهم في المدن التابعة للمماليك، فقد وردت الأخبار في شهر ذي القعدة من نفس السنة بوفاة سلطان مدينة قونية صارم الدين إبراهيم محمد بن علي بن قرامان فاختلف أبناؤه على الملك ووقعت الحرب بينهم فاستنجد أحدهم بأمير ديار بكر حسن بك الطويل ويدعى إسحاق فتمكن من كسر إخوته وفروا من أمامه إلى ابن عثمان وأخذ منهم عدة قلاع مهمة، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٨٦٩هـ فسر السلطان الظاهر بهذه الأخبار سرورا عظيما.

ولكن في شهر شعبان سنة ٨٦٩هـ وردت الأخبار إلى القاهرة بأن السلطان محمد الثاني قد أرسل جيشا لنصرة الأمير أحمد بن قرامان وبخلع أخيه إسحاق فحزن السلطان لهذه الأخبار كثيرا وخشي لما هو آت بعد ذلك، وبالفعل جاءت الأخبار في شهر ذي القعدة بأن أحمد بن قرامان قتل أخيه إسحاق، وأنه أقام الخطبة للسلطان محمد الثاني، وأن العثمانيين دخلوا بلاد قونية فصدق ظن السلطان واغتم لهذه الأخبار. ٢٩

٢٨ - المصدر السابق - الجزء الثاني - ص ٤٢٧ و ص ٤٣٤.

٢٩ - المصدر السابق - الجزء الثاني - ص ٤٢١ و ص ٤٢٦ و ص ٤٢٩ و ص ٤٣٠.

تدخل محمد الثاني في شؤون الأبلستين:

وفي جمادى الآخرة سنة ٨٧٠هـ أرسل السلطان محمد الثاني سفارة إلى السلطان الظاهر يسأله أن يولي شاه سوار بن دلغادر على الأبلستين مكان أخيه ملك أصلان بن سليمان بن دلغادر والذي قتل على يد حسن الطويل، ولكن محمد الثاني وجد أن السلطان الظاهر قد ولى شاه بضاغ بن دلغادر أخو ملك أصلان على الأبلستين، فلما بلغه ذلك غضب فأرسل العساكر لكي يكونوا عوناً لشاه سوار في حربه ضد بضاغ ويأخذ منه المدينة.

فما أن وصلت هذه الأخبار إلى السلطان الظاهر حتى قام بتعيين حملة إلى البلاد الحلبية، وعين الأتابكي قانم التاجر باش عسكر، ومعه مجموعة من الأمراء الكبار، وعدد كبير من أمراء المماليك السلطانية، فبينما السلطان يجهز للحملة وصلته الأخبار بأن شاه سوار قد ظهر على شاه بضاغ وتمكن من أخذ الأبلستين، وهكذا انتصر العثمانيون لحليفهم شاه سوار على شاه بضاغ حليف المماليك، فحزن الظاهر لذلك.

ولكن أتت الأنباء من حلب في شوال من نفس السنة بأن شاه سوار حليف العثمانيين قد هرب من الأبلستين بعد أن رفض أهلها ولايته عليهم، فقام السلطان بإرسال خلعة الولاية إلى عم شاه سوار ويدعى رستم، وغضب على شاه بضاغ واتهمه بالتقصير في الحرب ضد شاه سوار.

*ضم محمد الثاني لدولة بني قرامان سنة (٨٧١هـ):

ثم جاءت الأخبار في شهر ذي الحجة بوقوع الحرب بين بني قرامان والعثمانيين، وانتهت بهزيمة إمارة قونية وضم دولتهم إلى العثمانيين، وهكذا أصبح الصدام مؤكداً بين العثمانيين والمماليك.

٣٠ - المصدر السابق - الجزء الثاني - ص ٤٣٦ و ص ٤٣٧.

٣١ - المصدر السابق - المصدر الثاني - ص ٤٤٠.

٣٢ - المصدر السابق - الجزء الثاني - ٤٥٠.

الحادي عشر: محمد الثاني الفاتح والسلطان الأشرف أبو النصر قايتباي:

وبعد أن تولى السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٧٢هـ أتت سفارة من عند محمد الثاني في المحرم سنة ٨٧٥هـ ومع الرسول كتاب فيه خبر حروبه مع البنادقة وانتصاره عليهم وأنه تمكن من فتح عدد من بلادهم. ٣٣

وفي رمضان سنة ٨٧٦هـ أتت سفارة أخرى من عند محمد الثاني إلى السلطان الأشرف ومعها هدية للسلطان، وفي شهر ذي القعدة سنة ٨٧٧هـ أتت سفارة أخرى من عند محمد الثاني إلى قائد السلطان الأشرف على التجريدة التي خرجت لصد عدوان ملك العراقيين حسن الطويل على بلاد الشام الأمير يشبك الدوادر يعرض عليه العون بعد أن علم أن حسن الطويل قد أرسل للفرنج يطلب منهم المدد والعون على جيش المماليك، فأكرم الأمير يشبك الرسول، وأرسل سفارة على رأسها القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر ومعه هدية إلى السلطان محمد الثاني يشكره فيها ومعها رسالة فيها طلب المودة والوفاق لمواجهة خطر حسن الطويل.

وفي نفس الشهر أتى رسول من عند السلطان محمد الثاني من جهة البحر إلى السلطان الأشرف قايتباي، فأكرمه السلطان وكان مع هذا الرسول كتاب حسن الطويل إلى بعض ملوك الفرنجة يطلب منهم أن يكونوا حلفاء فيهاجموا الدولة العثمانية وسلطنة المماليك من جهة البحر، وهو يهجم عليهم من جهة البر فيتم تشتيت قوى العثمانيين والمماليك فيسهل الانتصار عليهم، وأخبر رسول السلطان محمد الثاني أن رسول حسن الطويل قد تم أسره ومعهم هذه الرسالة أثناء توجهه إلى بلاد الفرنجة وهو في

٣٣ - الحنفي - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثالث (من سنة ٨٧٢هـ إلى سنة ٩٠٦هـ) - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ٥٢.

مركب في البحر، فأضاف السلطان رسول ابن عثمان عنده في القصر وخلع عليه، وعين السلطان الأشرف الأمير دولات باي الأشرفي لكي يكون سفيرا له إلى السلطان محمد الثاني. ٣٤

وفي ربيع الآخر سنة ٨٧٩هـ أتت سفارة من عند السلطان محمد الثاني ومع الرسول كتاب فيه قبول شفاعته السلطان محمد في الأمير أينال الحكيم وكان من أمراء المماليك الكبار ولكن جرت عليه أمور جعلته يهرب إلى السلطان العثماني، فقبل السلطان الأشرف الشفاعة وعفى عن أينال الحكيم، وأكرم الرسول وخلع عليه، ثم سافر الرسول راجعا إلى بلاده.

وفي جمادى الأولى من نفس السنة كان السلطان يستجم عند خليج الزعفران فصادف إقامة السلطان هناك قدوم رسوله يشبك الجمالي الذي أرسله إلى السلطان محمد الثاني وعليه خلعة ابن عثمان ومعه أيضا كتاب منه يطلب إعادة العلاقات الطيبة بينهما، فابتهج السلطان لذلك، ثم وردت الأخبار بعد ذلك بكسر جيش حسن الطويل على يد جيوش السلطان محمد الثاني، ففرح السلطان الأشرف لذلك كثيرا. ٣٥

الثاني عشر: بايزيد الثاني والسلطان الأشرف قايتباي:

ولكن هذه الحال من الود والمحبة الظاهرة من العثمانيين لسلطان المماليك في مصر لم تستمر طويلا فقد توفي السلطان محمد الثاني الفاتح في ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ وتولى بعده السلطان بايزيد الثاني، وهو أول من بدأ من سلاطين آل عثمان محاولات الهجوم على حدود سلطنة المماليك. ٣٦

٣٤ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٦٩ و ص ٨٦ و ص ٨٨.

٣٥ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٩٨ و ص ٩٩.

٣٦ - محمود شاكر - الخلفاء العثمانيون (٩٢٣هـ-١٣٤٢هـ) - الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)

- المكتب الإسلامي - بيروت - ص ٩١ و ص ٩٣.

طلب أخو بايزيد الثاني اللجوء إلى سلطنة المماليك سنة (٨٨٦هـ):

ويسميه المؤرخ ابن إياس باسم الجمجمة بن عثمان ولعله يكون الأمير جم بن السلطان محمد الفاتح فهو الوحيد من إخوة بايزيد الثاني الذي لم يبايعه على السلطنة بل حاربه وتسلمن مدة قصيرة ثم هرب منه، ففي جمادى الآخرة أتت الأخبار من الأتابكي أوزبك أن الأمير جمجمة بن عثمان قد وصل إلى أطراف البلاد الحلبية ويطلب الإذن من السلطان للدخول إلى حلب، فأذن السلطان له بالدخول إلى حلب وطلب من الأتابكي أوزبك أن يأتي ومعه الأمير جمجمة إلى القاهرة.

وفي شعبان قام الأمير خُشقدم بالخروج لاستقبال الأمير جمجمة بن عثمان، فمد له الموائد الحافلة بمدينتي بليس والخانكة، ثم استقبله الأمراء والعساكر والحجاب من المرج والزيات في موكب حافل حتى وصلوا إلى القاهرة وصعدوا جميعاً إلى القلعة، ووجد أن السلطان قد أقام له الموكب في حوش القلعة، وعندما مثل بين يدي السلطان الأشرف قايتباي لم يحسن استقباله، ولكنه خلع عليه بكاملية بسمور حافلة، وأركبه حصاناً مخصصة من أحصنته وعليه سرج ذهب وكنبوش زركش، ثم نزل من القلعة في موكب حافل وأمامه الأمراء.

ونزل الأمير الجمجمة بدار ابن جلود ومكانها بفم الخور وهو كاتب المماليك وكان مع الأمير العثماني وأدلته وأولاده، وكان سبب فراره من أخيه خوفه على نفسه من القتل فطلب اللجوء إلى السلطان الأشرف، وقد أضافه السلطان بعد ذلك في قبة الأمير يشبك التي بالمطرية، وكانت ضيافة كبيرة حضرها الأمراء المقدمين ثم خلع بكاملية أخرى بسمور، وفي شوال دعى السلطان الأشرف الأمير العثماني بأن يلبس الشاش والقماش، ويطلع من أجل أن يصلي صلاة العيد مع السلطان، فطلع وصلى وحضر موكب العيد مع السلطان، وقد خلع عليه مثمراً وفوقاني بطرز عريض ونزل مع الأمراء المقدمين.

طلب الأمير جم بن محمد السفر إلى بلاده لمحاربة أخيه بايزيد سنة (٨٨٧هـ):

وفي المحرم من سنة ٨٨٧هـ طلب الأمير الجمجمة أن يسافر إلى بلاده من أجل المطالبة بحقه في سلطنة العثمانيين، فجمع السلطان الأشرف الأمراء من أجل أخذ مشورتهم في أمر الأمير العثماني، ثم أمر بإحضار الجمجمة بن عثمان وتكلم مع الأمراء، فطلبوا منه عدم السفر إلى بلاده الآن ولكنه كان مصمما على السفر فأغلظ له القول الأتابكي أوزبك، ولكن أمام تصميم الأمير العثماني لم يجد السلطان بدا من أن يأذن له بالسفر إلى بلاده وانفض الاجتماع على ذلك.

هزيمة الأمير جم أمام أخيه بايزيد الثاني سنة (٨٨٧هـ):

وقد توجه الأمير العثماني إلى بلاد ابن قرمان، فبعث له السلطان بايزيد الثاني جيشا فوقعت بين الفريقين فكانت الهزيمة على الأمير جمجمة أخيه ففر متوجها ناحية البحر، وهذه الأخبار كما نرى لا تنطبق إلا على أمير عثماني واحد هو الأمير جم بن محمد الثاني، فهو الوحيد من إخوة بايزيد الثاني الذي حاربه من أجل السلطنة، وقد أبحر بمركب في البحر من أجل التوجه إلى قلعة نسية في ولاية فرنكستان فخرج عليه قراصنة من الفرنج فأسروه وأخذوا كل ما كان معه من أموال وقماش وغيره، فندم الأشرف قايتباي على تركه للأمير العثماني الخروج من مصر. ٣٧

٣٧ - الحنفي - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثالث (من سنة ٨٧٢هـ إلى سنة ٩٠٦هـ) - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ١٨٣ و ص ١٨٥ و ص ١٨٧ و ص ١٨٩ و ص ١٩٢ و ص ١٩٥ و ص ١٩٦.

الحرب الأولى بين العثمانيين والمماليك في الألبستين سنة (٨٨٩هـ):

ففي رمضان سنة ٨٨٩هـ أتت الأخبار أن أمير إمارة ذي القادر التركمانية في الألبستين علي دولات قد حارب نائب حلب وردبش، وكان السلطان العثماني بايزيد الثاني قد أمد علي دولات بالجنود والعساكر فتمكن من كسر الجيش المملوكي وأسر وردبش والذي ضرب عنقه بيده، وقد قتل في هذه الواقعة نائب مدينة صفد الأمير ألماس، والأمير طقطبائي المحمدي الأشرفي نائب قلعة حلب، وقتل كثير من الأمراء والجنود.

فخرج الأمير قمراس ومعه الأمير أزدمر ومعهم العساكر المصرية فلحقوا بجيش علي دولات ومعه عساكر سلطان العثمانيين، ووقعت الحرب بينهما فكانت الهزيمة على علي دولات والعثمانيين ونهب جميع بركهم، وأخذوا صناعق بايزيد ودخلوا بها مدينة حلب منكسة زيادة في الإهانة لابن عثمان. ٣٨

مبادرة السلطان الأشرف الصلح مع بايزيد الثاني:

وعلى الرغم من مناصرة العثمانيين لعلي دولات وتحريضه لمحاربة المماليك، إلا أن السلطان الأشرف في شهر ذي الحجة سنة ٨٨٩هـ، عقد مجلس جمع فيه الأمراء من أجل المباحثة في أمر العثمانيين، فأشار عليه أحد الأمراء وهو الأتابكي أوزبك أن يرسل إلى سلطان العثمانيين رسول ومعه هدية ورسالة فيها إزالة للوحشة وإعادة العلاقات الودية من جديد، فقبل السلطان هذا الرأي وعين الأمير جاني بك حبيب أمير آخور ثاني وكان معروفا عنه الحكمة واللباقة وحسن اختيار الكلام.

٣٨ - الحنفي - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثالث (من سنة ٨٧٢هـ إلى سنة ٩٠٦هـ) - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ٢١٠.

وفي شهر صفر سنة ٨٩٠هـ توجه الأمير جاني بك حبيب في سفارة للعثمانيين فسافر من ثغر الإسكندرية في المراكب السلطانية إلى السلطان بايزيد الثاني ومعه هدية السلطان الأشرف وهي عشرة آلاف دينار، وتقليد من الخليفة العباسي باعتراف رسمي من الخليفة والسلطان بسلطنة العثمانيين على بلاد الروم وكل ما سيقوم بفتحه من بلاد الفرنجة، وأرسل له الخليفة رسالة فيها الحث على إخماد الفتنة بينه وبين سلطان المماليك، وقد أرسل الأشرف الهدية التي أخذها نائبه على جدة من رسول سلطان الهند له وهي خنجر مرصع بفصوص ثمينة ومعها رسالة اعتذار، وكان سبب هذه الفتنة وتعصب السلطان بايزيد الثاني لعلي دولات في حربه مع المماليك، أن بعض ملوك الهند كان قد أرسل هدية جلية إلى السلطان بايزيد مع بعض تجار الهند، فلما وصل التجار إلى مدينة جدة احتاط نائب جدة على هذه الهدية وأرسلها إلى السلطان بمصر، وكان من جملة الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص ثمينة، فطمع السلطان في هذا الخنجر، فلما وصلت تلك الأخبار إلى السلطان بايزيد غضب كثيرا، فلما جاء علي دولات إلى السلطان بايزيد يشكو إليه أفعال وظلم السلطان الأشرف له وجدها فرصة من أجل الانتقام من سلطان المماليك فكانت هذه الحرب التي حدثت بين العثمانيين والمماليك. ٣٩

استيلاء العثمانيين على قلعة كولك شمال بلاد الشام سنة (٨٩٠هـ):

ولكن يبدو أن سلطان العثمانيين لم يكن يريد الصلح، ولم تكن اغتصاب هدية ملك الهند منه هي سبب العداء بينه وبين سلطان المماليك، وإنما كان هدفه هو الاستيلاء على بلاد الشام من البداية، فقد جاءت الأخبار

من مدينة حلب في هذه السنة أن العساكر العثمانية قد تمكنت من الاستيلاء على قلعة كولك وكان نائبها يدعى طوغان الساعي، وأن هؤلاء العساكر لما حاصروا القلعة سلمها طوغان بالأمان للعثمانيين، فكانت هذه أول إشارة من العثمانيين للمماليك بقيام الحرب بينهما.

وفي شهر شعبان أتت أخبار أخرى من بلاد الشام تفيد أن العثمانيين قد تمكنوا من الاستيلاء على أطراف بلاد الشام، وقام نائب حلب الأمير أزدمر بإرسال رسالة يحث فيها السلطان بضرورة خروج جيش كبير من مصر لردع العثمانيين عن بلاد الشام، وفي شهر ذي القعدة أتى لأمر جاني بك حبيب الذي قد أرسله السلطان الأشرف قايتباي إلى سلطان العثمانيين من أجل الصلح، وقد جاء من طريق البر من مدينة ملطية وطلع إلى السلطان بالقلعة وعليه خلعة السلطان بايزيد، فخلع عليه السلطان الأشرف وعلى من معه من الأمراء، ثم طلب جاني بك أن يخلو بالسلطان فأخبره بحقيقة ما يضره السلطان العثماني من كرهه للمماليك وسلطانهم، وأنه مصمم على حرب المماليك فانزعج السلطان لهذه الأخبار وتأكدت شكوكه حول نية العثمانيين. ٤٠

الحملة الأولى للمماليك على العثمانيين سنة (٨٩١هـ):

وفي هذه السنة خرج جيش المماليك من مصر بقيادة الأمير أوزبك ومعهم الأمير تيمور بك ومعهم جيش الشام وحلب، وكان جيش العثمانيين بقيادة موسى بك ومعهم صهر السلطان فرهاد بك فقاموا ببناء قلعة في مدينة أضنة واحتموا بداخلها، وعندما أتى جيش المماليك خرج لهم جيش العثمانيين ووقعت بينهما حرب مهولة كان فيها النصر حليف المماليك

فقتل من جيش العثمانيين حوالي أربعين ألفا وقتل قائدهم موسى بك وقطعت رأسه، وقتل أيضا صهر السلطان فرهاد بك، ووصل في تلك الأثناء أمير أمراء الأناضول المدعو خضر بك أوغلي محمد بك فوجد الهزيمة قد لحقت بجيش السلطان فدخل المعركة مع الأمير أوزبك بالقرب من حدود مدينة أضنة فانهزم أيضا، وقبض على الأمير أحمد بك بن هرسك أوغلي وكان من أجل أمرائهم فأمر به فأودع في الحديد، وهرب بقية أمراء الجيش العثماني، وقد وصلت هذه الأخبار إلى مصر في شهر صفر ففرح السلطان الأشرف كثيرا. ٤١

وفي شهر ربيع الأول وصل إلى مصر نائب حلب الدودار، وأخبر السلطان بصحة الأخبار التي وردت بانتصار جيش المماليك على جيش العثمانيين والقبض على عدد كبير من أمراء الجيش العثماني، وأن الغنائم لا تحصى من خيول وسلاح وبرك، وأنهم أخذوا صناعق الجيش العثماني والتي بلغت حوالي مئة وعشرين صنjq، وأنه قد قطع عدد كبيرة من رؤوس العساكر العثمانية، وأن الأمير قيت الساقي الخاصكي سوف يأتي بكل ما ذكر إلى مصر، فسر السلطان سرورا عظيما.

وفي شهر ربيع الآخر وصل الأمير قيت الساعي من حلب ومعه رؤوس الجنود العثمانيين على الرماح، فلما دخل القاهرة زينت له ووقف الناس من أجل الفرجة، وكان عدد هذه الرؤوس يزيد على مائتي رأس، فطلع بهم القلعة وضربت له البشائر، وأقيمت له الخدمة السلطانية ووقف له أرباب الدولة كل في منزلته، وغطيت دكة السلطان بملاءة من حرير، وذلك لأن السلطان كان قبل مجيء قيت الساعي قد سقط من على فرسه

٤١ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٢٢٦.

- لطفي باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي محمد - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - الطبعة الأولى (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة - ص ٢٣٠ و ص ٢٣١.

وكسرت رجله فلم يستطع مقابلة قيت، ولكن قيت قبل الأرض كما هي العادة عند مقابلة السلطان، ولبس خلعة السلطان التي جهزت له ولمن معه من المماليك السلطانية ونزلوا من القلعة في موكب حافل. ٤٢

قدوم الأمير أوزبك قائد جيش المماليك ومعه الأسرى إلى مصر سنة (٨٩١هـ):

وفي شهر ذي القعدة دخل الأمير أوزبك الأتابكي وبقيّة الجيش ومعهم الأسرى في الحديد، وصناجق السلطان العثماني بايزيد الثاني منكسة وكان الأمير أحمد بن هرسك راكبا وفي عنقه جنزير من حديد، ثم عرضوا على السلطان الأشرف في الحوش فعاتبه السلطان ووبخه، ثم أمر بجميع الأسرى أن توزع على الأمراء المماليك، وخلع على أوزبك الأتابكي.

وفي شهر المحرم سنة ٨٩٢هـ أمر السلطان بالعفو عن الأسرى العثمانيين وفي مقدمتهم الأمير أحمد بن هرسك وتجهيزهم بكل ما يلزم لسفرهم وعودتهم إلى بلادهم مرة أخرى، وكانت هذه محاولة أخرى من السلطان الأشرف قايتباي للصلح، ولكن السلطان العثماني كان له رأي آخر. ٤٣

الحملة الثانية ومحاولة بايزيد الانتقام لهزيمته من المماليك سنة (٨٩٣هـ):

وفي شهر جمادى الأولى أتت الأخبار من حلب أن جيش السلطان العثماني قد وصل إلى مدينة أضنة، فلما سمع السلطان بهذه الأخبار أمر بتجهيز حملة جديدة، وأمر بتوجه ثلاثة من المماليك الخاصكية يركبون الهجن

٤٢ - الحنفى - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثالث (من سنة ٨٧٢هـ إلى سنة ٩٠٦هـ) - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس - محمد مصطفى - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ص ٢٢٦ و ص ٢٢٩.

٤٣ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٢٣٥ و ص ٢٣٧.

السريعة والسفر إلى بلاد العثمانيين من أجل استطلاع صحة هذه الأخبار.

وفي شهر جمادى الآخرة خرج الجيش المصري بقيادة أوزبك الأتابكي ومن معه من الأمراء الكبار، وفرق الجيش من ورأهم واستمر خروجهم من شروق الشمس إلى وقت الظهر فرجت لهم القاهرة وكان يوما عظيما في مصر، فلما علم السلطان بايزيد الثاني بخبر خروج جيش المماليك أرسل المراكب وفيها الجنود والعساكر في البحر لكي يقطع الطريق على أوزبك الأتابكي، فرست على جهة باب الملك وكانوا في حوالي ستين مركبا، ولكن أوزبك الأتابكي قد تمكن من استخلاص باب الملك من العثمانيين وفي نفس الوقت أتت رياح شديدة فأغرقت معظم مراكب العثمانيين ومن نجا منهم إلى الشط تلقفته سيوف المماليك.

وفي شهر رمضان وقعت الحرب الشاملة بين الجيشين المملوكي والعثماني فكان النصر للمماليك مرة أخرى وأحدث المماليك فيهم مقتلة عظيمة ونجا منهم من تمكن من الفرار بحياته، وغنم المماليك غنائم كثيرة من خيول وسلاح، ولما بلغت هذه الأخبار إلى السلطان الأشرف بمصر أمر بدق البشائر في القلعة مدة سبعة أيام كاملة.

ثم أتت الأخبار في شهر شوال بأن عساكر العثمانيين الفارة قد لجأت إلى مدينة أضنة، وأن الجيش المصري قد حاصرهم بالمدينة لمدة ثلاثة أشهر وقتل من الجيشين ما لا يحصى من الجنود، وفي النهاية تسلم أوزبك المدينة بالأمان. ٤٤

وفي شهر ربيع الأول سنة ٨٩٤هـ وصل جيش المماليك المنتصر بقيادة الأتابكي أوزبك ومعه بقية الأمراء والجنود، والعجيب أن كثير من الجنود العثمانيين أتوا مع الجيش المملوكي يرغبون في الدخول في خدمة السلطان الأشرف قايتباي، فأكرمهم السلطان وأمر بكتابة أسمائهم في ديوان الجيش باسم العثمانية، وقرر لهم الجوامك - الرواتب - وما يلزمهم. ٤٥

٤٤ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٢٥٢ وص ٢٥٤ وص ٢٥٦ وص ٢٥٧.

٤٥ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٢٦١.

وهكذا انتهت الحملة الثانية بانتصار ساحق للمماليك على العثمانيين، ووصول سلطان المماليك في منطقة الأناضول حتى مدينة أضنة، فكان هذا بمثابة تهديد مباشر لسلطنة العثمانيين.

إرسال حملة صغيرة لحماية مدينة حلب من العثمانيين سنة (٨٩٤هـ):

وفي هذه السنة أتت أخبار من نائب حلب مفادها أن بايزيد الثاني لما علم برجوع جيش المماليك، وكان هذا من أكبر الأخطاء فلو بقت هناك فرقة من جيش المماليك لحافظوا على ما حققوه من انتصار ومكاسب، ولما تجرأ العثمانيون على الهجوم على المدن الحلبية مرة أخرى، فقد أفادت الأخبار بأن الجيش العثماني تمكن من الإستيلاء على مدينتي سيس وطرسوس، وأنهم عاونوا الأمير شاه بضاغ بن دلغادر في القبض على أخيه الأمير على دولات واثنين من أبنائه ونصبوه أميرا على الأبلستين تابعا للسلطان العثماني، فلما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان الأشرف انزعج وغضب كثيرا.

ثم أتت الأخبار مرة أخرى من نائب حلب تشدد على السلطان بضرورة خروج الجيش المصري لرد أطماع العثمانيين عن حلب، فقام السلطان بتجهيز الجيش وعين على قيادته الأمير قنصوه الشامي ومعه الكثير من الأمراء الكبار، وحثهم السلطان على سرعة الخروج من أجل حماية حلب ومنع العثمانيين من الإستيلاء عليها.

وفي شهر شعبان أتى إلى القاهرة الأمير العثماني اسكندر بن ميخال وهو في الأسر، وكان الذي تولى أسره الأمير علي دولات، فكان دخوله إلى القاهرة من الأيام المشهودة، وكان معه العديد من الجنود العثمانيين، فعرضوا على السلطان فأمر بسجنهم.

القبض على جاسوس لبايزيد في مدينة حلب:

وفي شهر جمادى الآخرة تم القبض على رجل من أخصاء السلطان بمدينة حلب يدعى أحمد بن الديوان ومعه ولده ويدعى محمد، فأمر بسلخهما معا في المقشرة - مكان للسجن والتعذيب - فتم سلخهما وشهرهما على جملين في شوارع القاهرة، وكان السبب في ذلك أنه كان جاسوسا للسلطان العثماني، وكان ينقل أخبار السلطان الأشرف والمماليك وما يحدث في دولتهم إليه، فتم القبض عليه وقتله وسلخه لذلك.

وفي شهر جمادى الآخرة من هذه السنة أرسل وزير السلطان بايزيد الثاني داود باشا في سفارة إلى القاهرة يطلب فيها من السلطان أن يرسل سفارة من عنده إلى سلطانه عسى أن يكون فيها الصلح وحقق دماء المسلمين، فرد عليه الأشرف قايتباي بأن يطلق من عنده من تجار المماليك، ويبيعث بمفاتيح القلاع التي استولى عليها في بلاد الشام، ووقتها سوف يرسل له في أمر الصلح.

الحملة الثالثة والأخيرة للسلطان الأشرف ضد العثمانيين سنة (٨٩٥هـ):

وفي هذا العام خرج الجيش المصري من القاهرة لمحاربة جيش ابن عثمان عند حدود مدينة حلب، فقد أتت الأخبار من عند علي دولات أن جيش بايزيد الثاني قد وصلت طلائعه إلى مدينة كولك، فخرج الجيش المصري بقيادة الأتابكي أوزبك وكان معه خمسين من أمراء المماليك، وحوالي ثلاثة آلاف من المماليك السلطانية، واستمر خروج فرق الجيش من شروق الصباح إلى الظهر.

ثم أتت الأخبار عن طريق الهجن في شهر رجب بأن الجيش المصري قد

وصل إلى حدود بلاد العثمانيين، وأن أوزبك الأتابكي قد أرسل الأمير مامي
الخاصي رسولا إلى السلطان بايزيد الثاني، فلما أبطأ خبره عنهم أكمل
الجيش زحفه حتى وصل إلى أطراف بلاد ابن عثمان، ووصلوا إلى مدينة
قيسارية فقتلوا من كان بها ونهبوا الضياع التي حولها وأحرقوا الباقي،
وفعلوا مثل ذلك في أماكن عدة من بلاد السلطان العثماني، وانقسم الجيش
إلى فرقتين، فرقة توجهت إلى مدينة درنده، وفرقة بقيت في قلعة كولك
ينتظرون ما يجد من أمور.

وفي شهر ذي القعدة أتت الأخبار من بلاد الشام إلى القاهرة عن أخذ
الجيش المصري قلعة كواره من العثمانيين، ففرح السلطان بهذه الأخبار، ثم
أتت أخبار أخرى بأن الجيش المصري راجع إلى بلاد الشام، فأرسل السلطان
لأوزبك الأتابكي أن يبقى في مدينة حلب تحسبا من عودة جيش العثمانيين
مرة أخرى، ولكن أوزبك ومن معه لم ينصاعوا لأمر سلطانهم، ولو أنهم
فعلوا ذلك لتمكنوا من دخول بلاد العثمانيين وكسروا شوكتهم للأبد، ولكن
لم يقدر الله لهم ذلك، فدخل أوزبك والجيش المصري بلاد الشام، ومن
هناك تجهزوا من أجل الرجوع إلى القاهرة.

وفي شهر المحرم سنة ٨٩٦هـ دخل الأتابكي أوزبك قائد الجيش ومعه الجنود
والعساكر إلى القاهرة في موكب حافل، وصعدوا إلى القلعة فأكرمهم السلطان
وخلع على أوزبك ومن معه من الأمراء الخلع السنية ثم نزلوا من القلعة
إلى بيوتهم ومنازلهم، وكانت هذه آخر الحملات التي أرسلها السلطان
الأشرف قايتباي والتي انتصر فيها أيضا على العثمانيين، ولو كانت كلمة
المماليك موحدة على قلب رجل واحد لتمكنوا من ضم أجزاء كبيرة من
الدولة العثمانية ولألزموهم طاعتهم، ولكن كان هم المماليك منصب على
الرواتب ومخالفة سلطانهم. ٤٦

٤٦ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٢٦٥ وص ٢٦٦ وص ٢٦٧ وص ٢٦٩ وص ٢٧٠ وص ٢٧٣
وص ٢٧٥ وص ٢٧٦

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ وصل إلى القاهرة الأمير ماماي الخاصكي ومعه كبير قضاة السلطان بايزيد الثاني وهو القاضي علي جلبي قاضي مدينة برصا ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون ، فلما صعد إلى القلعة أكرمه السلطان وعظم قدره، فسلم مفاتيح هذه القلاع إلى السلطان، فقام السلطان بإطلاق سراح الأمير اسكندر بن ميخال ومن معه من الجنود العثمانيين فخلع عليهم وأكرمهم وجهزهم للسفر مع القاضي العثماني، وأشيع بين الناس أن السلطان الأشرف سيتصالح مع السلطان بايزيد الثاني. ٤٧

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٨٩٩هـ عين السلطان الأشرف قايتباي الأمير ماماي لكي يكون رسوله إلي العثمانيين، فأعد الأمير ماماي نفسه للسفر وقد أنفق على سفرته هذه الكثير من المال فخرج في موكب حافل وتوجه إلى بلاد العثمانيين.

ثم عادت هذه السفارة في شهر المحرم سنة ٩٠١هـ ومعهم الشيخ عبدالمؤمن العجمي والذي كان قد أرسله السلطان الأشرف إلى السلطان بايزيد ومعه هدية عظيمة للسلطان العثماني كان فيها قماش فاخر وسبع وظرافة وبغاء حمراء اللون، فلما عاد الشيخ العجمي أخبر السلطان بأن أمر بايزيد الثاني قد ضعف وأنه لم يعد راغبا في الحرب مع المماليك بعد الآن، ففرح السلطان لسماع هذه الأخبار. ٤٨

وكانت هذه آخر السفارات بين السلطان الأشرف قايتباي والسلطان بايزيد الثاني، فقد مرض السلطان الأشرف وتوفي في يوم الأحد ٢٧ من ذي القعدة سنة ٩٠١هـ، وذلك بعد أن رفعت راياته على حدود العثمانيين.

٤٧ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٢٨١ وص ٢٨٢.

٤٨ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٢٩٩ وص ٣١٥ وص ٣١٦.



صورة الأشرف قايتباي

الثالث عشر: بايزيد الثاني والسلطان ناصر الدين محمد بن قايتباي:

وفي أيامه لم تكن هناك فتن أو حروب بينه وبين بني عثمان، فقد أنهكت الحروب العثمانيين لهذا لم يرغبوا في شن حروب جديدة، ولم تكن بين المماليك والعثمانيين سفارات تذكر سوى سفارة أرسلها السلطان ناصر الدين محمد بن قايتباي، فقد أرسل الأمير خاير بك في شهر المحرم سنة ٩٠٣هـ كان الغرض منها إبقاء العلاقات بين الدولتين على شيء من الوفاق والاحترام. ٤٩

الرابع عشر: بايزيد الثاني والسلطان الظاهر أبو سعيد قنصوه الأشرفي:

ولما تولى السلطان الظاهر قنصوه السلطان وصل سفير السلطان الناصر خاير بك إلى القاهرة في ١١ من شعبان سنة ٩٠٤هـ، وكان السلطان الناصر قد حمله هدية عظيمة إلى السلطان ففرح بها كثيرا وفرح بسلطنة الناصر، ولكن لما وصلت له الأنباء بمقتل الناصر غضب على خاير بك ووبخه بالكلام. ٥٠ ثم أتت الأخبار إلى القاهرة أن بايزيد الثاني قد سير جيش إلى بلاد الشام وكان ذلك في شهر شعبان من هذه السنة، ولكن انتهت هذه الحملة بأن أرسل السلطان بايزيد إلى نائب حلب الأمير قنصوه بأن يعزل الأمير علي بن طرغل من عمله، فاستجاب له الأمير قنصوه، وهذه كانت أولى المحاولات لتدخل العثمانيين في شؤون دولة المماليك وإظهار الاستخفاف بالسلطان الجديد، وقد عين بعد ذلك ابن طرغل في نيابة عينتاب. ٥١

٤٩ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٣٧٧.

٥٠ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٤١٠ و ص ٤١١.

٥١ - المصدر السابق - الجزء الثالث - ص ٤١١ و ص ٤٢٨.

الخامس عشر: بايزيد الثاني والسلطان الأشرف قنصوه الغوري:

وفي جمادى الأولى من سنة ٩٠٨هـ أي بعد أن تولى السلطان الأشرف قنصوه الغوري أرسل السلطان بايزيد الثاني سفارة لتهنئة السلطان بالسلطنة وأرسل مع رسوله هدية عظيمة، فاستقبله السلطان في موكب حافل عند حوش القلعة، ثم أقام السلطان بعمل عرض كبير لرسول العثمانيين في جمادى الآخرة في الميدان تحت قلعة الحكم، وأحضر الرماة المهرة من المماليك، فقاموا برمي النشاب وهم على ظهور الخيل، وأيضاً أحضر النفاطين فأخذوا يرمون بالنفط أمام رسول السلطان العثماني، وهو بالتأكيد إظهار لقوة المماليك وفروسياتهم وأنهم مدربون عسكرياً بشكل ممتاز، ثم قام السلطان في شهر رجب بطلب رسول بايزيد الثاني فألبسه خلعة السلطان وجهازه للسفر إلى بلاده. ٥٢

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٩١٣هـ أتت سفارة أخرى من عند السلطان بايزيد الثاني إلى السلطان الأشرف وقد أعد السلطان لرسول السلطان العثماني وليمة عظيمة في الصحن المعروف بصحن فرعون تحت شباك قاعة البحرة، فوضع الفرش والأسمطة - الموائد التي يوضع عليها الطعام - والفاكهة والحلوى، وقام بتوزيع أكواب بها سكر مخلوط بماء الليمون، وأخلع على الرسول بعد ذلك بكاملية مخملاً أحمر بسمور فاخر، وكان ذلك في يوم الأربعاء ١٤ من جمادى الأولى.

ثم أتى إلى مصر في ١٩ من نفس الشهر أحد خواص السلطان العثماني ويدعى كمال، وقد عرفوه بالسلطان قنصوه على أنه من كبار المجاهدين ضد

٥٢ - الحنفى - محمد بن أحمد بن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الرابع (من سنة ٩٠٦هـ إلى سنة ٩٢١هـ) - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس - محمد مصطفى - طبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ص ٤٦ و ٤٧.

الفرنجية، فأكرمه السلطان وخلع عليه أيضا، ثم رجع رسول ابن عثمان ومن معه بعدما خلع عليه السلطان بخلعة سنية، وألبس جميع من معه سلاريات وشقا وسمورا وأذن لهم جميعا بالعودة إلى بلادهم، وكان ذلك في يوم الإثنين ١١ من جمادى الآخرة. ٥٣

وفي المحرم سنة ٩١٥هـ أرسل السلطان الأشرف الأمير علان الدودار في سفارة له إلى السلطان بايزيد الثاني يهنئه بشفائه من مرض ألم به، وكان قد أشيع أنه قد توفي وصلت عليه بعض مساجد مصر صلاة الغائب، ثم تبين أن هذه الأخبار كلها كذب ولا صحة لها. ٥٤

مجيء الأمير قرقند بن بايزيد الثاني إلى مصر سنة (٩١٥هـ):

وفي شهر صفر سنة ٩١٥هـ أتت الأخبار من مدينة دمياط بأن أحد أبناء السلطان بايزيد الثاني قد وصل إليها، فأرسل السلطان الأمراء أقباي أمير آخور ثاني، وأزدمر المهمندار ونانق الخازن، وجهز المراكب وفيها الحراقة الكبيرة التي يقوم فيها السلطان بكسر السد، وأيضا حراقة نفط تحرق أمامه بالنفط في البحر عندما يركب المراكب، فتوجهوا جميعا إلى مدينة دمياط لملاقاة الأمير، وقيل إن سبب مجيئه إلى مصر أنه وقع خلاف بينه وبين أبيه بايزيد الثاني فأتى إلى السلطان الأشرف لكي يصلح بينهما، وقد بالغ السلطان الأشرف في إكرامه وأخلع عليه بالخلع العظيمة وجعل له نفقة شهرية مقدارها ألفي دينار نفقة له. ٥٥

وفي يوم الإثنين ١٠ ربيع الأول وصل الأمير علان الدودار ثاني الذي أرسله السلطان الأشرف إلى العثمانيين، فصعد إلى القلعة فخلع عليه السلطان

٥٣ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ١١٩ و ص ١٢٢

٥٤ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ١٥٢.

٥٥ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ١٥٢ و ص ١٥٤.

بخلعة سنية وأنزله في موكب عظيم، وقال أن السلطان بايزيد الثاني قد أكرمه وأحسن إليه.

وفي يوم الخميس ٤ من ربيع الآخر صعد الأمير قرقد بن بايزيد الثاني إلى السلطان يستأذنه في العودة إلى بلاده، فخلع عليه السلطان خلعة سنية وأنزله في موكب حافل وعين معه مجموعة من الأمراء يرافقونه حتى ميناء بولاق وهناك كانت المراكب جاهزة وعليها ما يحتاجه هو ومن معه من الزاد وغيره، فسافروا إلى مدينة رشيد ومنها إلى بلاده في الأناضول ٥٦.

وفي يوم ١٦ من ذي القعدة جاءت سفارة من عند السلطان بايزيد الثاني ومعهم كتاب منه للسلطان الأشرف، فلما تناول السلطان الكتاب قبله ووضعه على عينيه تعبيرا منه على التقدير، ثم ناول الكتاب إلى كاتب سره فقرأه بحضرة السلطان والأمراء، وكان فيه ألفاظ من التعظيم للسلطان كثير، وكان فيه أن السلطان بايزيد الثاني كان قد أرسل إلى مصر مراكب حربية، ولا يعلم ما إذا كانت قد وصلت أم لا، وأن الرئيس كمال المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر، وقد أقام الرسول أيام معدودة ثم أخذ كتاب من السلطان الأشرف فيه الجواب على كتاب السلطان بايزيد الثاني، ثم أذن له بالسفر إلى بلاده. ٥٧

السادس عشر: السلطان سليم الأول الرهيب والسلطان الأشرف قنصوه:

سفارة السلطان الأشرف إلى السلطان سليم الأول لشراء أدوات حربية:

٥٦ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ١٨٤ و ص ١٨٦.

٥٧ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٢٠٢ و ص ٢٠٣.

أرسل السلطان الأشرف إلى السلطان سليم الأول سفارة سنة ٩١٨هـ، وكانت هذه السفارة بزعامة الرئيس حامد المغربي، وكان فيها طلب من السلطان أن يوفر له شراء ما يلزمه من أخشاب وحبال ومكاحل - مدافع - مصنوعة من نحاس، فأكرم سليم الأول رسول الأشرف وقام بإرسال ما يلزم السلطان من مكاحل النحاس والحديد والحبال والأخشاب، وقد عاد الرئيس حامد المغربي إلى مصر في شهر رمضان من نفس العام.

هروب الأميران سليمان وعلي ابني الأمير أحمد بن بايزيد الثاني إلى مصر سنة (٩١٨هـ):

وعلى الرغم من البداية الجيدة التي كانت بين السلطانين إلا أنها لم تدم طويلاً، فقد بدأت العلاقات في التوتر بعد أن تولى سليم الأول السلطنة والذي أخذ يتخلص من إخوته ففر منه أخوه أحمد إلى الشاه اسمعيل الصوفي بإيران وابنه سليمان، وقد وصل الأمير سليمان بك إلى مصر يوم الخميس ٦ من ذي القعدة ولجأ إلى سلطان الأشرف فأكرمه وألبسه سلاري صوف بسمور، ولكن الأشرف لم يستبشر بذلك خيراً، وقد صدق ظن السلطان الأشرف بعد ذلك، وقد توفي الأمير سليمان بعد ذلك بالطاعون في صفر سنة ٩١٩هـ وقد حزن عليه السلطان كثيراً وأقام له جنازة على طريقة العثمانيين في بلادهم فكسرت أقواسه ووضعت على نعشه، كما وضعوا عمامته على نعشه وجعلوا أذنان الخيول مقوسة ودفن بمصر في تربة البجاسي، ثم توفي بعده أخيه الأمير علي في شهر ربيع الأول بالطاعون هو الآخر.

ثم أتت الأخبار من بلاد العثمانيين أن السلطان سليم الأول قد قتل أخويه

٥٨ - المصدر السابق الجزء الرابع - ص ٢٨٥.

٥٩ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٢٨٩ وص ٣٠٣.

الأميران قرقد وأحمد بعد أن تمكن من الاحتيال عليهما، فقبض عليهما وقام بخنقهما، وقتل أيضا مجموعة من وزرائه.

وفي يوم الخميس ٢ من جمادى الآخرة سنة ٩١٩هـ خرج الأمير أقباي الطويل رسولا إلى السلطان سليم الأول في موكب حافل من الميدان والسلطان الأشرف ينظر إليه، وقد عاد الأمير أقباي الطويل من سفارته هذه إلى مصر يوم الخميس ١٤ من ربيع الآخر سنة ٩٢٠هـ فصعد إلى القلعة وقابله السلطان الأشرف وخلع عليه وأخبره بكرم سليم الأول معه، فأنزله من القلعة في موكب حافل. ٦٠

سفارة السلطان سليم الأول للسلطان الأشرف بشأن الحرب ضد الشاه إسماعيل:

وقد أرسل السلطان سليم الأول سفارة إلى السلطان الأشرف قنصوه سنة ٩٢٠هـ، وصلت إلى مصر في يوم الخميس من ربيع الأول، ومعه كتاب يطلب فيه من سلطان المماليك أن يتحالفا على شاه اسماعيل الصفوي والذي أعلن الحرب على العثمانيين بعد أن تمكن من ضم العراق إليه، فقام السلطان في يوم السبت ٢٥ من نفس الشهر بدعوة رسول سليم الأول فأضافه وخلع عليه وأعطاه جوابه على طلب سلطانه، فقد اتفقت كلمة أمراء المماليك على أن يرسل السلطان الأشرف تجريدة كبيرة إلى مدينة حلب تقوم على حماية المدينة، ومراقبة تحركات كلا من سليم الأول وشاه اسماعيل الصفوي تحسبا لأي غدر من كلا الطرفين، وكان لهذا الموقف من قبل الأشرف أثر سلبي على العلاقات العثمانية المملوكية بعد ذلك. ٦١

٦٠ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٣٢٤ وص ٣٧٦.

٦١ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٣٧٣ وص ٣٧٦.

وفي يوم الخميس ٢٧ من جمادى الأولى من نفس العام حضر رسول آخر من عند سليم الأول إلى مصر وهو أمير عظيم القدر فأنزله الأشرف في بيت الظاهر تمر بغا، ثم صعد هذا الرسول إلى القلعة يوم الإثنين من شهر جمادى الآخرة وكان معه رسالة من سلطانه فقرأها على الأشرف والذي أكرمه غاية الإكرام واستضافه في قصره الذي بناه على بسطة المقياس، ثم أذن له بالسفر إلى بلاده.

وفي يوم الإثنين ٢١ من شهر رجب حضر رسول السلطان الأشرف أينال باي دودار سكين من عند السلطان سليم الأول، والذي كان قد أرسله الأشرف بعد مجيء الأمير أقباي الطويل الذي أرسل قبله إلى السلطان العثماني، فأخبر أينال أن سليم الأول قد أكرمه أكثر من أقباي الطويل وخلع عليه وأنعم عليه بمبلغ كبير من المال وأعطاه كتاب إلى السلطان الأشرف فيه تعظيم للأشرف وأيضا إظهار لقوة جيوشه وشدة بأسه وبأس جنوده، فلم يلتفت السلطان الأشرف إلى هذا التعاضم من قبل سليم الأول.

سفارة سليم الأول إلى السلطان قنصوه للبشارة بانتصاره على الشاه إسماعيل:

وفي شهر رمضان سنة ٩٢٠هـ أتى رسول السلطان سليم الأول ليبشر السلطان الأشرف قنصوه الغوري بانتصار سيده على جيوش الشاه إسماعيل الصفوي في جالدران - اسم وادي طويل بالقرب من ولاية وان وأذربيجان - ودخوله لعاصمة الشاه إسماعيل وهي مدينة تبريز، فلما أتم الرسول قراءة الكتاب خلع عليه الأشرف بكاملية مصنوعة من المخمل أحمر ونزل الرسول ولم يأمر السلطان بضرب الكوسات والبشاير بالقلعة، ولم يأمر بأن تعلق الزينة

٦٢ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٣٨٣ و ٣٨٤.

٦٣ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٣٩٥ و ٣٩٦.

في القاهرة بل أخذه الحذر هو والأمراء من سليم الأول وأطماعه في الدولة المصرية، فقد تملك بعض مدن ديار بكر على الحدود الشامية ، فاكتمى السلطان بإرسال كتاب فيه تهنئة بنصر السلطان سليم الأول على الشاه إسماعيل.

بداية الخلاف بين سليم الأول والأشرف قنصوه الغوري:

وحدث في شهر المحرم سنة ٩٢١هـ أن وصل رسول السلطان سليم الأول ومعه رسالة مفادها أن السلطان سليم قد عين شاه سوار أوغلي على مملكة ذي القادر في الألبستين بدلا من عمه علاء الدولة علي دولات، وأنه يطلب من سلطان مصر أن يوافق على هذا التعيين فرفض الأشرف هذا التدخل الصريح من قبل السلطان سليم في شأن دولة المماليك وحليفها مملكة ذي القادر.

ولكن السلطان سليم الأول لم يهتم لرفض السلطان الأشرف قنصوه فهجم على جيش علي دولات فقبض عليه وقطع رأسه هو وابنه، ولما علم السلطان الأشرف بهذه الأخبار غضب وحزن على قتل حليفه.

وقد أرسل السلطان بعد ذلك الأمير السيفي جانم الخاصكي رسولا من قبله إلى السلطان سليم بشأن علي دولات وشاه سوار، وقد سافر الأمير السيفي جانم في شهر المحرم على جرائد الخيل حتى يعود بسرعة ومعه جواب سلطان العثمانيين، وقد عاد بالفعل الأمير جانم إلى مصر يوم الخميس ١٥ من شهر جمادى الأولى وصعد إلى السلطان يخبره بإكرام السلطان سليم له.

٦٤ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٤٠٤.

٦٥ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٤٣٤.

ولكن في يوم الإثنين ٢٥ من جمادى الآخرة أتى رسول سليم الأول ومعه عدة علب وكان السلطان قنصوه جالسا في الحوش على المصطبة في القلعة، فلما فتح الرسول العلب وكانوا ثلاثة وجد فيها رأس علاء الدولة علي دولات ورأس ولده، ورأس وزيره فلما رآها السلطان غضب وقال للرسول: «إيش أرسلني هذه الرؤوس، هي رؤوس ملوك الفرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لي» ثم أمر الوالي بأن يأخذ هذه الرؤوس ويقوم بدفنها عند الكوم الذي بقرب من زاوية الشيخ كهنبوش.

وعندها طلب السلطان الأشرف قنصوه المشورة من أمراء المماليك بشأن ما يقوم به السلطان سليم الأول وضمه للبلاد التابعة لسلطنة المماليك، فقال له بعضهم: يا مولانا السلطان غالب البلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان، خطب له فيها باسمه وضربت له السكة - العملة - وشرع في بناء برج عند عقبة بغراض وآخر على باب الملك والسلطان يده في الماء البارد، وفست أحوال المملكة وغالب الرعية بحلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم يميلوا إلى ابن عثمان لأجل عدله في الرعية وهذه الأحوال غير صالحة» فشق على السلطان سماع هذا الكلام، ولكنها كانت الحقيقة وهي التي أدت في النهاية إلى سقوط المماليك.

نذائر الحرب بين السلطنتين:

فقد أرسل السلطان الأشرف قنصوه الأمير جانم الخاصكي إلى بلاد التتار يطلب من ملكهم أن يطلق أقارب السلطان الذين أسرههم وأرسل معه هدية له، فلما مر جانم الخاصكي ببلاد السلطان سليم الأول أمر بالقبض عليه وأهانته إهانة بالغة وأخذ منه هدية السلطان الأشرف لملك التتار،

٦٦ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٤٣٨ و ص ٤٦٢

٦٧ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٤٦٣.

وكاد أن يأمر بشنقه أكثر من مرة لولا شفاعته وزرائه، وقد وصل الأمير جانم إلى مصر يوم الإثنين ١٦ من شهر شعبان فأخبر السلطان ما حصل له من سليم الأول، وكذلك أخبره أن السلطان العثماني قد وقع في حق السلطان والمماليك بمصر وأنه قد أعد العدة وحوالي أربعمئة مركب لكي تهجم على مدينتي دمياط والإسكندرية، وأرسل الجيوش إلى البلاد الحلبية للاستيلاء عليها.

وحدث أن قام مشد الشون السلطانية ويدعى الأمير خشقدم بالهروب من مصر وتوجه إلى سليم الأول، وكان له أخ قد سبقه إلى العثمانيين، فأكرمه السلطان سليم وأنعم عليه بالإمارة، وأخذ خشقدم الخائن لولي نعمته يخبر سليم الأول بأسرار السلطان الأشرف والأمراء وأسرار جيش المماليك والدولة فحينها قوي طمع سلطان العثمانيين في دولة المماليك وأنه قادر عليهم وقادر على ضم دولة المماليك لدولته. ٦٨

خروج السلطان قنصوه الغوري إلى مرج دابق لمحاربة السلطان سليم الأول سنة (٩٢١هـ):

وقد اتخذ السلطان سليم الأول من رسالة قد وقعت في يده ادعى أنها قد أرسلت من السلطان الأشرف إلى الشاه اسماعيل الصفوي وفيها: «تعال أتفق معك، نسير إلى ولاية الروم، ونخرج السلطان سليم من هناك، وليكن لك ملك الروم وأنا لا أريد شيئاً» وأن الشاه اسماعيل الصفوي قد أرسل رسالة إلى السلطان قنصوه فيها: «كل من معك من السلاطين يأتي إلى حلب، ويعسكر هناك ونحن في ذلك الوقت نتقابل في قره حميد أو قره آمد وهي اسم ديار بكر الأصلي» فلما وصلت رسالة الشاه إلى السلطان بمصر خرج بعساكره ونصبوا خيامهم بالريدانية قرب القاهرة. ٦٩

٦٨ - المصدر السابق - الجزء الرابع - ص ٤٧٠ وص ٤٧١.

٦٩ - لطفي باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي محمد - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - الطبعة الأولى (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة - ص ٢٩٣ وص ٢٩٤.

فما كان من السلطان سليم الأول إلا أنه جهز الجيوش للخروج إلى مدينة حلب ومنها يتجه إلى مصر ويقضي على دولة المماليك، وأما السلطان الغوري فإنه جهز الجيش بأتم عدته وعتاده وأخذ معه جميع خزائنه وترك ابن أخيه الدودار الكبير الأمير طومان باي نائب عنه في سلطنة مصر، ولما وصل السلطان إلى مدينة غزة اشتكى له أهلها من جور وظلم نائبه على المدينة فكان هذا نذير شؤم على السلطان، ثم وصل السلطان إلى حلب ومعه الجيش والأموال.

هزيمة قائد الشاه إسماعيل وعدم وصول الجيش إلى ديار بكر:

وفي تلك الأثناء أرسل الشاه إسماعيل الصفوي أحد قواده يدعى قره خان، وكان قائد السلطان سليم الأول محمد بيقلو باشا قد تمكن من الاستيلاء على قلعة آمد وقلعة ماردين وديار بكر وقلع أخرى، ثم علم بقدم القائد الصفوي قره خان فتوجه إليه وتمكن من هزيمته بعد أن أعد له كمين قتل فيه جميع جنود الصفوي وقطع رأسه وأرسلها إلى السلطان سليم الأول، وقد وصلت هذه الأخبار إلى السلطان الغوري فعلم أن سليم الأول مقبل عليه بالحرب فتجهز له في مدينة حلب.

المراسلات بين السلطان سليم الأول والسلطان الغوري:

وقام السلطان سليم الأول بإرسال رسول إلى السلطان الغوري، فأرسل القاضي زيرك زاده وكان أعرجا فلما دخل مدينة حلب وقابل السلطان الغوري قال رسالة سليم الأول له وهي: اجلس في مصر، فأنت بمثابة

والدي، ولا تنسانا من صالح دعائك، وأنا سأذهب إلى الشاه إسماعيل. فلما سمع السلطان الغوري هذا الكلام أخبر الرسول بالتالي: لولا أنه مثل ولدي ما جيت من مصر إلى هنا بأهل العلم جميعا حتى نصلح بينه وبين شاه إسماعيل، ثم أجزل له العطاء وانصرف، ثم قام السلطان الغوري بتجهيز الأمير مغلباي دوا دار ومعه عشرة من العساكر الأقوياء في أحسن زي راكبين على أحسن الخيول وأرسلهم إلى السلطان سليم، فلما دخلوا عليه في خيمته ونظر إليهم امتلأ قلبه غيظا من هيتتهم فقال للأمير مغلباي: يا مغلباي أستاذك - يقصد الغوري- ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا؟ وإنما أرسلك بهذه العشرة يرعب بهم قلوب عسكري ويخوفهم برؤية أجناده، ولكن أنا أكيد بهمكيدة أعظم من مكيدته.

ثم أمر جلاده بضرب رقاب مغلباي والعساكر العشرة، ولكن الوزير يونس باشا قام وقبل الأرض بين يديه وقال له: الرسول لا يقتل، وليس له ذنب، فأجابه سليم الأول: لابد من ذلك، فقال له الوزير: فإن كان ولا بد فابق على كبيرهم مغلباي.

فأمر السلطان سليم الأول بحبسه، وأمر الجلاد بضرب رقاب البقية، وحبس مغلباي في قلعة زملطوا لمدة يومين ثم أحضره وحلق ذقنه وألبسه طرطور وأركبه على حمار أعوج القدمين معقور، وقال له: «قل لأستاذك يجهد جهده، وها أنا أحضر إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف» فوصل الأمير مغلباي إلى معسكر السلطان الغوري على تلك الحال فعلم أن السلطان سليم عازم على حربيه.

٧١ - المصدر السابق - ص ٣٠١.

- الرمال - ابن زنبيل - وقعة السلطان الغوري مع السلطان سليم - تقديم وتحقيق عبد العزيز جمال الدين - طبعة (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ص ٧٤ و ٧٥.

موقعة مرج دابق سنة (٩٢٢هـ):

والتقى الجيشان في مرج دابق - اسم قرية بالقرب من حلب - في يوم الأحد ٢٣ من رجب سنة ٩٢٢هـ وكانت الحرب في أولها نصر للماليك ولكن قام العثمانيون باستخدام المدافع والبنادق الرصاص فسقط المماليك وفر الجنود من ساحة المعركة، فلما رأى الغوري ما حل بجيشه انكسر قلبه من القهر فوقع من على صهوة جواده مغشيا عليه ومات من وقته، فلما رأى أمراء المماليك السلطان الغوري مرميا على الأرض قاموا بقطع رأسه ورموا بها في جب بمدينة حلب وبقي جسد الغوري بلا رأس ملقى بين الجثث لا يعرف من هو، فقد خافوا أن يقع رأس السلطان الغوري بين يدي سليم الأول فيطوف بها على البلاد. ٧٢



مكان معركة مرج دابق

السابع عشر: الأشرف طومان باي سلطان المماليك الأخير والسلطان سليم الأول:

وقد وصلت أنباء الهزيمة إلى القاهرة ووصلت فلول المماليك المهزومة إلى القاهرة في أقبح منظر وهيئة، وهنا اجتمع الأمراء المماليك المتبقين واتفقت كلمتهم على سلطنة الدوادار طومان باي ابن أخي السلطان الغوري، ولما تمت مراسم تولية طومان باي وصلت الأنباء بانضمام خاير بك نائب حلب إلى العثمانيين، وأن الأمير جان بردي الغزالي قد انهزم أمام العثمانيين عند غزة - وقد انضم سرا إلى العثمانيين - فاستعد السلطان طومان باي ومن بقي معه من الأمراء المماليك لمواجهة جيش سليم الأول.

موقعة الريدانية وهزيمة طومان باي سنة (٩٢٢هـ):

وقد حاول طومان باي أن يقوم بخدعة فقام بإخراج المدافع ودفنها في الرمال، وكان من ضمن هذه المدافع مدفع اسمه المجنونة وكان كبير الحجم جدا، ولكن خاير بك قام بإرسال جاسوس إلى معسكر طومان باي فعلم بأمر المدافع المردومة تحت الرمال والمدفع الضخم وأن القائم عليه رجل أحرص ! وقد التقى الجيشان ناحية الريدانية في آخر يوم من سنة ٩٢٢هـ، وقد أبلى طومان باي بلاء حسنا ولكن الخيانة كانت له بالمرصاد، وقد دخل طومان باي إلى قلب جيش السلطان سليم الأول وظن الوزير سنان باشا هو السلطان فقال له: أنت مني غير سالم. فجذبه من على سرجه بيده اليسرى ورفع به بأعلى رأسه وخطبه على الأرض فطبقت أضلاعه بين جنبيه، ثم قام الأمير علان بقطع رأسه، وفي تلك الأثناء كان جيش سليم الأول قد التف حول الجبل والخندق الذي فيه المدافع، وأما مدفع المجنونة فقد قام هذا الرجل الأحرص بضرب المدفع ضربة واحدة ثم ولى هاربا،

فلما عاد طومان باي من حملته تلك على جيش السلطان سليم الأول وجد أن جيشه قد انكسر وهزم وولى هارباً وتركه وحده، فهرب طومان باي من الريدانية مهزوماً. ٧٣

دخول سليم الأول مصر ودخوله القلعة مقر المماليك:

وبعد أن نصب خيمته مكان طومان باي بالريدانية، قام السلطان سليم بالاستراحة لمدة يوم واحد ثم أمر بالتوجه إلى القاهرة، ودخلت عساكر العثمانيين القاهرة فأفسدوا فيها نهبا وسلبا لمدة ثلاثة أيام كاملة ويقتلون من يجدونه من المماليك الشراكسة حتى نهاهم السلطان سليم عن ذلك، ثم دخلوا القلعة وكان بها بعض المماليك الشراكسة المدربين على الرمي بالسهم، فأخذوا يرمون الجنود العثمانيين من سطح القلعة ومن شرفاتها فأثخنوا فيهم بالجراح، وكانوا قبل ذلك قد أقفلوا أبواب القلعة وأحكموا اغلاقها. ٧٤

ولكن بعد ذلك قام هؤلاء المماليك الشراكسة بتسليم القلعة لعساكر السلطان سليم وأن ينزلوا منها بالأمان، فصعد السلطان إلى القلعة في موكب حافل وكان ذلك في المحرم من سنة ٩٢٣هـ، ثم نادى للناس بالأمان والاطمئنان، وأشيع بعد ذلك أن المماليك الذين طلّعوا بالأمان قيدوهم وأودعوهم في الوكالة التي تقع خلف مدرسة السلطان الغوري. ٧٥

٧٣ - لطفى باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - الطبعة الأولى (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة - ص ٣١٥.

٧٤ - لطفى باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - الطبعة الأولى (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة - ص ٣٢١.

٧٥ - الحنفى - محمد بن أحمد إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الخامس - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د. محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ص ١٦١.



دخول السلطان سليم الأول مصر

حرب السلطان الأشرف طومان باي للعثمانيين بالجيزة:

وقد حاول السلطان طومان باي أن يطرد العثمانيين من مصر بأي طريقة ممكنة، فجمع ما قدر عليه من المماليك الشراكسة والعربان، ثم عبر بهم إلى بر الجيزة، ولما وصلت أنباء تجهز طومان باي للحرب مرة أخرى قام السلطان سليم شاه بإرسال جيشه إلى الجيزة، وفي يوم الأحد ٦ من ربيع الأول عبر السلطان سليم شاه إلى مكان يدعى المناورات فأقام هناك إلى الخميس ١٠ من ربيع الأول، وتلاقى الفريقان في مكان يدعى وردان، وقيل في المناوبات، وقيل عند كوم الحمام، فكانت بينهما حرب لا تقل شراسة عن الريدانية وربما فاقتها لاستماتة المماليك في الحرب ضد العثمانيين، وقد تمكنت المماليك من كسر العثمانيين أكثر من مرة ورموا بأنفسهم في البحر، ولكن العثمانيين تمكنوا من السيطرة على قواتهم فأعدوا ترتيبهم واستخدموا البنادق الرصاص والمدافع فكانت الهزيمة من نصيب طومان باي بعد أن كان منتصرا، ففرت المماليك وفر طمان باي إلى بلدة تسمى البوطة في أعلى مدينة تروجة. ٧٦

خيانة شيخ العرب حسن بن مرعي لطومان باي:

وبعد هزيمة طومان باي الكرة في الهجوم على الجيش العثماني في محاولته يائسة تلك والتي هي أقرب إلى الانتحار منها من تحقيق النصر، فر هاربا وحيدا بعد أن تركه أمرائه ومماليكه إلى ناحية البحيرة عند صديقه القديم شيخ العرب حسن بن مرعي وكانت بينهما صدقة قديمة، فنزل في ضيافته وطلب الأشرف طومان باي مصحف وحلف عليه حسن مرعي وأخيه شكر بن مرعي على ألا يخوناه أو يسلماه للعثمانيين فحلفا على المصحف سبعة

أيمان بذلك فهدأ خاطر طومان باي واطمأن قلبه، ولكن عندما نام الأشرف من تعب السفر والحروب المتواصلة مع جيوش العثمانيين قام حسن بن مرعي وأخيه شكر بمراسلة السلطان سليم شاه يخبرانه بأنهما قد قبضا على طومان باي وهو عندهما الآن فتعالى واقبض عليه، فأرسل السلطان من فوره العساكر فقبضوا على السلطان المطارد ووضعوا القيود الحديد في يديه وأتوا به إلى القاهرة.

نهاية السلطان العظيم طومان باي سنة (٩٢٣هـ):

وكان السلطان سليم شاه منتظرا قدوم طومان باي على أحر من الجمر، فلما أتوا به إلى خيمة السلطان قام له سليم الأول احتراما وتقديرا وعتب عليه ببعض كلمات منها أنه لم يرد قتاله، وإنما أراد منه فقط أن يخطب باسمه على منابر مصر والقاهرة، وأن يضرب النقود باسمه ويتركه يحكم مصر كما يريد، ولكن ما نفع العتاب بعد وقوع المصائب، وقد أراد سليم الأول أن يبقى على حياة طومان باي لولا خاير بك، وجان بردي الغزالي فإنهما ما زالا يكلمان السلطان سليم ويحذرانه من غدره له حتى عزم على شنقه.

وفي يوم الإثنين ٢٢ من ربيع الأول ذهبوا بالأشرف طومان باي من بولاق حيث كان محتجزا في خيمة ظل بها قرابة سبعة عشر يوما وبعد أن أشيع أن سليم الأول سوف يرحله إلى مكة يبقى هناك إلى الأبد، فوجد الناس طومان باي راكبا على إكديش - حصان غير أصيل - وهو في الحديد فشقوا به الطريق وحوله أربعمئة عثماني ورماة النفط حتى يمنعونه من الهرب أو وصول الناس إليه، فكان بطول الطريق يسلم على الناس ويسلمون عليه حتى وصل إلى محطته الأخيرة في الدنيا وهي باب زويلة، فأنزله الجنود العثمانيون من على الفرس وأرخوا له قيوده ورأى المشاعلي -

الموكل بالإعدام - أيقن أنه مقتول فقال للناس المتجمعين في موقف مؤثر جدا ومبكي: اقرأوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات، ثم بسط يديه وقرأ هو أيضا سورة الفاتحة ثلاث مرات والناس تردد معه، ثم التفت إلى المشاعلي فقال له: اعمل شغلك، فوضع الخية - المشنقة - في رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة، وقد تكرر هذا الأمر معه طومان باي مرتين ينقطع الحبل ويقع على الأرض، وكأن الحبل هو الآخر لا يريد أن يعدم هذا الرجل العظيم الشجاع، فقام المشاعلي بشنقه هذه المرة وهو مكشوف الرأس، فلما خرجت روح طومان باي صرخ الناس الحاضرين عليه صرخة عظيمة وحزنوا عليه حزنا شديدا، وكثر الأسف والبكاء عليه، وكان سنه حين شنق أربع وأربعين سنة، وكان حسن الوجه رحيمًا محبا للعدل رفيقا بالرعية، وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما، ولولا خيانة خابر بك وجان بردي له لما تمكن سليم الأول من دخول مصر ولكن لله في ذلك حكمة، وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة وينتهي معها حكم القاهرة كعاصمة للعالم الإسلامي وقبله الأمراء والملوك والسلطين لنيل شرف اعتراف المماليك لهم في حكمهم على بلادهم، وتبدأ حقبة مصر كولاية تابعة بعد أن كانت متبوعة. ٧٧



إعدام طومان باي وتعليقه على باب زويلة

السيف والدرع في مواجهة البندقية والمدفع:

بقيت نقطة أخيرة في هذا الفصل لابد من كتابتها، ألا وهي التفوق العسكري للعثمانيين فعلى الرغم من قوة المماليك وفروسياتهم المشهود لهم من الجميع، إلا أن العثمانيين كانوا أكثر مواكبة للعصر في استخدام الأسلحة المتطورة، فعندما كان المماليك لا يعترفون إلا بفنون القتال القديمة وهي الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالقوس والنشاب، ومعرفتهم بأهمية البارود الحربية كانت ضعيفة جدا، فلم يكن يستخدمون المدافع إلا في غرض واحد وهو الحصار وضرب الأسوار مثلها مثل المجانيق، ولم يكن للبنادق لديهم أهمية كبيرة بل يرونها من معايب الفروسية.

أما العثمانيين فقد كان للبارود لديهم أهمية كبيرة، فقد أولوا لصناعة المدافع بكافة أنواعها أهمية عظمى، ومن خلال المدفع الضخم الذي استخدمه السلطان محمد الثاني الفاتح في ضرب أسوار القسطنطينية، فتمكن من خلاله من أحداث الثقب الذي دخلت منه جيوشه الكبيرة، وقام من بعده جميع السلاطين العثمانيين ببناء المسابك لصنع المدافع الصغيرة والمتوسطة وال ضخمة والتي وضعوها على متن السفن الحربية، بل كانت هناك مدافع صغيرة تحملها الجمال على ظهورها، وأما عن حملة البنادق فحدث عن أعدادهم الكبيرة في الجيش العثماني ولا حرج.

ولهذا عندما تعلم أن جيش المماليك في أيام السلطان قنصوه الغوري عندما خرج للقاء جيوش سليم الأول لم يكن في جيشه سوى سبعين مدفعا فقط !! كلهم صغار عدا أربعة كبار فقط، وأن حملة البنادق الرصاص في جيشه لم يتجاوز عددهم المئات، في مقابل مئات المدافع في جيش سليم الأول بمختلف أحجامها، وأن حملة البنادق الرصاص في جيش العثمانيين كانوا حوالى إثنا عشر ألف حامل بندقية !! وهو رقم مهول في ذلك الزمان، لا نستغرب أن يهزم المماليك أمام العثمانيين بكل سهولة، ولو انتصر المماليك

لكان ذلك من عجائب الدهر ونوادره.

فكان لابد أن تنتهي دولة الفروسية القديمة وتحل محلها دولة البارود والأسلحة النارية الحديثة، لتبدأ حلقة جديدة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب في بسط النفوذ على طرق تجارة في البحار، وتحل الأساطيل البحرية محل الجيوش البرية، ويبدأ سباق التسلح وتطوير الأسلحة النارية ليصبح البقاء لمن يملك السلاح الأكثر تطوراً، وينتهي زمن الفروسية النبيلة ويبدأ زمن السلاح الناري الجديد، والذي ما نزال نعيش فيه إلى الآن.

@booka

@booka.

الخاتمة

وهكذا نرى بعد أن أتينا على سيرة كل سلاطين المماليك باختصار وذكر ما قاموا به من حروب وفتوحات كبيرة وعظيمة، وتمكنوا من مد نفوذهم حتى الأناضول شمالا، وإلى النوبة جنوبا، وفتحهم لبعض جزر البحر المتوسط، وضمهم لإقليم برقة غربا، وعلى الرغم من فتوحاتهم العظيمة، نجد أن المماليك منذ أن تولوا الحكم حملوا معهم بذرة سقوطهم والتي أخذت تنبت وتكبر معهم مع مرور الزمن، والتي تمثلت في التنافس على السلطان والعرش، والولاء لإخوة السلاح ولإستاذهم فقط وليس الولاء لوطنهم وسلطانهم، فظلوا في تنافس وصراع حتى أتى العثمانيون وتمكنوا من قطع شجرتهم من الحكم، ويمكننا أن نجمل الأسباب التي أدت إلى سقوطهم على النحو التالي:

- ١- الصراع الداخلي بين الأمراء المماليك على حكم السلطنة، وهذا أدى إلى حدوث فوضى سياسية في أواخر حكمهم مما طمع فيهم الممالك التي حولهم.
- ٢- انتشار الفساد والرشوة في الدولة، مما أدى إلى انتشار الفوضى والإضطراب في أجهزة الدولة، وانتشار المحسوبية وتولي من لا يصلح لوظائف الدولة الكبرى، مما أدى إلى انتشار الفساد في أركان السلطنة كلها.
- ٣- تسلط المماليك على الرعية بالقتل ومصادرة الأموال والسجن، مما جعل الناس يكرهون حكم المماليك ويتمنون التخلص منهم.
- ٤- عدم تطوير المماليك للجيش والأسلحة والأسطول، فقد ظل المماليك متمسكين بطرق القتال القديمة المتعارف عليها في العصور الوسطى وهي الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي القوس والنشاب، فلم يفكروا باستخدام البنادق والمدافع والبارود مثل العثمانيين، متمسكين بقاعدة

فقهية وهي «لا يعذب بالنار إلا رب النار» لهذا لما تلاقوا مع جيوش العثمانيين التي كان اعتمادهم الأكبر على البنادق الرصاص والمدافع كانت هزيمتهم ساحقة وسريعة.

ولكن العثمانيون لم يقضوا تماما على المماليك فقد تركوا لهم حكم مصر والشام كولاة لهم يحكمون تحت اسمهم مستفيدين من خبرتهم في حكم البلاد فهم أعرف بطرق حكمها منهم، ولم يتم القضاء عليهم نهائيا في مصر إلا على يد الخديو محمد على والذي أتى إلى مصر مع الحملة العثمانية لطرد الفرنسيين منها، ولكنه تمكن بفضل دهائه وذكائه من الوصول الى كرسي مصر وحكمها، و لما علم بنية المماليك وتخطيطهم للتخلص منه عجل هو بالفتك بهم جميعا في المذبحة المعروفة بمذبحة القلعة، فأنهى بذلك أسطورة المماليك في مصر والى الأبد.

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ

قائمة المراجع

- ١- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٤٤هـ - ٣١٠هـ) - تاريخ الأمم والملوك - المجلد الثالث من سنة ٣٦هـ لغاية ٩٠هـ - الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٩٨م) - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٤٤هـ - ٣١٠هـ) - تاريخ الأمم والملوك - المجلد الرابع من سنة ٩١هـ لغاية ١٩١هـ - الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٩٨م) - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٣- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تاريخ الخلفاء - الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ/٢٠٠٠م) - مكتبة مصر سعيد جودة السحار وشركاه - القاهرة .
- ٤- يوليوس فلهوزن - تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية - مراجعة د. حسين مؤنس - تقديم مصطفى لبيب عبد الغني - الطبعة الثانية (٢٠٠٩م) - المركز القومي للترجمة - القاهرة .
- ٥- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣هـ - ٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء الثاني - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .
- ٦- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣هـ - ٨٧٤هـ) - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .
- ٧- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣هـ - ٨٧٤هـ) - الجزء السابع - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .
- ٨- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣هـ - ٨٧٤هـ) - الجزء الثامن - الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٩- محمد بن علي بن طباطبا - الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية - دار صادر - بيروت .

١٠- علي باشا مبارك - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة - الجزء الثاني - طبعة جديدة عن طبعة بولاق (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

١١- الدكتور حمدي عبد المنعم حسين - محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية.

١٢- إدوارد فون زامباور - معجم الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي - أخرجه الدكتور زكي محمد حسين بك , وحسن مسعود - قدم له عارف أحمد عب الغني - طبعة (٢٠١٤م) - دار نور حوران , ودار العرب للدراسات والنشر والتوزيع والترجمة - دمشق - سوريا .

١٣- الدكتور أحمد مختار العبادي - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - طبعة (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) - دار النهضة العربية للنشر - بيروت .

١٤- أبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي - سيرة أحمد بن طولون - حققها وعلق عليها محمد علي كرد - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة .

١٥- عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم - الكامل في التاريخ من سنة ٢١٨هـ إلى سنة ٣٠٨هـ - المجلد السادس - راجعه وصححه الدكتور محمد يوسف الدقاق - الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) - دارالكتب العلمية - بيروت - لبنان .

١٦- فريق البحوث والدراسات الإسلامية - الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي - المجلد الأول - طبعة (٢٠٠٠م) - مكتبة علاء الدين - الإسكندرية.

١٧- أميرة الشيخ رضا فرحات - الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر - الطبعة الأولى (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) - دار كتابات - ناشرون - لبنان .

١٨- أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني ابن الطوير (٥٢٤هـ - ٦١٧هـ) - أعاد بناءه وحققه وقدم له الدكتور أيمن فؤاد السيد - طبعة جديدة ومنقحة (١٤٣٠هـ/٢٠١٠م) - المعهد الألماني للأبحاث الشرقية - بيروت.

١٩- صلاح الدين محمد بن شاکر الکتبی - عیون التواریخ - عصر سلاطین المماليك - الجزء الأول حوادث وتراجم (٦٤٨هـ - ٦٧٠هـ) - تحقيق أحمد عبد الستار - مراجعة أ.د. أيمن فؤاد السيد - الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٠- صلاح الدين محمد بن شاکر الکتبی - عیون التواریخ - عصر سلاطین المماليك - الجزء الثاني حوادث وتراجم (٦٧١هـ - ٦٨٧هـ) - تحقيق أحمد عبد الستار , وآية محمد كامل - مراجعة أ.د. أيمن فؤاد السيد - الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢١- صلاح الدين محمد بن شاکر الکتبی - عیون التواریخ - عصر سلاطین المماليك - الجزء الثالث حوادث وتراجم (٦٨٨هـ - ٧١٠هـ) - تحقيق أحمد عبد الستار , وزینب علی البنداری - مراجعة أ.د. أيمن فؤاد السيد - الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٢- تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه وقدم له د. محمد مصطفى زیادة - الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٣- تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثاني - القسم الأول - صححه ووضع حواشيه وقدم له د. محمد مصطفى زیادة - الطبعة الثالثة (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٤- تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثاني - القسم الثاني - صححه ووضع حواشيه وقدم له د. محمد مصطفى زیادة - الطبعة الثالثة

(١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٥- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثاني - القسم الثالث - صححه ووضح حواشيه وقدم له د. محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٦- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الأول - حققه وقدم له ووضح حواشيه د. سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٧- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الثالث - القسم الثالث - حققه وقدم له ووضح حواشيه د. سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٨- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الأول - حققه وقدم له ووضح حواشيه د. سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٢٩- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الثاني - حققه وقدم له ووضح حواشيه د. سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٣٠- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الرابع - القسم الثالث - حققه وقدم له ووضح حواشيه د. سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٣١- محمد بن عبد الرحمن السخاوي - كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك - تحقيق أنجوى مصطفى كامل ، ود. لبيبة إبراهيم مصطفى - مراجعة أ. د. أيمن فؤاد السيد - الجزء الأول - طبعة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٣٢- محمد بن عبد الرحمن السخاوي - كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك - تحقيق

أ.نجوى مصطفى كامل , ود.لبية إبراهيم مصطفى - مراجعة أ.د.أيمن فؤاد السيد - الجزء الثاني - طبعة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٣٣- محمد بن عبد الرحمن السخاوي - كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك - تحقيق أ.نجوى مصطفى كامل , ود.لبية إبراهيم مصطفى - مراجعة أ.د.أيمن فؤاد السيد - الجزء الثالث - طبعة (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة .

٣٤- محمد بن إياس الحنفي - كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثاني - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د.محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة .

٣٥- محمد بن إياس الحنفي - كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الثالث - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د.محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة .

٣٦- محمد بن إياس الحنفي - كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الرابع - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د.محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة .

٣٧- محمد بن إياس الحنفي - كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الخامس - حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د.محمد مصطفى زيادة - الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة .

٣٨- محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي - المجلد الأول - القسم الأول من الجزء الأول - الطبعة الثانية (١٣٨١هـ/١٩٦٢م) - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمايز - القاهرة .

٣٩- محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي - المجلد الثاني - القسم الثاني من الجزء الأول - الطبعة الثانية (١٣٨٤هـ/١٩٦٥م) - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمايز - القاهرة .

٤٠- لطفي باشا - تواريخ آل عثمان - ترجمة محمد عبد العاطي محمد - تقديم الدكتور سيد محمد السيد - الطبعة الأولى (١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) - دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة .

٤١- محمود شاكر - الخلفاء العثمانيون (٩٢٣هـ - ١٣٤٢هـ) - الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) - المكتب الإسلامي - بيروت .

٤٢- ابن زبل الرمال - وقعة السلطان الغوري مع السلطان سليم - تقديم وتحقيق عبد العزيز جمال الدين - طبعة (١٤٣٦هـ/٢٠١٤م) - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة

٤٣- د.سعيد عبد الفتاح عاشور - قبرس والحروب الصليبية - الطبعة الثانية (٢٠٠٢م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة .

٤٤- الدكتور السيد الباز العريني - الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) - دار النهضة العربية للطباعة والنشر .

٤٥- الدكتور علي محمد الصلاحي - الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة - الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م) - مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة .

٤٦- بدر الدين العيني - عقدالجمان في تاريخ أهل الزمان - تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي القرموط - الزهراء للأعلام العربي - القاهرة .

٤٧- الدكتورة سعاد ماهر - محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامي - طبعة (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) - لجنة الخبراء يصدرها : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة .

٤٨- الدكتور محمد رضوان الداية - آخر أيام غرناطة نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر - تأليف مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة (٩٠٠هـ/١٠٠٠هـ) - الطبعة الثانية (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) - دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان .

٤٩- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي - الضوء اللامع لأهل القرن

التاسع - ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن - طبعة (٢٠٠٣م)
- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٥٠- تقي الدين أحمد بم علي المقرئزي - درر العقود الفريدة في تراجم
الأعيان المفيدة - تحقيق محمد عثمان - طبعة (٢٠٠٩م) - دار الكتب العلمية
- بيروت - لبنان .

٥١- علي بن داود الجوهري الصيرفي (ت ٩٠٠هـ) - إنباء الهصر بأنباء العصر
- تحقيق وتقديم د.حسن حبشي - طبعة (٢٠٠٢م) - الهيئة المصرية العامة
للكتاب - القاهرة.

@booka

@booka.



فهرس المحتويات

المقدمة

الفصل الأول: المماليك «المولد والنشأة»

الخلافة الأموية في دمشق (٤٠هـ - ١٣٢هـ)

أولاً: عبيد الله بن زياد (٥٤هـ - ٦٤هـ):

ثانياً: نصر بن سيار الكناني (١٢٠هـ - ١٣٠هـ):

الخلافة العباسية - العصر الأول - عصر الولاة الأتراك:

أولاً: الخليفة المهدي أبو عبدالله محمد بن المنصور أبو

جعفر (١٥٨-١٦٩هـ)

ثانياً: الخليفة المأمون أبو العباس عبد الله بن الرشيد (١٩٨هـ -

٢١٨هـ):

كيدر واسمه نصر بن عبد الله (٢١٧هـ - ٢١٩هـ):

ثالثاً: الخليفة المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن هارون

الرشيد (٢١٨هـ - ٢٢٧هـ):

بناء مدينة سامراء - سر من رأى - سنة (٢٢١هـ):

المظفر بن كيدر بن نصر بن عبد الله (٢١٩هـ):

الخليفة أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم (٢٠٥هـ -

٢٤٧هـ):

إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم الختلي (٢٣٥هـ - ٢٣٦هـ):

يزيد بن عبد الله بن دينار أبو خالد التركي (٢٤٢هـ - ٢٥٢هـ):

رابعاً: الخليفة المعتز بالله محمد وقيل الزبير بن المتوكل على

الله (٢٥٢هـ - ٢٥٥هـ):



٢٥

٢٦

٢٦

٢٨

٢٩

٣٠

٣١

٣١

٣٣

٣٣

٣٤

٣٥

٣٦

٣٧

٣٨

٣٨

٣٩

٤٠

٤٠

٤٠

٤٣

٤٤

٤٦

٤٦

٤٦

مزاحم بن خاقان بن عرطوج أبو الفوارس التركي (٢٥٣ هـ - ٢٥٤ هـ):

أحمد بن مزاحم بن خاقان (٢٥٤ هـ):

أرخوز بن أولوغ طرخان التركي (٢٥٤ هـ):

أحمد بن طولون - أول حاكم تركي لمصر (٢٥٤ هـ - ٢٩٢ هـ):

أصل الأمير أحمد بن طولون (٢١٤ هـ أو ٢٢٠ هـ - ٢٧٠ هـ):

سبب تولية ابن طولون لمصر سنة (٢٥٤ هـ):

مآثر ابن طولون المعمارية في مصر:

١- بناء مدينة القطائع (٢٥٦ هـ):

٢- بناء قصر ابن طولون سنة (٢٥٦ هـ):

٣- بناء جامع ابن طولون سنة (٢٥٩ هـ أو ٢٦٣ هـ):

قط يفعل ما عجز المهندسون عن تصميمه:

كنز ابن طولون:

رؤيا لابن طولون عن جامعته:

٤- بناء البيمارستان الطولوني سنة (٢٥٩ هـ أو ٢٦١ هـ):

٥- ترميم وتعمير حصن جزيرة الروضة سنة (٢٦٣ هـ):

٦- مسجد التنور:

رؤية أخرى تكون سببا لتوبة ابن طولون عن ظلمه:

استقلال أحمد بن طولون بمصر عن الخلافة العباسية

سنة (٢٦٦ هـ):

محاولة ابن طولون نقل مقر الخلافة من سامراء إلى مصر

سنة (٢٦٩ هـ):

ابن طولون يجمع الفقهاء والقضاة لخلق الموفق من ولاية

العهد:

وفاة الأمير أحمد بن طولون سنة (٢٧٠ هـ):

ثانيا: خمارويه بن أحمد بن طولون سنة (٢٧٠ هـ - ٢٨٢ هـ):

الأمير الذي ذبحه مكر جواريه:

١- أول أوامر الأمير الجديد قتل أخيه:



٤٧

٢- الحرب بين خمارويه والموفق أبي أحمد طلحة سنة (٢٧١هـ)

٣- الصلح بين خمارويه والموفق أبي أحمد طلحة أخو الخليفة

٤٨

سنة (٢٧٣هـ)

٤٩

٤- الآثار المعمارية التي قام بها السلطان خمارويه:

٤٩

أولا: الزيادات التي أحدثها في القصر الطولوني:

٥٠

فسقية الزئبق:

٥٠

دار السباع:

٥١

دار الحرم:

٥١

ثانيا: حديقة حيوان وإصطبلات للخيل:

٥١

ثالثا: بستان خمارويه العجيب:

٥٢

برج الطيور النادرة:

٥٢

دار الذهب:

٥٣

٥- مصاهرة بين الخليفة وخمارويه أم إفلاس خزانة الطولونيين

٥٤

سنة (٢٨١هـ):

٥٥

٦- اغتيال خمارويه سنة (٢٨٢هـ):

٥٥

ثالثا: أبي العساكر جيش بن خمارويه (٢٨٢هـ - ٢٨٣هـ):

٥٦

الأمير الذي قتل أعمامه:

٥٦

رابعا: هارون بن خمارويه سنة (٢٨٣هـ - ٢٩٢هـ)

٥٧

نهاية الدولة الطولونية:

٥٧

١- هزائمه أمام القرامطة سنة (٢٨٩هـ و ٢٩٠هـ):

٥٧

٢- اغتيال هارون بن خمارويه سنة (٢٩٢هـ):

خامسا: شيان بن أحمد بن طولون ومقاومته للتدخل العباسي

٥٨

سنة (٢٩٢هـ):

٥٩

٤- تخريب مدينة القطائع واعفاء آثارها من الوجود نهائيا:

٥٩

٥- الجيش في عهد الدولة الطولونية:

٦٠

٦- حدود الدولة الطولونية:

٦٢

محمد بن طغج مؤسس الدولة التركية الثانية بمصر (٣٢٣هـ - ٣٥٨هـ)

٦٢

١- أصل محمد بن طغج الإخشيد و ولايته الأولى سنة (٣٢١هـ):



٦٣

٢- ولاية محمد بن طغج على مصر الثانية سنة (٣٢٣هـ - ٣٣٤هـ):

٦٣

أولا: صد الإخشيد محمد بن طغج جيش الفاطميين من المغرب سنة (٣٢٣هـ):

٦٤

ثانيا: محاولته استدعاء الخليفة المتقي بالله إلى مصر وجعلها مقر للخلافة سنة (٣٣٢هـ):

٦٥

ثالثا: استقلال محمد بن طغج بمصر والشام سنة (٣٣٤هـ):

٦٥

رابعا: وفاة الإخشيد محمد بن طغج سنة (٣٣٤هـ):

٦٥

الخادم والحاكم لدولة أبناء الإخشيد في مصر :

٦٥

أصل كافور الإخشيد:

ثانيا: ولاية أبو القاسم أنوجور بن محمد بن طغج سنة (٣٣٥هـ

٦٦

- ٣٤٩هـ):

ثالثا: ولاية أبو الحسن على بن محمد الإخشيد سنة (٣٤٩هـ -

٦٦

٣٥٥هـ):

٦٧

رابعا: ولاية أبو المسك كافور الإخشيدي سنة (٣٥٥هـ - ٣٥٧هـ):

٦٨

خامسا: ولاية أحمد بن علي بن الإخشيد على مصر سنة (٣٥٧هـ):

٦٨

سادسا: الجيش في عهد الدولة الإخشيدية:

٦٩

سابعا: اتساع حدود الدولة الإخشيدية:

٧٠

الأترار في عهد الدولة الفاطمية بمصر (٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ):

٧٠

صبيان الحجرية في الدولة الفاطمية:

٧٠

أولا: الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة (٣١٩هـ - ٣٦٥هـ):

ثانيا: الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الدين الجمالي سنة (٤٥٨هـ

٧١

- ٥١٥هـ):

٧١

ثالثا: الجيش في عهد الدولة الفاطمية بمصر :

٧٣

الدولة الأيوبية وابتكار نظام المماليك (٥٦٤هـ - ٦٤٨هـ):

٧٣

أولا: السلطان الناصر صلاح الدين سنة (٥٦٤هـ - ٥٨٩هـ):

ثانيا: السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٣٨هـ -

٧٥

٦٤٧هـ):

ثالثا: السلطان الملك المعظم توران شاه وقتله على يد ممالك

٧٦

أبيه (٦٤٧هـ - ٦٤٨هـ):



٧٨

دولة المماليك تنقسم إلى عهدين هما:

٧٨

أولاً: حكم دولة المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ):

٧٩

ثانياً: حكم دولة المماليك الشراكسة أو دولة المماليك الثانية (٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ):

٨١

الفصل الثاني: دولة المماليك الأولى_المماليك البحري (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ):

٨٣

١- السلطان المعز أيك (٦٤٨ - ٦٥٥هـ):

٨٣

أولاً: الخطر الأيوبي الملك الناصر يوسف وموقعة العباسية:

٨٧

ثانياً: ثورة العربان ضد حكم المماليك سنة (٦٥١هـ / ١٢٥٣م):

٩٠

ثالثاً: التخلص من الأمير فارس الدين أقطاي سنة (٦٥٢هـ / ١٢٥٤م):

٩٢

قتل السلطان المعز على يد زوجته شجر الدر سنة (٦٥٥هـ)

٩٢

مقتل السلطانة شجر الدر سنة (٦٥٥هـ)

٩٣

٢- السلطان نور الدين المنصور (٦٥٥هـ - ٦٥٧هـ):

٩٤

٣- السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧هـ - ٦٥٨هـ):

رد الخطر المغولي على بلاد الإسلام ومنعهم من غزو مصر سنة

٩٤

(٦٥٨هـ / ١٢٦٠م):

٩٩

في أرض المعركة

١٠٣

إغتيال السلطان المظفر قطز سنة (٦٥٨هـ):

١٠٥

(٦٧٦هـ):

١٠٦

أولاً: القضاء على ثورة الكوراني الشيعي بالقاهرة:

١٠٦

ثانياً: إحيائه للخلافة العباسية بالقاهرة:

١٠٨

هزيمة التتار عند مدينة حمص وحلب سنة (٦٥٩هـ):

١٠٩

رابعاً: المحالفات التي عقدها السلطان الظاهر لتقوية دعائم سلطنته:



١٠٩

أولاً: المحالفات مع الدول الأوروبية:

١٠٩

١- الحلف مع امبراطور الدولة الغربية منفرد بن فردريك الثاني سنة (٦٥٩هـ):

١٠٩

٢- الحلف مع ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالعلم سنة (٦٥٩هـ):

١٠٩

٣- الحلف مع امبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن باليولوج سنة (٦٦٠هـ):

١١٠

ثانياً: المحالفات مع الدول الإسلامية المجاورة:

١١٠

١- الحلف مع قان القبيلة الذهبية بركة خان سنة (٦٥٩هـ):

١١٠

٢- الحلف مع سلطان السلاجقة عز الدين كيكاوس بن خسرو سنة (٦٦٠هـ):

١١١

خامساً: تطوير السلطان الحصون والقلاع والأسطول والجيش:

١١١

أولاً: تحصين وحماية حدود البلاد الإسلامية:

١١١

١- عمارة القلاع والأبراج التي خربها التتار:

١١١

٢- إقامة المنائر على حدود الدولة:

١١٢

٣- استخدام سياسة الأرض المحروقة وردم مياه النيل:

١١٢

ثانياً: تطوير نظام البريد في الدولة:

١١٣

ثالثاً: تطوير الأسطول والجيش:

١١٤

سادساً: جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين:

١١٤

١- الاستيلاء على عدة حصون من الفرنج سنة (٦٦٤هـ):

١١٤

٢- فتح مدينة صفد سنة (٦٦٤هـ):

١١٥

٣- فتح هونين وتبنين والرملة سنة (٦٦٤هـ):

١١٥

٤- الحرب مع مملكة أرمينية المسيحية وفتح بلاد سيس سنة (٦٦٤هـ):

١١٦

٥- فتح قارة سنة (٦٦٤هـ):

١١٦

٦- فتح مدينة يافا سنة (٦٦٦هـ):

١١٦

٧- فتح حصن الشقيف سنة (٦٦٦هـ):

١١٧

٨- الغارة على طرابلس سنة (٦٦٦هـ):

١١٨

٩- فتح مدينة أنطاكية وما حولها من المدن والحصون سنة (٦٦٦هـ):



١١٩

١٠- تسلم عدة حصون في سنة (٦٦٦هـ):

١١٩

١١- موقعة مرج عين البرغوث سنة (٦٦٨هـ):

١٢٠

١٢- غارة السلطان الظاهر على حصن الأكراد سنة (٦٦٨هـ):

١٢١

١٣- تسلم السلطان لبلاد مصياف وما حولها سنة (٦٦٨هـ):

١٢١

١٤- الغارة على طرابلس والاستيلاء على حصن صافيتا سنة (٦٦٩هـ):

١٢١

١٥- استيلاء السلطان على حصن الأكراد سنة (٦٦٩هـ):

١٢٢

١٦- محاولة السلطان الظاهر بيبرس فتح جزيرة قبرص سنة (٦٦٩هـ):

١٢٣

١٧- الاستيلاء على حصن عكار سنة (٦٦٩هـ):

١٢٣

١٨- الاستيلاء على حصن العليقة من طائفة الإسماعيلية سنة (٦٦٩هـ):

١٢٤

١٩- هزيمة التحالف التتاري الصليبي سنة (٦٧٠هـ):

١٢٥

٢٠- وقعة ألبيرة مع التتار سنة (٦٧١هـ):

١٢٥

٢١- ضم إقليم برقة إلى سلطنة المماليك في سنة (٦٧١هـ):

١٢٦

٢٢- فتح قلعة كينوك سنة (٦٧١هـ):

١٢٦

٢٣- الغارة على المصيصة من بلاد سيبس وما حولها من بلاد سنة (٦٧٣هـ):

١٢٧

٢٤- حصول السلطان على حصن القصير سنة (٦٧٤هـ):

١٢٧

٢٥- فتوح السلطان الظاهر بيبرس في بلاد النوبة والسودان سنة (٦٧٤هـ):

١٢٨

هزيمة التتار وردهم إلى الفرات سنة (٦٧٥هـ):

١٢٩

٢٧- معركة أبلستين ضد تحالف روم الأناضول والتتار سنة (٦٧٥هـ):

١٣٠

وفاة السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٧٦هـ):

١٣٣

٥- السلطان الملك السعيد بركة خان (٦٧٦هـ - ٦٧٨هـ):

١٣٣

٦- السلطان الملك العادل سلامش ابن السلطان بيبرس (٦٧٨هـ):

١٣٣

٧- السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي الألفي (٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ):

١٣٤

جهاد السلطان المنصور قلاوون:



١٣٤

أولا: وقعة حمص مع التتار سنة (٦٨٠هـ):

١٣٥

ثانيا: استيلاء السلطان على حصن المرقب من الفرنج سنة (٦٨٤هـ):

١٣٦

ثالثا: فتح السلطان لطرابلس سنة (٦٨٨هـ):

١٣٦

٨- السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٨٩هـ - ٦٩٣هـ):

١٣٧

جهاد السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الناصر قلاوون:

١٣٧

أولا: فتح عكا العظيم وإنهاء الوجود الصليبي نهائيا من بلاد الشام سنة (٦٩٠هـ):

١٣٨

ثانيا: تحرير بقية الساحل من الفرنج في سنة (٦٩٠هـ):

١٣٨

ثالثا: فتح قلعة الروم سنة (٦٩١هـ):

١٣٩

رابعا: تسلم السلطان عدة قلاع من ملك بلاد سويس سنة (٦٩٢هـ):

١٤٠

٩- السلطان الملك ناصر الدين محمد بن الملك المنصور قلاوون (٦٩٣هـ - ٦٩٤هـ):

١٤٠

١٠- السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري (٦٩٤هـ - ٦٩٦هـ):

١٤٠

١١- السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦هـ - ٦٩٨هـ):

١٤١

جهاد السلطان حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري:

١٤١

أخذ عدة قلاع من صاحب بلاد سويس - قلقيلية - سنة (٦٩٧هـ):

١٤١

١٢- السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وهي سلطنته الثانية (٦٩٨هـ - ٧٠٨هـ):

١٤٢

جهاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

١٤٢

أولا: هزيمة وادي الخازندار أو سلمية في سنة (٦٩٩هـ):

١٤٤

ثانيا: فتح جزيرة أرواد سنة (٧٠٢هـ):

١٤٤

ثالثا: كسر التتار في موقعة مرج الصفر أو شقحب سنة (٧٠٣هـ):

١٤٥

رابعا: فتح جبل كسروان سنة (٧٠٥هـ):

١٤٦

١٣- السلطان المظفر ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الجاشنكير (٧٠٨هـ - ٧٠٩هـ):

١٤٦

١٤- الناصر محمد بن قلاوون وهي سلطنته الثالثة (٧٠٩هـ - ٧٤١هـ):



١٤٦

١٤٧

١٤٧

١٤٨

١٤٩

١٥٠

١٥١

١٥١

١٥٢

١٥٢

١٥٣

١٥٣

١٥٤

١٥٤

١٥٥

١٥٥

إكمال حركة الجهاد في عهده مرة أخرى:

أولاً: فتح مدينة ملطية في سنة (٧١٥هـ):

ثانياً: محاولة التتار الاستيلاء على بلاد الحجاز سنة (٧١٥هـ):

ثالثاً: الغارة على بلاد سويس وتسلم عدة قلاع من ملك الأرمن سنة (٧٣٨هـ):

رابعاً: تسلم قلعة طرندة سنة (٧٤٠هـ):

١٥- السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد الناصر بن قلاوون (٧٤١هـ - ٧٤٢هـ):

١٦- السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الملك الناصر محمد (٧٤٢هـ - ٧٤٦هـ):

١٧- السلطان الناصر أحمد شهاب الدين بن الناصر محمد (٧٤٢هـ - ٧٤٥هـ):

١٨- السلطان الصالح إسماعيل عماد الدين أبو الفدا بن محمد الناصر (٧٤٣هـ - ٧٤٦هـ):

١٩- السلطان الكامل زين الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦هـ - ٧٤٧هـ):

٢٠- السلطان المظفر حاجي بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٤٧هـ - ٧٤٨هـ):

محاولة ملك سويس - مملكة الأرمن - إستعادة مدينة أياس سنة (٧٤٨هـ):

٢١- السلطان ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٤٨هـ - ٧٥٢هـ):

غارة الأكراد على حدود سلطنة المماليك من جهة بلاد الشام سنة (٧٥١هـ):

٢٢- السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٥٢هـ - ٧٥٥هـ):

٢٣- سلطنة الناصر حسن بن الناصر سلطنته الثانية (٧٥٥هـ - ٧٦٢هـ):



١٥٦

حركة الجهاد في عهد السلطان ناصر الدين حسن:

فتح عدة مدن في بلاد سويس سنة (٧٦١هـ):

١٥٧

٢٤- سلطنة السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي بن محمد

الناصر (٧٦٢هـ - ٧٦٤هـ):

١٥٧

٢٥- سلطنة الملك الأشرف بن حسين بن الناصر محمد بن

قلاوون (٧٦٤هـ - ٧٧٨هـ):

١٥٧

حركة الجهاد في عهد السلطان الأشرف:

أولا: نكبة أهل الإسكندرية على يد ملك قبرص بطرس الأول

١٥٧

لوزجنان سنة (٧٦٧هـ):

١٦٠

ثانيا: غارة ملك قبرص على طرابلس سنة (٧٦٩هـ):

ثالثا: غارة الرئيس محمد التازي المغربي على سفن الفرنجة

١٦١

سنة (٧٦٩هـ):

١٦٢

رابعا: فتح مدينة سويس سنة (٧٧٠هـ):

١٦٢

خامسا: غارة الصليبيين على مدينتي صرند و صيدا سنة (٧٧٠هـ):

١٦٣

سادسا: فتح مدينة سويس للمرة الثانية سنة (٧٧٦هـ):

١٦٤

٢٦- سلطنة الملك المنصور علي بن الملك الأشرف شعبان (٧٧٨هـ

- ٧٨٣هـ):

١٦٥

٢٧- السلطان الصالح صلاح زين الدين حاجي بن الأشرف

شعبان (٧٨٣هـ - ٧٨٤هـ):

١٦٧

الفصل الثالث: دولة المماليك الثانية_ المماليك البرجية (٧٨٤هـ

- ٩٢٣هـ)

١٦٩

١- السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بن أنص العثماني (٧٨٤هـ

- ٧٩١هـ):

١٧٠

حركة الجهاد في عهد السلطان الظاهر برقوق:

١٧٠

أولا: غارة الفرنج على مدينة إياس سنة (٧٨٥هـ):

١٧٠

ثانيا: خروج سفن السلطان للغزو في البحر سنة (٧٨٧هـ):



١٧١

ثالثا: غارة الفرنج على مدينة طرابلس سنة (٧٨٩هـ):

١٧٢

٢- السلطان المنصور حاجي وهي سلطنته الثانية (٧٩١هـ - ٨١٤هـ):

٣- السلطان الظاهر برقوق وهي سلطنته الثانية (٧٩٢هـ - ٨٠١هـ):

٤- السلطان الناصر زين الدين أو السعداء فرج بن برقوق بن أنص

١٧٢

(٨٠١هـ - ٨٠٨هـ):

١٧٣

حركة الجهاد في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق:

أولا: ظهور القان تيمور لك واجتياحه للشرق ودخوله إلى الشام

١٧٣

سنة (٨٠٣هـ):

ثانيا: معركة دمشق وهزيمة السلطان الناصر فرج أمام تيمور لك

١٧٥

سنة (٨٠٣هـ):

١٧٦

ثالثا: غارة الفرنج على مدينة طرابلس سنة (٨٠٤هـ):

١٧٧

رابعا: غارة الفرنج الثانية على طرابلس سنة (٨٠٦هـ):

٥- السلطان المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨هـ -

١٧٨

٨٠٩هـ):

٦- سلطنة الناصر فرج بن برقوق وهي سلطنته الثانية (٨٠٩هـ -

١٧٩

٨١٥هـ):

١٧٩

حركة الجهاد في عهد السلطان الناصر فرج الثانية:

١٧٩

أولا: غارة الفرنج على مدينة الطينة سنة (٨١٤هـ):

١٨٠

ثانيا: الغارة ثانية على مدينة الطينة سنة (٨١٤هـ):

١٨١

٧- الخليفة العباسي والسلطان المستعين بالله العباس بن المتوكل

(٨٠٨هـ - ٨١٥هـ):

٨- السلطان المؤيد أبو النصر شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري

١٨٢

(٨١٥هـ - ٨٢٤هـ):

١٨٢

حركة الجهاد في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي:

١٨٢

أولا: إستعادة مدينة طرسوس سنة (٨١٨هـ):

١٨٣

ثانيا: غارة الفرنج على مدينة الإسكندرية سنة (٨١٩هـ):

١٨٤

ثالثا: إستعادة السلطان نفوذ المماليك في بلاد سويس سنة (٨٢٠هـ):

١٨٥

رابع: الحرب مع الملك قرا يوسف سنة (٨٢١هـ):

١٨٦

خامسا: الحرب مع أمير قرمان والاستيلاء على مدينة قيسارية الروم

سنة (٨٢٢هـ):



١٨٧

سادسا: الاستيلاء على مدينتي نكدة ولارندة سنة (٨٢٢هـ):

١٨٨

سابعا: القبض على محمد بيك بن قرمان وحمله الى القاهرة سنة (٨٢٢هـ):

١٨٩

ثامنا: سجن محمد بن قرمان بالقلعة سنة (٨٢٣هـ):

١٨٩

تاسعا: إعلان إمارة قرمان دخولها في طاعة المماليك سنة (٨٢٣هـ):

١٩٠

هل مات الأمير إبراهيم ابن السلطان مسموما سنة (٨٢٣هـ):

١٩١

٩- السلطان المظفر أبو السعدات أحمد ابن المؤيد الشيخ المحمودي (٨٢٤هـ - ٨٣٣هـ):

١٩١

١٠- السلطان الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر الظاهري (٨٢٤هـ):

١٩٢

١١- السلطان الصالح محمد ابن الظاهر ططر الظاهري (٨٢٤هـ - ٨٢٥هـ):

١٩٣

١٢- السلطان الأشرف أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري فاتح قبرص (٨٢٥هـ - ٨٤١هـ):

١٩٣

حركة الجهاد في عهد السلطان الأشرف برسباي:

١٩٣

١- غزو وفتح جزيرة قبرص الصليبية والقضاء على آخر معاقل الصليبية:

١٩٤

الغزوة الصغرى للجزيرة سنة (٨٢٧هـ):

١٩٤

الغزوة الثانية للجزيرة سنة (٨٢٨هـ):

١٩٥

الغزوة الكبرى وفتح الجزيرة كلها سنة (٨٢٩هـ):

١٩٦

معركة خيروكيثا الفاصلة:

١٩٧

الاستيلاء على نيقوسيا عاصمة قبرص:

١٩٨

٢- محاولة الفرنج الغارة على مدينة الإسكندرية سنة (٨٣٢هـ):

١٩٩

٣- محاولة الكتيان الغارة على مدينة الإسكندرية سنة (٨٤٠هـ):

١٩٩

١٣- السلطان العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن الأشرف (٨٤١هـ - ٨٤٢هـ):

٢٠٠

حركة الجهاد في عهد السلطان العزيز يوسف:

٢٠٠

الحملة على منطقة الشمال الغربي من قونية سنة (٨٤١هـ):

١٤- السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلاني



٢٠٠

٢٠١

٢٠١

٢٠٣

٢٠٣

٢٠٤

٢٠٦

٢٠٨

٢٠٩

٢١٠

٢١١

٢١١

٢١٢

٢١٢

٢١٤

٢١٦

٢١٦

٢١٧

٢١٧

٢١٨

٢١٩

٢١٩

الظاهرى (٨٤٢هـ - ٨٥٧هـ):

حركة الجهاد فى عهد السلطان الظاهر جقمق:

أولاً: محاولة السلطان جقمق إرسال النجدة لأهل غرناطة سنة (٨٤٤هـ):

ثانياً: محاولة الظاهر جقمق فتح جزيرة رودس:

الغزوة الأولى لجزيرة رودس فى سنة (٨٤٤هـ):

الغزوة الثانية لجزيرة رودس سنة (٨٤٧هـ):

الغزوة الثالثة لجزيرة رودس سنة (٨٤٨هـ):

ثالثاً: طلب شاه روخ بن تيمور لك من السلطان كسوة الكعبة المشرفة سنة (٨٤٨هـ):

رابعاً: العبيد الشناترة يقيمون سلطنة داخل دولة الظاهر سنة (٨٤٩هـ):

خامساً: نهب جهان كير بن علي قرايولك مدينة ألبيرة سنة (٨٥١هـ):

١٥- سلطنة المنصور أبو السعدات عثمان فخر الدين (٨٥٧هـ - ٨٦٤هـ):

١٦- سلطنة الأشرف أينال العلائى الناصرى (٨٥٧هـ - ٨٦٥هـ):

حركة الجهاد فى عهد السلطان الأشرف أينال:

التجريدة التى خرجت إلى جزيرة قبرص سنة (٨٦٣هـ):

مصير التجريدة التى خرجت إلى جزيرة قبرص:

١٧- السلطان المؤيد شهاب الدين أبو الفتح أحمد بن السلطان أينال (٨٦٥هـ - ٨٩٣هـ):

١٨- السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد خشقدم (٨٦٥هـ - ٨٧٢هـ):

أولاً: خروج تجريدة لتأديب جزيرة قبرص:

التجريدة الأولى سنة (٨٦٧هـ):

ثانياً: عصيان شاه سوار وإعلانه الحرب ضد المماليك سنة (٨٧١هـ):

ثالثاً: خروج التجريدة لمحاربة شاه سوار سنة (٨٧٢هـ):

١٩- السلطان الظاهر أبو النصر يلباي المؤيدى (٨٧٢هـ - ٨٧٣هـ):



- ٢٢٠ شاه سوار يكسر الجيش الشامي والحلي سنة (٨٧٢هـ):
- ٢٢٠ ٢٠- السلطان الظاهر أبو سعيد تمرغا الظاهري (٨٧٢هـ - ٨٧٩هـ):
- ٢٢١ بداية طمع حسن الطويل ملك مملكة العراقيين في دولة المماليك:
- ٢٢١ ٢١- السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي الظاهري
- ٢٢٢ (٨٧٢هـ - ٩٠١هـ):
- ٢٢٢ أولاً: الحرب مع إمارة ذي القادر سنة (٨٧٢هـ):
- ٢٢٢ التجريدة الأولى في رجب سنة في سنة (٨٧٢هـ):
- ٢٢٣ التجريدة الثانية سنة (٨٧٢هـ):
- ٢٢٥ حرب نائب ملطية مع سوار سنة (٨٧٤هـ):
- ٢٢٥ رسول سوار الى السلطان سنة (٨٧٤هـ):
- ٢٢٦ مقتل الأمير قرقماس الصغير على يد شاه سوار سنة (٨٨٦هـ):
- ٢٢٦ التجريدة الثالثة والأخيرة سنة (٨٧٥هـ):
- ٢٢٨ القبض على شاه سوار بن ذي القادر سنة (٨٧٧هـ):
- ٢٣٠ ثانياً: الحرب مع الملك حسن الطويل سنة (٨٧٧هـ):
- ٢٣٢ استيلاء حسن الطويل على بعض البلاد وتهديده لأمير الأبلستين
- ٢٣٢ سنة (٨٧٧هـ):
- ٢٣٢ القبض على جواسيس حسن بك الطويل بحلب سنة (٨٧٧هـ):
- ٢٣٣ انتصار يشبك الدوادر على جيش حسن الطويل سنة (٨٧٧هـ):
- ٢٣٤ الأمير محمد أوغلوا بن حسن الطويل يستنجد بنائب حلب سنة
- ٢٣٤ (٨٨٠هـ):
- ٢٣٥ بابندر نائب ابن حسن الطويل يقتل الأمير يشبك سنة (٨٨٥هـ):
- ٢٣٦ سفارة يعقوب بن حسن الطويل للسلطان الأشرف سنة (٨٨٦هـ):
- ٢٣٦ السفارات الدولية في عهد السلطان الأشرف قيتباي:
- ٢٣٧ سفارة ملك الهند غياث الدين سنة (٨٧٦هـ):
- ٢٣٧ سفارة السلطان الأشرف لملك قطلونية سنة (٨٨٤هـ):
- ٢٣٧ سفارة ملك قبرص للسلطان سنة (٨٨٤هـ):
- ٢٣٨ سفارة ملك غرناطة طالبا النجدة من السلطان سنة (٨٩٢هـ):
- ٢٣٩ تجار الفرنجة يأسرون تجار السلطان:



٢٣٩

أعمال السلطان التحصينة ضد هجمات قرصنة الفرنج:

٢٤٠

أولا: بناء البرج العظيم في مدينة رشيد سنة (٨٧٦هـ):

٢٤٠

ثانيا: إنشاء السلسلة الضخمة على ساحل دمياط سنة (٨٨٤هـ):

٢٤٠

ثالثا: بناء قلعة قايتباي بالإسكندرية سنة (٨٨٤هـ):

٢٢- السلطان ناصر الدين أبو السعدات محمد بن قايتباي (٩٠١هـ

٢٤٣

- ٩٠٤هـ):

٢٤٣

٢٣- السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه (٩٠٤هـ - ٩٠٥هـ):

٢٤٣

٢٤- السلطان الأشرف جان بلاط (٩٠٥هـ - ٩٠٦هـ):

٢٤٤

٢٥- السلطان العادل طومان باي (٩٠٦هـ):

٢٤٤

٢٦- السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦هـ - ٩٢٢هـ):

٢٤٥

الأساطيل البرتغالية والإسبانية تغزوان العالم الإسلامي:

٢٤٥

١- الدافع الديني:

٢٤٥

٢- الدافع الاقتصادي:

٢٤٦

أولا: الخطر البرتغالي:

٢٤٦

ثانيا: الخطر الأسباني:

٢٤٧

ثالثا: باررثولوميو دياز يكتشف رأس الرجاء الصالح سنة (١٤٨٨م):

٢٤٨

حركة الجهاد في عهد السلطان قنصوه ضد البرتغاليون والأسبان:

٢٤٨

١- كسر أمير ينبع يحيى بن سبع سنة (٩١٢هـ):

٢٤٨

٢- بناء أبراج على ساحل بندر جدة (٩١٢هـ):

٢٤٩

٣- الاستيلاء على مدينة سواكن سنة (٩١٢هـ):

٢٥٠

ثانيا: معركة شاول أو غوا سنة (٩١٤هـ):

٢٥٢

ثالثا: الأمير تمر باي الهندي يأسر مركب للفرنجة سنة (٩١٤هـ):

٢٥٣

رابعا: معركة ديو وتدمير الأسطول المملوكي سنة (٩١٥هـ):

٢٥٤

خامسا: محمد بك قريب السلطان يأسر مركب للفرنج سنة

(٩١٥هـ):

٢٥٥

سادسا: استنجد ملك محمود شاه بالسلطان ملك كُنباية سنة

(٩١٦هـ):

٢٥٥

سابعاً: الأسطول الأسباني يحتل مدينة طرابلس الغرب سنة (٩١٦هـ):



٢٥٥

ثامنا: القراصنة يقتلون الأمير محمد بك سنة (٩١٦هـ):

تاسعا: الرئيس حامد المغربي يأسر مجموعة من القراصنة سنة (٩١٧هـ):

٢٥٦

عاشرا: الأسطول المملوكي العثماني يتوجه الى الهند سنة (٩٢١هـ):

٢٥٦

ما حل بهذه الحملة وعودتها الى مصر سنة (٩٢٣هـ):

٢٥٧

٢٧- السلطان الأشرف أبو النصر طومان باي (٩٢٢هـ - ٩٢٣هـ):

٢٥٨

الفصل الرابع: العلاقات بين العثمانيين والمماليك - زمن المحبة والاحترام:

٢٦١

أولا: مراد الأول بن أورخان والسلطان الأشرف زين الدين شعبان:

٢٦٥

ثانيا: مراد الأول والسلطان الظاهر برقوق بن أنص:

٢٦٦

ثالثا: بايزيد الأول الصاعقة بن مراد والسلطان الظاهر برقوق:

٢٦٧

رابعا: بايزيد الأول الصاعقة والسلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق:

٢٦٨

موقعة أنقرة وأسر بايزيد الأول سنة ٨٠٤هـ:

٢٧٠

خامسا: الملك محمد جلبي الأول والسلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي:

٢٧٢

سادسا: مراد الثاني والسلطان الأشرف برسباي الدقمقي:

٢٧٣

مصاهرة السلطان الأشرف برسباي للأمير سليمان العثماني:

٢٧٣

سابعا: مراد الثاني والسلطان الظاهر أبو سعيد جقمق العللي:

٢٧٤

ثامنا: محمد الثاني الفاتح والسلطان الظاهر جقمق:

٢٧٦

مصاهرة السلطان الظاهر جقمق للعثمانيين:

٢٧٧

تاسعا: محمد الفاتح والسلطان الأشرف أينال العللي:

٢٧٨

العثمانيين والمماليك - زمن العداوة والحرب

٢٨١

عاشرا: محمد الثاني والسلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد خشقدم:

٢٨٢

ندية السلطان محمد الثاني للسلطان الظاهر :

٢٨٢



٢٨٣

تبعية صاحب قونية للعثمانيين و إعلان عصيانه للمماليك:

٢٨٤

تدخل محمد الثاني في شؤون الأبلستين:

٢٨٤

ضم محمد الثاني لدولة بني قرامان سنة (٨٧١هـ):

٢٨٥

الحادي عشر: محمد الثاني الفاتح والسلطان الأشرف أبو النصر قايتباي:

٢٨٦

الثاني عشر: بايزيد الثاني والسلطان الأشرف قايتباي:

٢٨٧

طلب أخو بايزيد الثاني اللجوء إلى سلطنة المماليك سنة (٨٨٦هـ):
طلب الأمير جم بن عثمان السفر إلى بلاده لمحاربة أخيه بايزيد سنة (٨٨٧هـ):

٢٨٨

٢٨٨

هزيمة الأمير جم أمام أخيه بايزيد الثاني سنة (٨٨٧هـ):

٢٨٩

الحرب الأولى بين العثمانيين والمماليك في الأبلستين سنة (٨٨٩هـ):

٢٨٩

مبادرة السلطان الأشرف الصلح مع بايزيد الثاني:

٢٩٠

استيلاء العثمانيين على قلعة كولك شمال بلاد الشام سنة (٨٩٠هـ):

٢٩١

الحملة الأولى للمماليك على العثمانيين سنة (٨٩١هـ):

٢٩٣

قدوم الأمير أوزبك قائد جيش المماليك ومعه الأسرى إلى مصر سنة (٨٩١هـ):

٢٩٣

الحملة الثانية ومحاولة بايزيد الانتقام لهزيمته من المماليك سنة (٨٩٣هـ):

٢٩٥

إرسال حملة صغيرة لحماية مدينة حلب من العثمانيين سنة (٨٩٤هـ):

٢٩٦

القبض على جاسوس لبيازيد في مدينة حلب:

٢٩٦

الحملة الثالثة والأخيرة للسلطان الأشرف ضد العثمانيين سنة (٨٩٥هـ):

٣٠٠

الثالث عشر: بايزيد الثاني والسلطان ناصر الدين محمد بن قايتباي:

٣٠٠

الرابع عشر: بايزيد الثاني والسلطان الظاهر أبو سعيد قنصوه الأشرفي:

٣٠١

الخامس عشر: بايزيد الثاني والسلطان الأشرف قنصوه الغوري:



٣٠٢

مجيء الأمير قرقد بن بايزيد الثاني الى مصر سنة (٩١٥هـ):

٣٠٣

السادس عشر: السلطان سليم الأول الرهيب والسلطان الأشرف قنصوه:

٣٠٣

سفارة السلطان الأشرف الى السلطان سليم الأول لشراء أدوات حربية:

٣٠٤

هروب الأميران سليمان وعلي ابني الأمير أحمد بن بايزيد الثاني الى مصر سنة (٩١٨هـ):

٣٠٥

سفارة السلطان سليم الأول للسلطان الأشرف بشأن الحرب ضد الشاه إسماعيل:

٣٠٦

سفارة سليم الأول الى السلطان قنصوه للبشارة بانتصاره على الشاه إسماعيل:

٣٠٧

بداية الخلاف بين سليم الأول والأشرف قنصوه الغوري:

٣٠٨

نذائر الحرب بين السلطنتين:

٣٠٩

خروج السلطان قنصوه الغوري إلى مرج دابق لمحاربة السلطان سليم الأول سنة (٩٢١هـ):

٣١٠

هزيمة قائد الشاه إسماعيل وعدم وصول الجيش الى ديار بكر:

٣١٠

المراسلات بين السلطان سليم الأول والسلطان الغوري:

٣١٢

موقعة مرج دابق سنة (٩٢٢هـ):

٣١٣

السابع عشر: الأشرف طومان باي سلطان المماليك الأخير والسلطان سليم الأول:

٣١٣

موقعة الريدانية وهزيمة طومان باي سنة (٩٢٢هـ):

٣١٤

دخول سليم الأول مصر ودخوله القلعة مقر المماليك:

٣١٦

حرب السلطان الأشرف طومان باي للعثمانيين بالجيزة:

٣١٦

خيانة شيخ العرب حسن بن مرعي لطومان باي:

٣١٧

نهاية السلطان العظيم طومان باي سنة (٩٢٣هـ):

٣٢٠

السيف والدرع في مواجهة البندقية والمدفع:

٣٢٣

خاتمة:

٣٢٥

قائمة المصادر والمراجع:

@booka.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر



ت ٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

info@noonpublishing.net

صقوراالمشرق بدايية ونهاية المماليك

من هم المماليك؟ ومن أين أتوا؟ ومتى
كان ظهورهم في التاريخ الإسلامي؟ وما
الدور الذي لعبوه في الدولة الإسلامية؟
كل هذه أسئلة تثير في ذهن القارئ
والباحث في التاريخ الإسلامي العديد من
التساؤلات سوف أحاول الإجابة عنها في هذا
الكتاب الذي أتكلم فيه عن ظهور
المماليك وحروبهم ضد التتار والصليبيين
لحماية دولة الإسلام، ثم صراعهم مع
العثمانيين والذي انتهى بسقوط دولتهم
على يد السلطان سليم الأول.

ISBN: 9789777782531



9 789777 782531

غلاف: إسلام مجاهد

